

المجلس الأعلى

رعاية الفنون والآداب

# حافظ إبراهيم

مرحباً بحافظ إبراهيم  
٢٥ يونيو ١٩٥٧

المنشية للأسميرات بالقاهرة

١٩٥٧

المجلس الأعلى  
لرعاية الفنون والآداب

# حافظ إبراهيم

مرجان حافظ يالسكندرية  
٢٥ يونيو ١٩٥٧

المطبعة الأميرية بالقاهرة

١٩٥٧



حافظ إبراهيم

# تصدير

الغاية التي أنشئ من أجلها مجلس الفنون والآداب هي رعاية الفن وتنميته ، والاحتفاظ بشخصية الأمة وتطورها .

وإحياء ذكرى الفنانين والتعریف بآثارهم ، وتقدير ما أسفلوا في حیاتهم نحو أمتهم من الواقع الباقي على الزمن ، وجه من أهم أوجه هذا النشاط المتألى لتحقيق رسالة الفن والأدب التي يدعو إليها المجلس ويعمل من أجلها .  
والاحتفال بحافظ ابراهيم كان نموذجا لهذا العرفان بحق الأدباء ، و اختيار حافظ ابراهيم ليكون ثانى إثنين من شعراء الوطنية النائرين تقرر الاحتفال بهما ، أو لها البارودى ، هذا الاختيار كان تطبيقا للقواعد التي حدتها بلخة الشعر بالمجلس ، من اختيار مناسبة حية من الحوادث البارية للاحتفال بالشاعر توافق من حياته وأعماله ما يقتضى اختياره أو تفضيله على غيره للاحتفال بذلك في هذه المناسبة ، دون انتظار ما جرت العادة به من مرور فترة زمنية ألف الناس فيها الاحتفال بعظماء الفكر والثقافة .

(ر)

وحاّظ شاعر الشعب الجهير ، وشاعر الأمة العربية المعاشرة ، حافظ النائز المتمرد على الاحتلال في أول ثورة عسكرية ضد الإنجليز في السودان أجدر أن يحتفل بذكراه بعد أن نفضت مصر أغلالها ، وفي هذه الأيام المجيدة من تاريخ مصر وتاريخ الأمة العربية المعاشرة .

فالحفاوة بحافظ ابراهيم حق وواجب كما قال السيد كمال الدين حسين رئيس المجلس في افتتاح هذا المهرجان .. " لقد عاش حافظ حياته يتغنى بأمجاد الأمة العربية ، ومات ولم تزل على شفتيه كلمات يهتف بها ؛ يدعو أمهاته إلى أمجادها ، فكأنما كان مع هذه الأيام العظيمة على ميعاد ."

لقد كان الاحتفال بحافظ مهرجاناً قومياً رائعاً التقى فيه العرب جميعاً ممثلين في وفودهم التي استجابت لدعوة المجلس كي تشارك في هذه الذكرى.

وشهدت الاسكندرية أسبوعاً مفعماً بعواطف هذا التلاقي للتعرّيف بحافظ وإحياء ذكراه ، وتبادل مشاعر الإخاء والمحبة المستكنة في وجдан الشعوب العربية ، بخاء هذا الاحتفال ليكون مظهراً من مظاهر التعبير عنها .

بدأ الاحتفال في الخامس والعشرين من يونيو ودام إلى التاسع والعشرين منه . وألقى فيه المندوبون العرب كلماتهم ودراساتهم عن حافظ شاعر العرب وتأثيراته في نفوس هذا الجيل من شباب العرب ، ثم تعاقب

(ز)

المتحدثون الذين قاموا بإعداد البحوث والمحاضرات التي تتناول كل الجوانب الفنية في شخصية حافظ وأدبه ، والتي يكتمل بتنوعها كل ما يهم الدارس أن يعرفه عن حافظ : عصره وما ضمّن به من أحداث سياسية وثقافية، وحياته الاجتماعية والفكيرية، وأدبه في الشعر والنثر والترجمات ، ولقد نهض بهذه الدراسات طائفة مختارة من كبار الأدباء .

وإنقضى هذا المهرجان الحاشد بعد أن استوفى الغاية التي أقيم من أجلها . وكان لا بد أن تضم هذه الكلمات والدراسات بعضها إلى بعض . لأن هذه الدعوة كما قال الأستاذ يوسف السباعي السكرتير العام للجلس : ”لا يقصد من هذه الدعوة مجرد حفل تأبين تليق فيه كلمات المدح والرثاء ، وإنما يقصد بها دراسة كاملة لحياة الفنان ، وإلقاء الأضواء الكاشفة على إنتاجه من أقدر الناس على تقديم البحوث الواافية ، والدراسات المستفيضة لهذا الإنتاج ” . وإذاً فلا بد أن يجد الدارسون لحافظ بين أيديهم كتاباً يضم نتاج هذه البحوث والدراسات .

ومن أجل تحقيق هذه الغاية . يصدر هذا الكتاب م

کتابت

# الافتتاح

## كلمة السيد كمال الدين حسين

### رئيس مجلس

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة :

باسم الله أفتح هذا المهرجان ، للحفاوة بذكرى الشاعر العربي الكبير  
حافظ إبراهيم لمناسبة مرور ربع قرن على وفاته .

وإنه لمن حق حافظ إبراهيم ، أن تخفي الأمة العربية بذكراه ، وأن  
يجتمع للحفاوة بهذه الذكرى ، أدباء من كل قطر من أقطار الأمة العربية  
فقد كان حافظ إبراهيم ، شاعرا للأمة العربية كلها ، لا لمصر وحدها  
وكان في شعره رائدا من رواد هذه النهضة التي تأبى بها الأمة العربية  
في التاريخ ، وثبتت صنعته ، لتحقق وجودها وتثبت مكانتها بين أمم  
الحضارة .

ومن حق النابغين على قومهم ، أن يحتفوا بهم أحياء و بعد رحيلهم عن الحياة ، فإن ذلك خليل بـأن يبعث في نفوس الأحياء منهم رضا و اطمئنان و راحة نفس ، تحفظهم إلى المضى فيما بدءوا ، و أن يبعث في نفوس من بعدهم ألوانا أخرى من الرضا و الاطمئنان و راحة النفس ، تحملهم على الدأب و تحفظهم إلى القدوة .

على أن الحفاوة بالنابغين في ذاتها والاحتفال بذكراهم ، حق و واجب لأنها مظاهر وفاء ، وأماراة وعن ، وبرهان تجاوب بين النابغة و قومه فهم حين يحتفون به إنما يقدمون البرهان على أنه منهم ، ولهم ، وأمجاده شركة بينه وبينهم .

فإذا كانت الأمة العربية الناھضة قد اجتمعت اليوم لذكرى حافظ فذلك برهان وعيها للمعنى القومي العظيم التي عاش حافظ يعزف على قيثارتها ، منذ وعي إلى أن غيبه القبر .

وإن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب في مصر ، إذ يدعوكم إلى هذا المهرجان لذكرى حافظ ، كما دعا منذ أشهر لمهرجان مماثل لذكرى الفنان ناجي ، ليس تن سنة جديدة في بلادنا ، يقدم بها البرهان على أن الأمة العربية تعرف أقدار النابغين من بناتها ، لأنهم منها ، ولها ، وأمجادهم شركة بينهم وبين الأمة التي أنجبتهم واعترفت بحقهم .



السيد / كمال الدين حسين يسمع إلى بعض الكلمات

## أيها السادة :

وإنه لتوافق عجيب ، أن يكون اجتماعنا للحفاوة بذكرى حافظ ، في هذه الأيام المجيدة من تاريخ الأمة العربية ، فقد عاش حافظ حياته يتغنى بأمجاد الأمة العربية ، ويدعو إلى الحرص عليها والاستمساك بها ، والعمل لها ، ومات ولم تزل على شفتيه كلمات يهتف بها ، ليدعوه أنته إلى أحجادها ، فكأنما كان مع هذه الأيام العظيمة على ميعاد ، فكانت وفاته في الواحد والعشرين من شهر يوليه ، منذ ربع قرن مضى ، لتكون ذكراه المتتجدة في مثل هذا التاريخ من كل عام ، جزءاً من ذكريات الأمجاد العظيمة التي نختلف بها في مثل هذه الأيام من كل عام .

وإنه لتوافق عجيب آخر ، أن تكون الملامح الواضحة في حياة حافظ إبراهيم ، متلاعة كل التلاؤم مع الملامح الواضحة في نهضتنا القومية الحاضرة فقد جمع حافظ إبراهيم في طرق حياته بين صفتين بارزتين ، فكان ضابطاً شاعراً ، رجل حرب ورائد نهضة ، حامل سيف وصاحب مثل ، ونهضتنا الحاضرة تجمع بين الصفتين ، فهى نهضة جيش ونهضة أمة ، دعوة إلى القوة ودعوة إلى المثل العليا ، لتحقيق آمال شعب عظيم ، يؤمن بالحرية وبالسلام وبكرامة الإنسان .

صفتان بارزان في حياة حافظ إبراهيم ، لم تجتمعا من قبل في تاريخنا المعاصر إلا لرجل واحد سمه إلى الآخرة بستين قليلة ، هو الصابط الشاعر محمود سامي البارودي ، وكان البارودي مثل حافظ إبراهيم ، معبرا عن ملامح نهضة مثل نهضتنا ، وإن لم يكتب لها التوفيق ، دى النهضة العربية .

### أيها السادة

إنني لا أطلع إلى هذه الوجوه الكريمة ، لطائفها كريمة من أهل الفكر والأدب ، قد اجتمعوا من شتى أقطار الأمة العربية ، للاختفال بذكر الشاعر العربي حافظ إبراهيم ، فأنا شعر يقينا فوق يقيني ، بأن القومية العربية التي تغنى بها حافظ ، وشوقي ، والبارودي ، وأولئك الرؤاد الأول من شعراء الشام ، والعراق ، والجزيرية ، والسودان ، والمغرب العربي ، لم تزل حقيقتها تستعلن كل يوم بيران جديد ، وأنتم في اجتماعكم هذا بردان من أعظم براهينها .

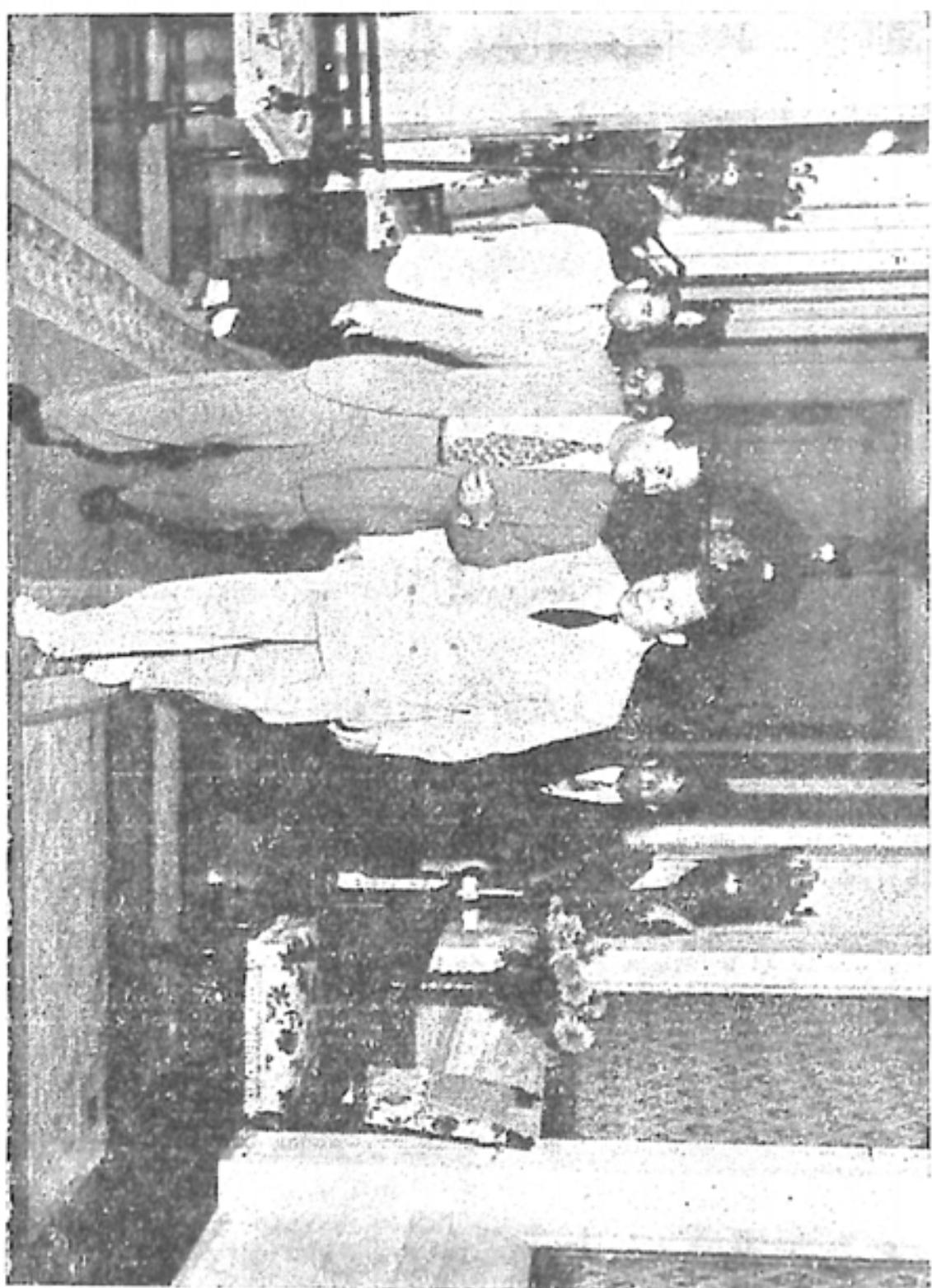
طبّتم مقاما ، وطبّتم مسعي ، وطّاب شاعرنا أثرا وذكري ، وشكرا الله لكم هذا الوفاء

والسلام عليكم ورحمة الله .

# كلمة المجلس للأستاذ يوسف الشاعري

سيدي آتى سادتى :

نحن هنا لنحي ذكرى حافظ ، و مجلس الفنون والآداب الذي أنشئ من أجل الارتفاع بمستوى الإنتاج الفكري في مجالات الفنون والآداب والبحث عن الوسائل التي تؤدي إلى تنشئة أجيال من أهل الآداب والفنون يستشعرون الحاجة إلى إبراز الطابع القومي في الإنتاج الفكري بشتى صنوفه ويعملون على التقارب في الثقافة والذوق الفني بين المواطنين مما يتيح للأمة أن تسير موحدة في طريق التقدم محفوظة بشخصيتها وطابعها الحضاري المميز. هذا المجلس عندما يدعوه لتكريم فنان راحل، وإحياء ذكراه لا يقصد من هذه الدعوة مجرد حفل تأبين ، تلقى فيه كلمات المديح والرثاء .. وإنما يقصد بدعوته عمل دراسة كاملة لحياة الفنان ، و إلقاء الأضواء الكاشفة على إنتاجه من أقدر الناس على تقديم البحوث الواافية والدراسات المستفيضة لهذا الإنتاج .



السيد رئيس المجلس والأستاذ يوسف السباعي في الطريق إلى حفل الشنا، يحضر المزء.

ونحن بـأحياء ذكرى الفنان .. وبتقديم دراسة لإنتاجه، إنما نذكر هذا الجيل ، بأننا شعب عربي ذو أصالة وعراقة ، وأن سلسلة الفنون والآداب التي تسمم في تكوين حضارة العالم لم تقطع قط في جيل من الأجيال بل ظلت حلقاتها متصلة مستمرة تحمل رمالمها في ثقافة العالم وحضارته ، في كل عصر ، وفي كل جيل .

ونحن عندما نحتفل بذكرى أدباءنا وفنانينا ، نحتفل بهم كشعب عربي فإن أعمق جذور القومية العربية هي الأدب العربي .. فأدباونا وفنانونا كانوا وما زالوا وسيظلون داءاً أدباء وفنانين عرباً .

فأبو العلاء ، والمتني ، وأبن الرومي رغم اختلاف أصولهم ، كانوا شعراء عرباً ، تميزهم العربية قبل كل شيء ، ولم تكن لهم صفة محلية بقدر ما كانت لهم صفة عربية ، واعتزازى بابن خلدون ، وأبن سينا لا يقل عن اعزازى عربي بهما ، وشوقى ، وحافظ .. وجبران ، ونعيمة ، لا يستطيع أن يفتخرون بـوطن عربي دون وطن عربي آخر ، ولا يقل مركزهم في العراق عنده في مصر عنه في سوريا .

ونجيب الريحانى ، وأم كاذا ، وعبد الوهاب ، في قلب كل عربي وملء سمه .. فالأدب والفن هما أقوى الصلالات وأعرقها بين شعوب العرب ، ولن تستطيع قوة أيا كانت أن توقف مشاعر الشعوب العربية

المشتركة نحو فنانيها وأدبائها ، لأن أماكنهم القلوب .. ومنازلهم الأفعدة .

وأجتماعنا هنا لإحياء ذكرى حافظ ، واشتراك إخواننا العرب في أحيائهم خير دليل على قومية الأدب العربي ، وعلى أن أدباءنا وفنانيها أدباء وفنانون عرب .

ونحن إذ نقدم حافظا ، وإنتاج حافظ ، إنما نقدم حلقة من سلسلة الثقافة العربية المتداقة في كل عصر ، وفي كل جيل ، والتي تكون جزءاً ضخماً من حضارة العالم وثقافته .

وإنني أترك الكلمة لأستاذى السيد مقرر بلحنة الشعر ليبدأ بها تقديم الشاعر وانتاجه والسلام عليكم .



## كاحمة لجنة الشعر لأستاذ عباس العقاد

تحتفلون - أمة العرب - بـ شاعر المحافل .

ومن يكون شاعر المحافل غير حافظ ابراديم ؟ لو لم يكن مسمى باسمه في هذه المذكرى لدل عليه هذا اللقب أكمل دلاله . وإنه ليبدل عليه ولو شملنا بالقول تاريخ الآداب العربية من أوائله إلى عصره الحاضر . فلا نعرف في تاريخ هذه الآداب شاعراً أحيا المحافل بقصيدة ينشدها كما كان يحييها حافظ في أيامه ، ولا نعرف هاتفها بالقول المنظوم نافس الخطباء المفوهين في ميادينهم كما نافسهم هذا الصناعة البلغ بصوته الأجرش ونفعته المعبرة وإلقائه المطبوع وإيمائه السهل ، على بساطة واعتدال وبعد عن التكلف والاسترسال .

ولقد كذا في أوج شهرة حافظ ، تغشى الحفل بعد الحفل كلما قيل إنه من أصحاب الكلمة فيه ، فإذا سمعناه فالحفل مستحق لعناء الزحام عليه والسعى إليه ، ولكنه يختلف عنه لطارئ من الطوارئ فهو إذن حفل منتشر ، أو حفل يستوي أن نقرأه في الصحف وأن نشهده شهود العيان .

ولقد نبغ حافظ في عصر المحافل والاجتماعات وكان نبوغه في ذلك العصر - ولا شك - من أسباب هذه القدرة النادرة على إنشاء الشعر وتمثيل إلقائه لمخاطبة الجموع في الأئدية العامة ، ولكنه سبب واحد وليس بالسبب الوحيد ، إذ كان في عصر حافظ شعراء يضارعونه ويسبقونه في بعض أشواطه ، ولكنهم كانوا يقرأون ولا يسمعون ، أو كانوا يسمعون من أفواه الرواة وهم مشاهدون أو غائبون . . . فهـى إذن صـحـيـة حافظية لها مصدرها من طبيعة الرجل إلى جانب مصدرها من طبيعة عصره ، وربما بدت فيه هذه السـجـيـة واـضـحـة مـحـسـوـسـة لـمـنـ عـرـفـوهـ فيـ غـيرـ المحافـلـ والـاجـتمـاعـاتـ ، فـاـلـخـنـاهـ قـطـ مـنـفـرـدـاـ إـلـاـ فـاـجـأـنـاهـ عـلـىـ حـالـ مـنـ الـكـآـبـةـ والـوـجـومـ يـسـتـغـرـبـهاـ كـلـ مـنـ سـمـعـ عـنـهـ وـسـمـعـ بـمـاـ اـشـتـهـرـ مـنـ فـكـاهـاتـهـ وـنـكـاتـهـ وـمـسـاجـلاتـهـ لـأـصـحـابـهـ فـيـ عـمـلـهـ . وـكـذـلـكـ كـانـ يـبـدوـ فـيـ حـدـيـثـهـ مـعـ صـدـيقـ أوـ صـدـيقـينـ حـيـثـ لـأـكـفـةـ وـلـأـحـرـجـ مـنـ الصـمـتـ وـالـسـكـونـ . فـاـمـاـ إـذـاـ دـارـ مـلـحـسـ عـلـىـ جـمـعـ يـحـضـرـهـ الـقـرـيبـ وـالـغـرـيبـ خـافـظـ هـمـةـ هـوـ حـافـظـ المشـهـورـ بـالـنـكـتـةـ الـحـاضـرـةـ وـالـرـوـاـيـةـ الـوـاسـعـةـ وـالـحـدـيـثـ الشـائـقـ وـالـفـكـاهـةـ الـمـرـتـجـلةـ ، وـحـافـظـ هـنـاـ هـوـ حـافـظـ عـلـىـ أـحـسـنـ مـاـ يـكـونـ وـمـاـ نـحـسـبـهـ يـرـيدـ شـيـئـاـ مـنـ ذـلـكـ فـيـ حـالـيـهـ ، وـلـكـنـهـ مـفـطـورـ عـلـىـ طـبـيـعـةـ كـطـبـيـعـةـ الـخـطـيـبـ أوـ الـمـشـدـ ، يـتـبـعـهـ مـاـ اـحـتـوـتـهـ بـدـيـهـتـهـ كـلـمـاـ نـبـهـ بـمـاـ بـحـالـ الخـطـابـةـ وـالـإـنـشـادـ .

شاعر المحاول هذا قد ظلمته المحاول حقبة من الدهر في حياته وبعد مماته وحق له زماننا أن يشكر المؤس في ثراه كما شakah غادي رائحا في دنياه، ولكن قسمته بعد الموت لم تثبت أن طابت قسمته في إبان الحياة : لقد كان مجده في حياته أقوى من بوسنه ، وكانت قدرته على انتزاع الإنصاف في زمانه أكبر من قدرة الزمن على اختلاسه . وكذلك كانت ذكراه بعد حين ، وإنكم على ذلك من الشاهدين ، بل إنكم على ذلك لمن العامدين .

\*  
\* \*

لقد كان لشاعر المحاول إذن حظ من الإنصاف مدخل حفلكم الرفيع وكان له طالع من اليمن سرهن بضمائركم الشاعرة وقلوبكم الوفية ، وزاده من يعن الطالع أن تتغىّق ذكراه في موعد كان يهفو إليه ويتمناه ، بل كان وينحتاره لو كان له فيه اختيار ، أو كأنه نظر إليه بلحظ الغيب قبل أن ينكشف عنّه الستار : موعد تطلع إليه قبل نهاية القرن التاسع عشر فتحققه الزمن بعد منتصف القرن العشرين .

كان حافظ رائدا في الحركة الوطنية كما كان رائدا في النهضة الأدبية وكان على سمة الرواد يسبق الحوادث فتؤخره الحوادث ويطول بها العهد جينا قبل أن تشب إلى التكفير عن ذلك التأخير .

\*  
\* \*

في هذا الشهر من سنة ١٩٥٢ تمت وثبة الجيش التي حققت للأمة  
عزيمة الخلاص من نير الاحتلال ونير الملكية الفاسدة ، فلو كان حافظه  
أن يختار موعداً ينتهي بذكره لما استطاع أن يختار لها موعداً خيراً من  
هذا الموعد . لأنّه حقق له حلمه فاته أن يتحققه في مطلع شبابه ، فأعقبه  
فوات الأمل حسرة من حسرات الخيبة لزمنه بقية أيامه ، وغضيشه بغاشية  
من البؤس لم تفارقها بنكسة من نكساتها إلى نهاية حياته ، ومنها — على  
ما نعتقد — سرى إلى قلبه ما سرى من خذلان أئم ، لم يكن له عذر منه  
إلا أنه ذنب زمانه وذنب بنيه .

كانت الماركة التي عرفت بحركه المذيرة أول انتقاض من الجيش بعد  
نهوض الاحتلال ، وكانت في حقيقتها بوادر الثورة بين أبناء الجيل الذي  
نشأ بعد جيل الثورة العربية ، إذ كانت ثورة الشبان من الضباط في سنة  
سبعين وتسعين « ١٨٩٩ »

كانوا في وثتهم رؤاداً فأخفقوا إخفاق الرواد ، وقال حافظ في وصفها  
من ذاته ليالي سطيع بد الإشارة إلى هياج البرلمان الانجليزي من  
جراءها : « قرر تحفيض الجيش وحكم على كل مصرى بسوء العيش  
وهأندا وليس وراء ما بي من سوء الحال غاية . . . »

وماراع حافظاً من ذلك النكال أن يحييهم على يد الاحتلال ، فهو كما قال:  
هي سنة المحتل في كل الأمور وما تبدى

ولأنه راعه ، وفت في عضده ، وأن يحيطهم النكل من أنفسهم ، وأن يضرهم الاحتلال بأيديهم ، وأن تأخذهم وشایة الزملاء ، قبل أن تأخذهم نكایة الاعداء ... ثم ذهبت الصدمة فلتحقت بها صدمة بل صدمات ، وصرت العاصفة فهبت بعدها عاصفة بل عواصف .  
وذكرت النوبة في إثر النوبة ، وتجددت النكبة من وراء النكبة ، وليس في جوانب الأمة من زاوية حية تتجاوز فيها هذه الأصداء جميعاً كما تتجاوز في نفس رجل يحمل أمانة الأدب وأمانة الحندية ، فان نفسها كهذه لها أشبه شيء بالمحس في المرصد الفلكي ، وهي في طويتها السان ناطق وحارس صادق ، تضطرب بكل ما في الأرض والسماء من خلجان الأعماق ونفثات لأجواء .

وفي هذه المحن سجل الشاعر ما سجل من وقائع زمنه ودخلاته وطننه بخري قلمه بكلمات وددنا لو خلا منها الديوان ، ولم يكن لها بين سطور الصفحات ركن من الأركان .

إلا أنها نود من الأيام ما لا توده ، وتنهى على ذمة التاريخ ما تأباه .  
فن تلك الصفحات نعلم ما لا بد لنا من علمه من دروس الحوادث وعظات الأقدار .

ودرس من تلك الدرس أن نعلم الفارق بين الرائد الأول وبين العامل الناجي المشجر الذي تحققت على يده آمال لا تتحقق على أيدي الرواد .

ودرس من تلك الدروس أن تطمئن على الأمل بين زعزع الشك والخيرة . فنعلم أن الأمل نبتة صالحة تغالب زمهرير اليأس ولفحات الألم وتعيش ثم تنضج ثم تمر ، ما دامت نامية على سدة الحياة .

ودرس من تلك الدروس أن نعطي الشوق الى الغد المأمول حقه من ملل الانتظار وطول الاصطبار ، فان انتظار المدائقن الستين يذهب بالصبر في كثير من الأحيان .

فكيف بانتظار الستين من طوال السنين .

ودرس من تلك الدروس أن نعلم ما تطلبه تربية الأئم في نهضاتها وتربيه النوازع في أيام إقبالها وإدبارها وأيام تأثيرها فيهم وتأثيرهم فيها فلن تكون التربية بين الطفولة البكرة والفتوة القوية إلا تجربة ترضى وتسمى وتحسرون وتحذر ، ويحسب فيها حساب العثرات وحساب الوثبات . ومن هذه الدروس تعلم حافظ أن الشدائند ترجى كما تخاف ، وأن المحن يومقة لا يم تصفيها حين تصرها ، وأن الرخاء بلاء لا يؤذها حين يخدرها ، وبهذه العبرة خرج من مخنة دنسوائى حين قال :

فتبطل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجع القوم الهيجـود

و بهذه العبرة نظر إلى العالمين المصري والبريطاني على ربوع السودان  
فأحزنه أن يقول :

أرى مصر والسودان وأهند واحداً بـها اللورد والفيكونت يستيقان

وابعثت من أعماقه صيحة الثورة المرجوة فقام :

إذا غضت الأفواه من كل مزبد وخرت برج الرجم للحدثان  
وعاد زمان السمهري وربه وحُكم في الهيجاء كل يمان  
هناك اذْكُر يوم الخلاء ونبها نِسَاماً عليهم يندب الهرمان

وهكذا تربى حافظ مع أمهاته النامية تربية الأحياء ، وثبتت من أحمسها  
وغدتها في ديوانه ما هو مستحق للبقاء : إما لأنه باعث لعبرة أو لأنه  
باخت لرجاء .

وما كانت حياة هذا الشاعر الحى إلا معركة في إميدان ، وما كانت  
المعارك قط سيفاً يضرب من ناحية واحدة أو درعاً تتلق الضرب من سيف  
واحد ، ولكنها صراع بين قوتين وسباق بين وجهتين ، وسعى يحسب  
حساب المشقة في الطريق كما يحسب حساب الطمأنينة إلى الغاية ، وآية  
من آيات الفلاح فيها أن يكون الحافظ مجرد يغلب على بؤسه وأمل يصلول  
على يامسه ، وهذه إحدى آياته بعد مماته : أمل فاته في صباح فادركه

في يوم ذكرىه ، وشرق تلاقت فيه الهند ومصر والسودان ولكن اللورد  
والفيكونت في هذا الشرق لا يستيقان .

\* \* \*

ليس ببدع أن نهنئ الشاعر الراحل بمحفل المحافل . فإنما يعيش  
الخالد لغده قبل أن يعيش ليومه ، وإنما تسبق التهنة إليه حين تبلغ إلى  
قومه أو حين تبلغه من قومه ، ونحسبنا نهنئه هرة ونهنىء قومه صرات :  
فإن قومه من أبناء العربية بخير مادام فيهم علم مذكور ونابغ مقدور ،  
وما دامت للسلف الأولين حياة من ذكريات الخالق الخالدين . وإنكم  
على ذلك من الشاهدين ، بل إنكم على ذلك من العاملين .



# كتابه الأردن للسيد محمد سالم الجعدي



## أيها الحفل الكريم

لعل أول سؤال يتबادر إلى الذهن عن هذا المهرجان ، وما يرمز إليه  
هو : لم يختص حافظ بهذه النعمة دون سواه من الشعراء المعاصرين ..  
وبينهم من لم يزمه حافظ ولا داناه في ثقافة أو فن .

أهو التعبو يغض عن إهمال انتابه حيا ، أم هنا لك غاية يرمي إليها الدعاة  
إلى هذا المهرجان ، أم هو رمز إلى قدسيّة تجل عن التعرّف ؟ .

إن الحيرة تناصب من يعالج تمجيد الفرد بالحكم المجرد التزيه ، ولكن  
هذه الحيرة ، إنما تتلاشى عندما يعالج العلة والمعلول في مثل هذه الحال .

لقد خضعت البلاد العربية بعد انهيار الخلافة العباسية لطوابع المغلبين ، منهم العربي ومنهم الغريب ، غريب الأهل واللسان . وكان من حسن حظ مصر ، أن يتخذها الخليفة الفاطمي عاصمة ، وأن ينشئ فيها أول مركز ثقافي عربي ، وإن لم تكنعروبة غاية في نفس المنشئ وإن كانت الغاية دعوة إلى المذهب الإسماعيلي ، غير أن اللسان العربي المبين كان الوسيلة ، وقد استجالت هذه الوسيلة إلى غاية تحققت بها الثقافة العربية .

والمراكز الثقافي ، هو الأزهر الشريف ، فبالأزهر الذي كان مراد المسلمين من كل حدب وصوب حُصن التراث العربي ، وانطلق الفكر العربي ، وازدهرت فنون الأدب العربي ، ومن هذا الأزهر — أقدم جامعات العالم — كان الإشعاع إلى أقطار الشرق كافٌة .

وتفاعل الشعور العربي في مصر بغضارة النيل ونضارته ، فاستندت عددياً من الشعراء هاماً في كل وادٍ من وديان الغزل ، والنسيب والمديح ، والهجاء ، إلى غير ذلك من ضروب الشعر وفنونه المألوفة ودامت الحال قرونًا ، والقصور الذاتي في الشعراء يغدو يوم ويروح في إطار لا يتعداه من هذه الضروب . على أن بينهم من لم يقف به القصور الذاتي عن تناول ضروب الحياة ، وصفاً وتعليقًا ، وبينهم من صور وجهها على ما يشتهى فكان شعراء وصفوا ما أحسوا من جمال ، وما فتنهم من حسن

وكان شعراء اتسموا بالطف البادرة ، وبراعة النكتة ، وكان من هؤلاء وأولئك عديد كبير بينهم المبدع الملحق ... شعراء كثروا بلاست دوايهم دور الكتب ، ولكن هذه الضرب من الشعر لم تعبر عن آلام الناس وأهالهم ، ولم تبرز أية رغبة من رغباتهم ... فما الذي كان يعني العربي المصري من أماديج تتوج بها مظاهر السطوة والطغيان عند كل ذي جاه وسلطان .

إن أولئك الشعراء الذين غصت بأشعارهم الحواضر المصرية حتى فاضت إلى بلاد العرب جموعاً لم يكونوا يعبرون عن مشاعر مصر ولا عن مشاعر العرب ، وظل الشعر في حدود إطاره حتى تدفقت التيارات الوطنية ، وأخذ الوعي الوطني يسود جنبات الوادي العزيز فتباهت فئة قليلة من الشعراء إلى ما يتحقق بالمجتمع المصري من ظالم ، وما يسوده من معارم ، فأخذت تتبه الغافلين إلى كيد الاستعمار ولؤم المستعمرين . وكان من هذه الفئة القليلة من الشعراء شاعرنا الخالد حافظ إبراهيم ، ذلك الشاعر الذي لم يرى الورود وأقدام قومه تدهها الأشواك ، ولم يشم المسك في مجتمع يغوص الآكثرون من أبنائه في أوحال الفقر والظلم .

لذلك الشاعر الذي أراد الحياة لكل مصرى كما يريد لها لنفسه . ولو أن حافظاً أراد الحياة لنفسه من دون قومه ، وأنغض عينيه عن المظالم التي كان يرسف في قيودها المجتمع المصري ، وأراق شعره في اعتاب

المساطرين إذن لضمن لنفسه بسطة الرزق ومتعة الحياة ، ولكن حافظا  
كان تلميذ المعري في قوله :

فلا هصلت على " ولا بارضي سحاب ليس تنظم البلاد  
إن تفاعل حافظ مع مجتمعه كون منه شخصية فلذة عبرت أصدق تعبير  
عن مشاعر الكثيرة من المصريين وعن رغباتها في الحياة الحرة الكريمة .

ففي شعره نفحات من أر يحية النيل ، وفيه صفاء من سماء النيل ، وفيه  
ذئمات عذاب من تغريد بلايل النيل . كل ذلك تجل في قصائد استمدت  
لغتها من ذلك الينبوع الإلهي الخالد .. من القرآن الكريم .

وكأني بالشاعر المصرى الفذ حين عبر عن مشاعر المصريين ، وغير المصريين في أبناء الأمة العربية والأمم الشرقية قد لغ من صدق العاطفة وسلامة الشعور ، وحساسة الوجدان مبلغا جعل من شعره أغاريد يرثها المرموضون من بحيرات الأسماء عمار ، المتطلعون إلى الحرية ، التواقون إلى تحقيق العدل الاجتماعي والعنزة القومية في كل صدق من أصقاع العروبة .

أيضاً الحفل الكريم

يشرقى أن أقول لكمى هذه ، باسم الأردن ، في ذكرى الشاعر العربي  
انـالـد ، الذى عرفته كـأـعـرـفـهـ أـقـرـانـيـ منـأـبـنـاءـ الـأـرـدـنـ منـذـ نـعـوـمـهـ أـظـفـارـناـ  
إـذـكـارـ مـعـلـمـونـاـ — وـهـمـ الـفـتـةـ الـاوـاعـيـةـ حـيـثـمـ — يـحـفـظـونـناـ شـعـرـهـ وـشـعـرـ

الرصافي ، والزركلي ، والقروى وأقرانهم من حلقوا في الغزل القومى  
ونبهوا الغافلين . . ليثروا فى مشارقنا حب الوطن ، وحب الحرية  
وحب العدل .

ولـ لـ حق حافظ بربه منذ ربع قرن ، كان لنـعـيـه رـنـة أـسـى فـالـوـسـطـ  
الـأـرـدـنـى ، ولـقد رـنـاهـ الشـاعـرـ الـأـرـدـنـىـ (ـأـبـوـ الـولـيدـ)ـ وـهـوـ الـأـسـتـاذـ سـعـيـدـ  
درـهـ الـوـكـيلـ الـمـسـاعـدـ لـوزـارـةـ التـرـبـةـ وـالـتـائـيمـ الـأـرـدـنـيـ حـالـيـاـ بهـوشـجـ جاءـ فـيـهـ :  
الـنـيـلـ غـيـضـ فـيـ الـأـسـىـ عـبـرـاتـهـ وـجـنـانـ جـلـقـ صـوـحـتـ لـهـاتـهـ  
وـالـرـافـدـانـ تـلـاطـمـتـ صـخـابـهـ حـزـنـاـ مـيـاهـهـماـ عـلـىـ نـفـحـاتـهـ  
وـالـمـشـرـقـانـ تـجـلـبـيـاـ ثـوبـ الـأـسـىـ وـالـمـغـرـبـانـ تـزـلـلاـ بـنـعـاتـهـ  
وـمـدـامـ الـحـوـزـاءـ تـبـكـ حـافـظـاـ وـالـأـرـضـ تـنـدـبـ فـيـهـ نـبـلـ صـفـاتـهـ

\* \* \*

جل المصاص على الصحاب فاذرف دموعك يا ساحاب  
فابحـودـ بالـدـمـعـ الطـهـورـ مـبـرـةـ فـابـكـ وـعـيـهـ

وـكانـ مـنـ الـطـرـيفـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـاثـةـ أـنـهـ تخـيلـ حـانـظـاـ فـيـ الـخـنـةـ ، وـحـولـهـ  
زـمرةـ مـنـ الـشـعـرـاءـ الـخـالـدـينـ يـيـابـونـهـ ، فـهـوـ يـقـولـ :

الـشـاعـرـ الـحـمـرـ الـمـقـالـ إـذـاـ اـذـبـرـىـ لـاشـعـرـ فـلـدـمـ يـزـدـهـىـ بـهـنـاتـهـ  
نـظمـ الـفـرـائـدـ حـرـةـ وـضـاحـةـ فـبـدـتـ تـزـيلـ الـلـاسـ عنـ غـايـاتـهـ  
مـنـ مـحـكـمـ التـزـيلـ رـصـعـ شـعـرـةـ فـتـهـيـنـ الـإـهـامـ فـيـ آـيـاتـهـ  
أـزـرـتـ مـعـانـيـهـ (ـبـعـجزـ أـحـمدـ)ـ وـحـمـاسـةـ الـطـائـيـ وـمـنـظـومـاتـهـ

هل شئت من خاف القاب مخايل الصيد الباب  
الحالدين يبايعون العبة روى الاوذعى

\* \* فزهير أنكر فضل حولياته وأبو نواس عذت نحرياته  
متحاشيا ذكرى لزومياته زفراته يحنو لدى زفراته  
واستعبر الضليل في تشبيه لمدائع النساء في عبراته  
وكانى بالشاعر الأردنى أول من ثنى لحافظ إبراهيم بهرجانات تقام  
تحليدا الذكراء حيث يقول :

والناس في الدنيا تقيم ماتما  
تسقط الضراء يوم رحيمه  
فواكب الأحياء حول ضريحه  
وماتم الدنيا غداة وفاته  
رحم الله حافظا فقد عاش في وطنه داعية إصلاح ، شق بشهائه  
وسعد بسعادته ، وأمتع اللهعروبه بالبررة العاملين المخلصين من أبنائها  
الداعين إلى الحرية والكرامة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

# كامل توشن

## السيد محمد العروسي



أيها السادة

ليس حافظاً شاعر مصر، إنما هو شاعر العرب، فلكل قطر من أقطار العرب نصيب، ولكل قب من قلوب العرب مقام، مقام لحافظ إبراهيم الذي كان وما زال خير من سجل وخير من مثل أمم العرب في سائر أقطارها.

فالمراحل الزمنية التي عاشها حافظ إبراهيم إنما هي تشبه المراحل العديدة الزمنية التي عاشتها الأقطار العربية في مختلف الأزمنة والعصور من حيث إنها تتشابه في أوضاعها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فاذا كان حافظ إبراهيم شاعر الشعب متصل به محتكا به محبرا عن آماله منددا بالظلم والطغيان، ففي إمكان تلك اللمحات التي تعبّر عمّا يقاسى

الشعب من ظلم وعنت وحرمان — أن تقال في كل شعب من الشعوب العربية لأنها كلها تتحقق في ذلك المظاهر، ولأنها كلها تتشابه فيما كانت عليه من أوضاع وفيما كانت عليه من محن ، وما كانت تقاسيه من آلام، وما كانت تهدف إليه من آمال .

ولهذا... لهذا السبب النفسي كان لحافظ مقاما قد لا نجد له عند غيره من الشعراء فإن الحرمان الذي قاساه ، والوضع الذي كان يشكوه كان نقطتا تلاق بين جميع الآملين والمكافحين في سبيل رفع الطغيان والظلم والتعسف . فإذا نحن قطعنا النظر عن المناسبات التي قال فيها حافظ شعره شعر المحايل أو المناسبات الذي يتسم بصبغته الخصوصية والمحالية ونظرنا إلى تلك المحات التي يقولها معبرا عن شعره ، معبرا عن نفسه وعن شعور شعبه . فإننا نجد إخوانا له في سائر الأقطار العربية من الشعراء يتلاقون معه تلقيا عجيبة في ذلك .

ولو أن المقارنة بعيدة بين حافظ ابراهيم وأبو القاسم الشابي ، ولكن تلقيا عجيبة نجد بين الشاعرين . فكلامهما كان يلقي حرمانا ويعانى آلاما ، وكلامهما كان يلقي صدودا من بعض الأوساط المختلفة ، ولكنهما كانا أيضا يتلاقيان في أن كلامهما كان يعبر عنما يحس به الشعب ، وكانا ينددان بالظلم والظالمين ويدعون إلى الإرتقاء وإلى التحرر .

ويكفي حافظاً أن سار ذكره حتى لدى الأوساط من الطابة حتى  
بقصيدة التي يتحدث فيها عن اللغة العربية حيث كان معبراً عن المحافظة  
على ذلك الرباط المقدس الذي يربط بين مختلف الأقطار العربية مهمها  
تناءات الديار وتباعدت الأقطار .

فقد كانت قصيدة تلك محفوظة في كل قلب ، مذكورة على كل لسان  
في العراق والشام ومصر والسودان ولibia وتونس والجزائر والمغرب .  
وفي كل قطر عربي كان كل واحد يعتز بهذه اللغة يعتبر حافظاً معبراً عن ذلك  
الاعتزاز يدعوه إلى التحفز وإلى العمل لا للحافظة على مجرد أنها لغة  
وإنما للحافظة على أنها رباط مقدس يجب علينا أن نجعله من الأدلة من  
ويحتل مكانة التي كان عليها في الزمن الماضي ، حيث كان رباطاً قوياً  
متيناً ، وحيث كانت اللغة العربية هي اللغة العالمية العالمية الأولى .

هذه بعض اعتبارات تجعل كل قطر عربي يهتم الحفظ وي فهو لذكره ،  
ويفرح إذا يدعى للمشاركة فيه . فتونس إنما تعتبر "حافظة إبراهيم"  
من الذين عبروا عن آمالها ومن الذين أوحوا إليها بالعمل والكفاح  
في سبيل التحرر من أوضاع قديمة لا تصلح للزمن ، ومن أوضاع حديثة  
أئتها الاستعمار وكل بها العرب . وإنما لمصادفة بعجيبة أيضاً أن يكون

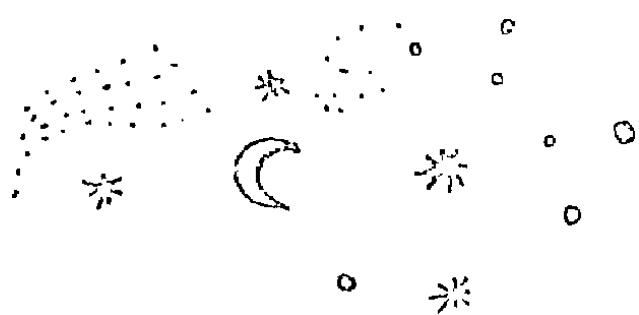
موت حافظ ابراهيم في هذا الشهر ، شهر يوليو فتلقي ذكراه بذكرى الثورة المصرية العظيمة ، وإنه لأمر عجيب لاحظته أثناء إلقاء نظرة عابرة في الديوان هو ذكرى شهر تاموز .

فشهر تاموز له أبيات عند حافظ كأنها كانت تلقيا نفسيا عجيبة بين آلام الشاعر ، وبين هذا الشهر ، وبين الأعمال التي حققها الشعب المصري بقيادة رجال النور وجمال عبد الناصر .

فيقول حافظ ابراهيم في شهر تاموز :

تاموز أنت أبو الشهداء ورجلة  
هلا جعلت لنا نصيحاً علينا  
أيُعود منك الآملون بما رجوا

كان في ذلك الوقت حرمان ، ولكن تاموز أصبح أمينة محققة ، وأصبح ذكرى من أعظم ذكريات البلاد المصرية والأمة العربية . ولهذا يتحقق لنا جميعاً أن نحتفل بحافظ ابراهيم وأن نجعل له مقاماً ممتازاً ، وقد جائزه الأقدار إذ ربطت ذكراه بذكرى النور وإنما لعم الذكرى والسلام .



# كاملة العراق للتبيّد محمد رصالح مهندس



حق على العرب أن يحتفلوا بتذكر إبراهيم شاعرهم على ضفاف النيل. أقول شاعر العرب لأن ذكره وشعره يعطى عندنا الأندية والمحابس، وهو مادة للتربيّة والتهذيب في المعاهد والمدارس، تربية للعواطف السامية وتربيّة للملائكة الأصيّة، فقد ألغينا الشاعر منذ الحداثة وتغنينا بشعره وتمتننا بطيب ذكره، فليس في العراق من أخذ حظاً من التعليم دون أن يدرس حافظاً إلى جنب الرصاصي والزهاوي والشبيبي.

فشاورنا الذي نتحفّل بتذكره يعد في الطليعة من شعراء العرب الذين بنوا الشعر بناءً جديداً، وخرجوا به من القصور والأندية الخاصة وجعلوه مادة للتبيّد عن آمال وألام المجتمع العربي في موضوعاته ومعاناته كما خرجوا به عمماً كنّ مألفاً من الصنعة والتزوّيق في تراكيبه ومبانيه.

فما كاد القرن التاسع عشر يختم أمتعته ، ويطوى ثيابه ، ويأهّب للرحيل ليترك دنيا العرب خلفه القرن العشرين يتحكم بهذه الدنيا ، أو تتحكم هذه الدنيا به حتى رأينا جنود الخلف تزحف اتفق آثار السلف ، . تطبع هذه الدنيا بطبع جديد يتجاذب مع دنيا الناس ، ويتسق مع ما في الكون من ألوان وصفات .

كأن ذلك يتناول كل شأن من شئون الحياة ، وأظهر هذه الشئون الأدب ، فهو مرآة تعكس عليه كل جوانب الحياة ، وقد ظهر في هذه الحقبة شعراء في دنيا العرب استجابة للمطالب العصر وتفاعلوا معه واستلهموا ، فصوروا ما كانت الحياة فيه وما كان يجب أن تكون الحياة عليه ، وأظهر هؤلاء الشعراء حافظ وشوقى على صفاف النيل ، والرصاف والزهاوى على صفاف دجلة والفرات ، وكأن حافظ وشوقى يغتبان في الكتابة ، كما كأن الرصاف والزهاوى يصدحان في دار السلام ، وكانت النقوس والعقول في دنيا العرب بين هذا الغناء وذلك الصدق تصه ورويداً رويداً ، وتنقض عنها غبار القرن التاسع عشر ، وتتخلص من التحول والتواكل والاستسلام ، تتطلع إلى حياة كريمة تليق بها حين تلانت إلى ما كان لها من مكان في التاريخ يوم أمدت العالم بالفكرة والحضارة .

وكان حافظ مجدداً في أكثر ماتناول من موضوعات ومنها موضوع المرأة ، فقد مر على المرأة عهد طويل قبل حافظ لم تكن فيه شيئاً ، وقد

حجبت عن نور العلم والمعرفة وأهملها الناس، فإذا ما تلطقوها بها أو توعدوا  
إليها فلأنهم يتحمدون عن خصرها وقدها، وعن عينها وخدتها، فهنيء عندهم  
متعة وسلوة، وأليسوا عضواً مهماً في هذا المجتمع، وعلى هذا درج الشعراء  
يتحمدون عن المرأة بهذا اللون من الحديث، وينظرون إليها بهذه النظرة  
ناسين شأنها الكبير في الحياة الاجتماعية، وخطرها في إعداد الرجال وخلق  
الأمم وبعثها وإحيائها، بل تركوها تتغثر بأذياها بين الجحور والخدور، فإذا  
ما اخرجت لشأن من شأنها جلوا قد़ها المشوق بالعبارات، ولفوا وجهها  
الراهى بالبراقع والخمر السود ثم ردوا :

قل للملحمة في الحمار الأسود      ماذا فعلت بناسك متبعيد

ولكن شاعرنا لم ينظر إلى المرأة هذه النظرة، فنظرته إلى المرأة جديدة  
وشعره فيها جديد فإذا ما تعرض لها في شعره قال :

من لي بتربيّة النساء فلأنها      في الشرق علة ذلك الإختناق  
الأم مدرسة إذا أعددتها      أعددت شعباً طيب الأعراق

على أنه يتحفظ ولا يريد أن يندفع في تحرير المرأة والدعوة إلى سفورها  
دون قيد، وإنما يدعوا إلى التوسط والاعتدال في ذلك من اعيا مالقومه العرب  
من التقاليد، وما لدينه القوم من أحكام :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافرا      بين الرجال يجان في الأسواق

كلا ولا أدعوكُ أن تسرفوا في المحب والتضيق والإرهاق  
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا فالشر في التقييد والإطلاق  
ويحاول أن يرسم صورة واضحة لما يريد أن تكون عليه المرأة العربية  
في تحررها وتعلمتها وأداء رسالتها الطبيعية فيقول :

بِلَّا تَرَاهَا فِي الظَّرْوِ سَتَخْطُطُ آيَاتَ الْمَبْرُورِ  
وَتَرِيكَ حَكْمَةَ نَارِيٍّ عَرَكَ الْحَوَادِثَ وَاخْتَبِرِ  
إِذَا بَهَا فِي مَطْبِخٍ تَطْهُو الْطَّعَامَ عَلَى قَدَرِ  
وَإِذَا بَهَا قَعَدَتْ تَجْبَطَ وَتَرْتَضِي وَنَحْزَ الْأَبْرُورِ  
بِالْعِلْمِ حَلَّتْ صَدْرَهَا لَا بِاللَّائِي وَالدَّرَرِ

إذن فقد كان حافظ يتحدث بهذا عن المرأة حين يريد أن يتحدث عنها  
يتحدث بحديث المصلح المربي لا حديث الصب المدلل، فهل يعني هذا أن  
حياته خلت من الهوى؟ وأن نفسه خلت من الغرام؟

يبدولي أن حافظاً لم يستطع أن يخلص من الهوى، فهو ذلك غرام ملك  
عليه نفسه، وأوقعه في هم دائم، وسيطر على مشاعره وإحساسه، فنذر  
حياته للغباء بمن أحب، فمن هي الحبيبة ياترى؟

تلكم هي أم الصناديد كثيرة العشاق التي كلبد هواها ، وعاني صباتها  
فاستأثرت بمحبها ، فتغنى بها ، وناغها بشعره :

كم ذا يكابد عاشق ويلاتي في حب مصر كثيرة العشاق  
لأنى لأحمل في هواك صباة يا مصر قد خرجمت عن الأطواق

وهي التي أرقها فتشكى إليها وتظلم ، وكانت أمله ورجاءه :

لعمرك ما أرقتك لغير مصر وماي دونها أمل يرام  
ذكرت جلاها أيام كنت تصول بها الفراعنة العظام  
وأيام الرجال بها رجال وأيام الزمان لها غلام

هذا كان همه وهذا كان غرامه ، فاضت نفسه بحب مصر ، ففاض ديوانه  
بقصائد الــ سياسية والــ وطنية والــ الاجتماعية ، وكل ذلك تعبير عن هذا الحب  
وتوصيير لهذا الهوى ، وقد جدد في هذا اللون ماشاء أن يجدد ، وجاء بالمعجز  
فيه ، فأين هواليوم حافظ ليلى ثمرة هواه وقد عاد لمصر جلاها ورجالها ،  
وقد عاد الزمان لها غلاما .

رحم الله حافظا وطيب ذكره ، وجعله في الخالدين ، فقد خلد وطنه وقومه .

# کامہ لیبیا



سیدی، سیدانی، سادتی:

إنني لأحس بالسعادة تفهمني وتغرقني كياني عندما أقف اليوم في هذه المناسبة بالليلة فأرفع صوتي باسم ليبيا ومن في ليبيا من إخوة لكم أشقاء لأحييكم تحية إكبار وتقدير، وأحيي بكل إعجاب هذه الجهود العظيمة التي تبذلونها في سبيل تغليب أدباء العربية وعلمائها وتبني آثارهم الجليلة الباقية على الزمن .

ويُمْنَى أعمق السرور أن أحى في خشوع وإجلال باسم الشهادة  
والأدباء في إيمانها صاحب هذه المذكرة الخالدة أدمي غنى بأفراح الشرق في

بِهِجَةٍ وَلَسْوَةٍ وَحْبُورٌ، وَعِرْبٌ عَنْ آمَالِهِ أَصْدِقُ تَبَيْرَفِ ثَقَةً وَتَفَاعُلَ وَإِيَّانَ  
وَصُورَ مَآسِيهِ وَأَحْزَانَهُ أَرْوَعُ تَصْوِيرَفِ أَلمٍ وَهَرَارَةٍ وَتَأْثِيرٍ :

هَنْفَ الْرَّوَاةُ الْحَاكُمُونَ بِشَعْرِهِ      وَهَلْدَاهُ بِهِ الْبَادُونَ فِي الْبَيْدَاءِ

عَرَبُ الْوَفَاءِ وَفَوَادِهِ شَاعِرٌ      بَانِي الصَّفَوْفِ مَوْلَفُ الْأَبْرَازِ

وَلَعِلَّ مِنْ أَسْبَدِ الْمُلْحَظَاتِ الَّتِي مَرَتْ بِشَرِيطِ حِيَاةِ هَذِهِ الْمُلْحَظَةِ الَّتِي أَقْفَ  
فِيهَا الْآنَ بَيْنَ إِخْرَوَةِ أَشْقَاءِ مُمْثَلًا لِلْيَمِيمِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْمَهْرَاجَانِ الْأَدْبِيِّ التَّارِيْخِيِّ  
الَّذِي اَنْتَظَمُ نَجْبَةً مِنْ أَدْبَاءِ الْعَرَبِ وَمُفْكِرِهِمْ تَوَانَدُوا إِلَى هَذَا الصَّعِيدِ  
الْطَّيِّبِ مُسَاهِمَةً فِي الاحْتِفالِ بِالْعَيْدِ الْفَضْيِّ لِشَاعِرِ النَّيْلِ وَبِلَبِيلِ الشَّرْقِ  
الْغَرِيدِ الْمَرْحُومِ حَافِظِ إِبْرَاهِيمَ، ذَلِكَ الْعَلَمُ الَّذِي هُوَ قَبْلُ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا  
فَتَرَكَ فِي دُنْيَا الْأَدْبِ وَالشِّعْرِ فَرَاغًا ظَلَّ رَدْحًا مِنَ الزَّمْنِ دُونَ أَنْ تَنْجِبَ الْعَرَبِيَّةُ  
أَحَدًا يَسْلُدُهُ وَيَكُونُ فِيهِضَهُ الشِّعْرِيِّ امْتِداً دَلِيلَ الْأَلوَنِ مِنَ الْقَرِيبِ الْحَافِظِيِّ  
الْدَّاعِيِّ إِلَى وَثِيَّةِ الْعَرَبِ، الْمُهَبِّ بِصَدْقِ وَحِرَارَةِ عَنْ آلَامِ وَآمَالِ مَصْرُ الْعَرَبِيَّةِ  
وَأَشْقَائِهَا شَعُوبُ الشَّرْقِ الْأَمْرِيِّيِّ الْمُجِيدِ، حَتَّى نَبْغَ أَخِيرًا فِي غَيْرِ قَطْرِ وَاحِدٍ  
مِنْ أَقْطَارِ الْعَرْوَةِ كَثِيرٌ مِنَ الشَّعْرَاءِ الَّذِينَ نَسِيَّوْا مِنْ مَشَاعِرِهِمُ الْقَوْمِيَّةَ  
وَأَحَاسِيسِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةَ رَوَاعَنِ الْفَصِيدِ، وَوَهَبُوا ثَمَارَ قِرَائِبِهِمُ الْمُخَصَّبَةَ،  
وَتَنَاجَ مُلْكَاتِهِمُ الْمُبَدِّعَةَ بِتَصْوِيرِ وَاقِعِهِمُ الْعَرَبِيِّ فِي إِطَارَاتِ رَائِعَةٍ تَتَسَمَّ  
بِطَابِعِ التَّطَوُّرِ وَالتَّحْرِرِ وَالتَّجَدِيدِ .

ولعلنا لا نخطئ الحقيقة إذا قلنا إن حافظاً كان من شعراء العرب المعاصرين  
الذى انطلقت قيادرة شعرهم تصلح بأنفام القومية العربية، وترجمت عما  
يضره ضرب في نفوس العرب من عذاب الأمانى والأمال، وما يحيى جب سماء  
حاضرهم في آفاق حياتهم من ظلمات وألام مرددها الغزاة المحتلون، ولعل  
تغفل هذه الترعة وشدة وطأتها هي التي جعلته على أن يكتب على المرحوم  
أمير الشعرا تجاهله في أجواء غير عربية، ويناشده أن يسخر أجراس نجمه  
لإيقاظ النائمين من أبناء الشرق، ودعوة شعوبه إلى الوئب السريع  
والانتفاضة العاجلة، وبناء النهضة المرجوة :

أمير القوافي قد أتيت مباغعا  
وهذى وفود الشرق قد بايعت معى  
  
فن ربع النيل واعطف بنظرة      على ساكني النهرين واصبح وأبدع  
ولا تنس بمحدا، إنها منبت الموى      ومرعى المها: من سارحات ورائع  
وحي ذرا لبيان، واجعل لتونس      نصبيا من السلوى وقسم وزع  
فقل في سبيل النيل والشرق أودع  
إن كنت قوالا كريما مقاله

ثم المستمع إليه يدعوك شعوب الشرق إلى التنبه إلى دسائس الغرب  
ومؤامراته، وينادي بتوكيد الإخاء، وتوطيد المحبة بين أقطار أمة الصاد،

حتى تصنع من وحدتها وتشعافر جهودها قوة مرهوبة به غلابة ، وتعيد عظامها  
التاريخية على مسرح الوحد في أروع صورة ، وأشرق مظهر :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده عن مطعم الغرب فيه غير وسنان  
تجري المودة في أعراقه طلقا بكرية الماء في أناء أفنان

إننا لننسى في شعر حافظ كلما استعرضنا باقة منه أمثال هذه الدعارات  
التروية الصادقة ، والنداءات الحازمة المشبوهة إلى وجوب تكمل الأمة  
العربية ، وتحصي قلوب أبنائنا ، وتسابق شعوبها في مضمار البناء ، واهتدائها  
بأضواء الماضي في صراعها الجبار من أجل الحياة ومحاربة الاستعمار ،  
ولا نكاد نقلب صفحه من ديوان حافظ إلا أطلت علينا من خلاص الشعر  
روح الوطنية العربية مستشرفة متطلعة ، وتبجلت لنا فيه نزهة الشاعر إلى  
تقديس العروبة ، والنفر يد بأذاشيدها في حماسة وحرارة ، واتسامي عن حدود  
الإقليمية الضيقة إلى التحليق في آفاق الشرق الرحيبة . فبينما هو يشدو بعرايس  
النبل ، إذا به يرتاد نازل الغوطة ، ويتفاظل الأرز ، وفيما : ويناجي  
صفاف الأردن ، إذا به يرتفع رضاب الرافين ، ويتنسم شيم العرار  
في نجد ، ثم يخطو في جلاله وقاره متهديا بين معانى صنائع .

هذه المعانى الحبة المتصلة بواقع المربي ، وهذه الأحاسيس العميقية  
التي يجدها شعر حافظ وتضطرب بها جانحة هي التي أضفت

دلی قصیده طابع القومية العربية ، فامتاز بسمو الفرض ، وبنبلة الهدف  
وعمق التأثير .

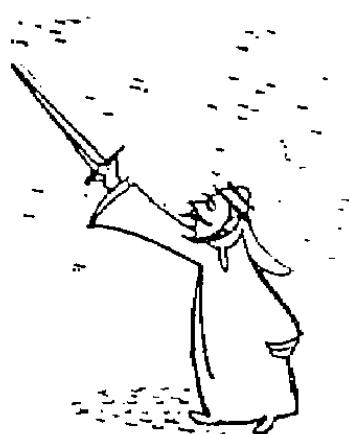
ونحن أحوج ما نكون اليوم إن هذا الصنف من الشعراء الذين يعيشون  
قواهم الذهنية نالمة الوطن العربي الكبير ، ويسيخرون إنتاجهم الشعري  
لإشمال الحماسة النومية في نفوس الشباب العربي ، دفعه بقوه في طريق  
التحرر ولانطلاق نحو الغد المشرق التي تهوى آفاقه شمس القومية  
العربية ، ما أحوجنا إلى أمثل هؤلاء الشعراء الذين يصوروون لأبناء  
الشرق اليوم روائع أمجادهم بالأمس ، والرسالة الإنسانية الكبرى التي يجب  
أن يحملوا مشعلها بإراده قوية وإيمان عميق ، ليبدعوا مستقبلهم العظيم ،  
ويقربوا إشراق اليوم الموعود .

إننا نريد شعراء لحافظ يمدون زار الثورة المقدسة في الجزائر بالوقود  
المتلهب ، وينفحون أبواق النفير بين هذه العشرات من الملايين لخوض  
المعركة الكبرى الفاصلة . معركة التحرير ، تحرير الوطن المقدس من براثن  
الأفقين من زماميات الشعوب وحثّلات الأمم ، نريد من شعرائنا أن  
يُوجزوا في صدور هذا المليون مشرد من أبناء الشعب الفلسطيني الطريد  
روح التضحية والفتداء ، ويعثروا فيهم شعلة الأمل قوية غامرة ويسعنوا  
كل عربي بل كل إنسان حر آهات الوطن المغتصب ، واستنجاد الشرف

المسلوب، واستصرخ الكرامة الضائعة، وأذين الشهداء وبكاء الآباء، ونحيب الأرامل والنكالى، حتى يعيش كل عربى واقعه بقلبه وروحه، وكل جوارحه وأحساسه، بل ياليت حافظاً امتد به حبل العمر إلى هذا اليوم ليرى الانتصارات الباهرة التي أحرزتها القومية العربية، فيسجلها في شعره، وليسدو بها في قصيده، ويتجددها في فم الدنيا وعلى مسمع الزدن، وتردد ألحانها الشيجية قيثارته الساحرة.

ومن أجل هذا فإننا نكبر حافظاً ونجد عيده الفضى، ونحيي روحه الطيبة في عليائها بين مواكب الخالدين من أبناء الشرق العربي.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



# كتبة المفتون

سيدي الرئيس ، سادتي الأفاضل :

إنه لشرف عظيم أن أقف الآن بينكم في هذا المهرجان العظيم الذي  
أقامه ودعا إليه المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ، كذكرى للشاعر  
الخلالد الذكر حافظ إبراهيم ، أقف بينكم لأحييكم باسم حكومة عربية  
وشعب عربي ، وملك عربي عظيم .

وإنها لفرصة طيبة يتاحها لنا المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بهذا البلد الشقيق لتتعرف إلى إخواننا العرب من مختلف الجهات ، ولنبرهن من يود أن يسمع على أن الأخوة العربية حقيقة موجودة ، وأن الوشائج التي تجمع بيننا ، والتي صهرتها المحن وطهرتها الشدائد وأحکمت رابطتها مقاومة الاستعمار لا تزيد إلا صلابة ومتانة وقوه .

إن الشعب المغربي الذي قاسى من مرارة الاتّهار أهواه ، والذى حورب في عروبتة بأشد الوسائل وأنكاكها ، والذى عرف كيْف يحافظ على هذه العروبة ، ويتقى في الذود عنها ، ليغتنم هذه الفرصة ليؤكّد لكم أنه سيف دائماً وإلى الأبد ، معتمداً بعروبتة ، ضيقاً بها ، مناضلاً عنها ، حارساً لها في ذلك الجناح الأيسر من بلادكم العربية .

وإن هذه الذكرى التي تقام اليوم لشاعر عربي خالد ، والتي يشارك فيها ممثلون عن مختلف البلاد العربية لتهنئي من جديد وبكل تأكيد على أن الشعوب العربية باضية في وحدتها ، سائرة في طريق عزتها ، معتزة بماضيها ، عاملة على بناء مستقبلها .

ولقد أحسن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب صنعاً إذ قرر مشاركة البلدان العربية في هذه الذكرى التي تقام لشاعر الخالد حافظ ، ذلك لأن حافظاً لم يكن شاعراً للليل خاصة ، وإنما كان يتأثر إلى حد بعيد بالحالة التي كان عليها الشرق العربي على العموم ، وإنني لا أكتتمكم من الحقيقة شيئاً إذا أنا ذكرت لكم بهذه المناسبة أن شعر حافظ كان له تأثير وأى تأثير في إيقاظ هذا الوعي العربي بمغربكم العربي . هذا الوعي الذي بدأ شيئاً فليلاً ، ثم لم يثبت أن صار قوة جارفة تحطم ما وضع أمامه من الأشواك والعراقيل والعقبات . وإن أنس فلا أنهى تلك الأيام التي قضيناها ونحن

لأنزال في ميحة الشباب ، وفي بداية هضمنا نجتمع جمادات جمادات لتدارس  
في جملة ماتدارسه أشعار حافظ التي تصور - أصدق تصوير - الحالة التي كانت  
عليها الحياة الشهبية في مصر والبلاد العربية ، والتي كانت يتحرك بها خاطره  
وتتألم لها نفسه ، فينبئ بها لسانه شعرا رصينا مؤثرا ، ونجده فيه تصويرا  
لما نعيشه بن هناك ، ونتألم له ، فإذا قال في قصيدة المشهورة :

أنا لا ألوم المستشار إذا تعلم أو أصلدى

فسبيله أن يستبد ، وشأننا أن نستعد

هي سنة المحتل في كل العصور وما تبعى

تنفع بهذه القطعة ، ونطبقها على الحالة التي كانت عندنا .

وإذا قال في الحث على معاهدة اتفاقية الاجتماعية :

وبينوا لرجال الغرب أنكم إذا طلبتم بلغتم غاية الطلب  
لا تلدوا في العلا إلا إلى همهم وثابة لا تبالي همة النوب  
فإن تأملاكم في غيركم وهن في النفس يرخي عنان السعي والدأب

نتصور أنه يخاطبنا ، فنعمل على أن تكون عند حسن ظنه .

إلى غير ذلك من أشعاره التي تفيض شعورا وإحساسا وقوة .

## سادتي :

لم يكن قصدي أبداً أن أتعرض لأشعار حافظ بالتحليل أو الدراسة وإنما كان قصدي أن ألفت نظركم إلى أن حافظاً لم يكن في أشعاره معبراً عن الحقيقة الشعبية التي تحيشها مصر وحدها، وإنما يتعدى ذلك إلى ماوراء ذلك إلى المحيط الأطلسي ، فاسمحوا لي إن أنا أخصت عليكم حصة ثمينة من أوقاتكم ، ولتنقروا أن المغرب يرنو إلى مصر ، وينظر إليها نظرة كلها تقدير وإعجاب .

ولا يفوتنـي وأنا واقف في هذه المنصة أن أحـي بـكـامل التـقدـير والـإعـجاب هذه النـهـضة المـبارـكةـ الـتـيـ تـمـيرـ فـيـهاـ مـصـرـ الـعـربـيـةـ تـحـتـ قـيـادـةـ بـطـلـ شـعـبـيـ عـظـيمـ مـخـنـكـ هوـ الرـئـيـسـ الـمـحـبـوبـ جـمالـ عـبـدـ النـاصـرـ ، وـإـنـيـ أـرـفـعـ لـهـ بـهـذـهـ الـمـنـاسـبـةـ تـهـنـيـاتـ وـتـحـيـاتـ مـلـكـ شـعـبـيـ عـربـيـ عـظـيمـ هوـ مـهـدـ الـخـامـسـ حـفـظـهـ اللهـ .

أعـانـكـ اللـهـ ، وـوـفـقـنـاـ جـمـيعـاـ خـدـمـةـ الـهـرـوـبةـ وـالـإـسـلـامـ وـالـسـلـامـ .



# كلمة الجامعة العربية للدكتور رئيس - ابوالابن



سيادة الوزير ، أئمها السيدات والسادة :

باسم جامعة الدول العربية ، وباسم السيد الأمين العام ، أتقدم بالشكر والتقدير لسعادة رئيس وأعضاء مجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب على إقامة هذه الحفلة التذكارية لشاعر النيل حافظ إبراهيم ، ولاختيارهم مدينة الإسكندرية مكاناً لهذا الاجتماع .

فن أحق من حافظ إبراهيم بتقدير العرب والعرب ، وهو الذي كان منذ نصف جيل ، أى يوم كان العرب شعوباً مترفة يسبّ بها فاتح مقتضب دخيل ، لا تربط بينهما رابطة ، سوى رابطة اللغة والتاريخ ولا تجمعها جامعة إلا جامعة الآلام والأمال ، فإذا به يقف على ضفاف النيل ، ويرسل

صيحة مدوية ، تردد أصداؤها جميع أقطار العرب ، وفيها يقول :  
هذى يدى عن بنى مصر تصاحكم فصالفوها تصافع نفسها العرب  
ومن أحق من مدينة الاسكندرية بهذا الكريم ، وهى المدينة الخالدة ،  
اللى أضاءت سارتها العجيبة قديما شواطئ البحر الأبيض المتوسط ثلاثة  
قرون ، كأنارت مدرستها الجامعة منذ عشرين قرنا سبيل العلم والمعرفة  
في الفلسفة والأدب ، والطب ولرياضة ، وأخرجت قادة النصر وحملة  
مشعل العلم والمعرفة في جميع أنحاء العالم المعروف ، فكان أكبر أقبى بها يبهى به  
العلم ويعتز هو قوله : أنا ابن مدرسة الاسكندرية .

والشعراء يا سادة هم أندر هبات الله ، فإذا ما قلبنا صفحات التاريخ  
القديم . الحديث ، تجد أسماء الآلوف من الملوك والأمراء والساسة  
والقادة والحكام ، ولكنك لن تجد فيها سوى عدد قليل من الشعراء الخالدين ،  
الذين أحاطتهم الله بشماع الحكمة ، وحباهم رقة الشعور ، واندلاع العاطفة ،  
وانطلاق الخيال ، فاستطاعوا أن يصوروا خفقات القلب واحتلالات  
النفس ، وأن يوقنوا وحي الطبيعة على أنغام الألفاظ والأوزان .

وهل "شعر سوى دمعة الحزين ، وزفرة الحب ، وأمل البائس ،  
ورجاء اليائس ؟ .

وهل "شعر سوى السجر الذى يمس الغلوب ، ويثير العواطف ،  
ويلهب المشاعر ، ويدفع لأمم الشعوب فى طريق الثورة والجهاد ،

فتتحول ألفاظه إلى سيف مسلولة ، ورماح مسددة ، وتتصبح أوزانه قوة ،  
وشجاعة وعزما ومضاء ، فتند :

ولد الشعر عند ما ولد السحر      شقيقين ليس يفترقان  
فهي بنا اليوم ونحن نتحمّل بهذه الذكرى الغانية ، والعواصف السياسية  
تهدد في كل ناحية ، والعدو الغادر جائم في أقدس بقعة من ديارنا ،  
حرى بنا اليوم أن نحدق بأبصارنا ، وأن نصغي بقلوبنا فبرى حافظ ابراهيم  
بقامته المديدة ، وعيشه البراقة ، ونسمع صوته الجھوري العميق يدوی في أرجاء  
هذه القارة فاما لا :

فروحي في هذا المقام مُطلة      تشاهـكم عنـي وإنـ كنتـ بالـها  
فلا تحـزنـوها بالـخلافـ فإـنـي      أخـفـ علىـكمـ فيـ الـخـالـافـ الدـواـهـيـاـ  
وـهـلـ لـنـاـ إـلـاـ أـنـ نـرـفعـ أـيـدـيـنـاـ لـلـعـلـاـ مـقـسـمـيـنـ ، وـأـنـ نـجـيـهـ مـؤـمنـيـنـ  
خـاصـيـنـ صـادـقـيـنـ :

إنـاـ — عـلـىـ الـعـهـدـ ماـ دـمـنـاـ ، فـتـمـ أـنـتـ هـانـيـاـ .

نـمـ هـانـيـاـ : إنـاـ أـصـبـحـنـاـ الـيـوـمـ أـمـةـ تـكـفـعـ ، لـاقـ سـبـيلـ الـحـيـاـةـ ، بـلـ فـيـ  
سـبـيلـ كـرـامـةـ الـحـيـاـةـ ، وـسـتـغـلـبـ عـلـىـ جـمـيعـ الـمـصـاعـبـ ، وـسـنـذـالـ جـمـيعـ الـعـقـبـاتـ  
نـمـ هـانـيـاـ : فـقـدـ ظـرـعـتـ عـلـىـ رـأـسـ ثـورـةـ ، صـرـ الرـجـلـ الـذـيـ تـبـأـتـ بـهـ يـوـمـ قـلـتـ :  
قـائـدـ يـكـفـيـكـ مـنـهـ أـنـهـ أـئـمـضـ الـشـرـقـ فـوـزـ الـمـغـرـبـ

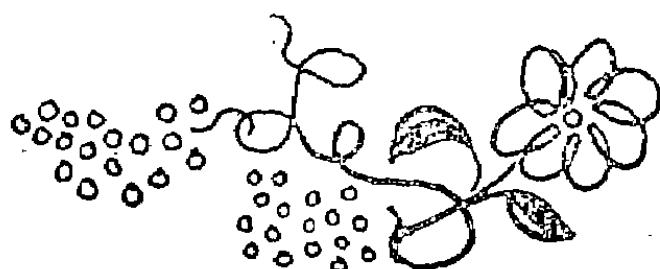
نم هانياً : وليق تهالك الصامت ، المتكلم ، صوت مصر ، وصوت  
العرب ، وليبقى هذا الحجر حياً يردد أنا شيد الألفة والاتحاد والإخاء .

فرب حي غداً في قرمده حجراً      ورب ميت غداً حياً به الحجر

نم هانياً : ولك من وطنك العربي الكبير الخلود والبقاء .

ولك منا الحب والتقدير ، وعرفان الجميل .

ولك من الله الرحمة والرضوان ، وحسن الجزاء .



# كاظم المؤتمر الإسلامي للدكتور محمد علام



سيدى رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ،  
سادى المحفلين بذكرى الشاعر العظيم ، حافظ ابراهيم ،  
أبلغت قبيل بدء هذا الحفل بأننى سأقول كلمة المؤتمر الإسلامي ، وهو  
شرف ينالى ، وعبء يقع على كاهلى .

فيما من المؤتمر الإسلامي أتقدم بالشكر للجنس الأعلى لرعاية الفنون  
والآداب على الدعوة الكريمة التي وجهها بالإشارة ، وكأنما جاءت هذه الدعوة  
من وحي شعر حافظ الإسلامي ، وهو شهر يستهدف الأغراض التي يسعى  
المؤتمر الإسلامي لتحقيقها ، من رفع شأن المسلمين ، وبث روح القوة والعزة  
والكرامة في نفوسهم .

ولقد تعودنا أن نسمى حافظاً "شاعر الذيل" ، و "شاعر مصر" و "شاعر العربة" و نسيينا أن نسميه كذلك "شاعر الإسلام" . وحسبه في هذا الصدد أنه أسبق من قالوا الشعر في تحية العام الهجري ، وهي سنة استثناء حافظ منذ نصف قرن ، وانتهت مهاجتها من بعده الشعراًء والكتاب .

تفى أول قصيدة حيا فيها حافظ الالم الامامي في أول المحرم سنة ١٣٢٧

: قال

أطل على الأكوان ، والخلق تنظر  
هلال رأه المسلمون فكبروا :  
تجلى لهم في صورة زاد حسنه  
على الدهر حسناً أنها تكرر  
وبشرهم من وجوهه وجبينه  
وذكرهم يوماً أغرس محلاً  
وآخر فيه خير داع إلى المهدى  
علي الدهر حسناً أنها تكرر  
وغيره والظاهرين وببشر  
به توج التاريخ ، والسعد مسفل  
يُخفى به عن قوة الله عز وجل .

وند ظهرت داعفته الإسلامية في هذه النصيحة ، في حديثه عن الأمم  
الإسلامية عربية كانت أو غير عربية :

سلوا الترك عما أدركتوا فيه من من سلام عليكم أمة الفرس إلكم  
وفي دولة الأفغان كانت شهوره  
أقام بها ، والمودريان أخضر  
وعوذها بالله من شر طاعم

وَنِيه نَمَتْ فِي الْهَنْد لِلْعِلْم نَهْضَة أَرَى تَحْتَهَا سَرَا خَفِيَا سِيَظْهُر ، فَتَجَرَّى إِلَى الْعَلْيَاء وَالْمَجْد شَوْطَهَا وَيَخْصُبُ فِيهَا كُل جَدْب وَيَنْضُر . وَفِيهِ بَدَتْ فِي أَفْقِ جَاوَة لَمَعَة أَضَاءَتْ لِأَهْلِهَا السَّبِيل فَكَرَوا

\* \* \*

ثُمَّ يَتَجَهُ إِلَى بَلَاد إِسْلَامِيَّة أُخْرَى لَمْ يَكُنْ مِنْ حَذَّرَهَا ، فِي ذَلِكَ الْعَام ، أَنْ تَخْطُو نَحْوَ الْحُرْيَة بِمَا يَتَنَاهُ لَهَا حَانِط ، فَيَعْبُرُ عَنْ أَمَانِيْهِ لَهَا بِقُولِه :  
 فِي الْيَتَه أَوْلَى الْجَزَائِر مَنَّة نَفَكْ لَهَا تَلْكَ الْقِيَود وَأَكْسَرَ وَفِي تُونِس الْخَضْرَاء يَا لَيْتَه بْنِ لَهْ أَثْرَا فِي لَوْحَة الْمَدْهُور يَذْكُرَ ثُمَّ يَنْقُلُ إِلَى مَصْرُ الَّتِي كَانَ يَغْلِي بِالنُّورَة مَرْجَاهَا ، تَصَارُع بَاطِشُ الْاسْتَهْار ، تَفْجِيْهَهُ ، وَلَكِنَّهَا لَمْ يَسْتَدِعْ دَمْرِيْعَهُ ، وَتَهَشِّدُ فِي آئُودَهُ وَعَزِيزَهُ لِيَوْم يَرْجُوهُ لَهَا الشَّاعِر :

وَفِيهِ سَرَتْ فِي مَصْر روحُ جَدِيدَه  
 مَبَارَكَهُ مِنْ غَيْرِهِ تَسْعُرُ  
 خَبَتْ زَمَنًا حَتَّى تَوَهَّمَتْ أَنَّهَا  
 تَصْدِي فَلَوْرَاهَا ، وَهَيَاهَا سَبِيلًا إِلَى إِنْهَادِهَا وَهِيَ تَرْفَرُ  
 وَبِسْتَحْثَ حَافِظ ، فِي آخِر قَصْيَدَهِ مَصْر ، وَالْعَرب ، وَالْمُسْلِمِين جَمِيعًا  
 حِينَ يَقُول :

إِذَا اللَّه أَحِيَا أَمَّةً إِنْ يَرْدَهَا  
 إِلَى الْمَوْت قَهَّار ، وَلَا مُتَجِبرٌ

رجال الغد المأمول ، إنا بحاجة إلى قادة بني وشعب يعمر  
رجال الغد المأمول ، إنا بحاجة إلى عالم يدعو ، وداع يذكّر  
رجال الغد المأمول ، إنا بحاجة إلى حكمة تملّى ، وكف تحرر  
رجال الغد المأمول ، إنا بحاجة إليكم ، فسدوا النقص فينا وشمووا

\* \* \*

فلتهنأ روح حافظ ، فشعره لم يضع سيدى ، ودعوته لم تكن صرخة  
في واد ، لقد هيأ الله لمصر ، وللعروبة ، وللإسلام ، رجال الغد الذين كان  
يناديهما ، والذين أصبحوا اليوم رجال الساعة ، فحققا كثيرا مما تمنى ،  
 وسيحققو ، بإذن الله تعالى ، أكثر مما تمنى :

لقد قاموا فسدوا النقص فينا وشمووا

سيدى رئيس المجلس الأعلى ، سادتى ،

أكرر شكري باسم المؤتمر الإسلامي ، والسلام عليكم ورحمة الله ”



# شِعْرُ الْمَكْتَبَةِ

---



# كتاب الشفر

ارفـوا ذـرـه عـلـيـا مـبـيـنـا إـنـما الـذـكـر رـفـعـة الـذـاكـرـيـنـا  
حافظـ فـي ثـرـاه لـم يـفـقـدـنـا وـاـنـقـدـاه نـهـنـ حـيـنـا خـيـنـا  
مـنـ مضـىـ فـيـ غـيـ عنـ الـحـىـ وـالـحـىـ عنـ الـذـاهـيـنـ لـا يـغـيـنـنـا  
وـإـذـا الـحـمـدـ فـاتـ زـانـغـ قـومـ فـهـوـ مـوـتـ الـبـافـيـنـ لـا الـذـاهـيـنـا

10

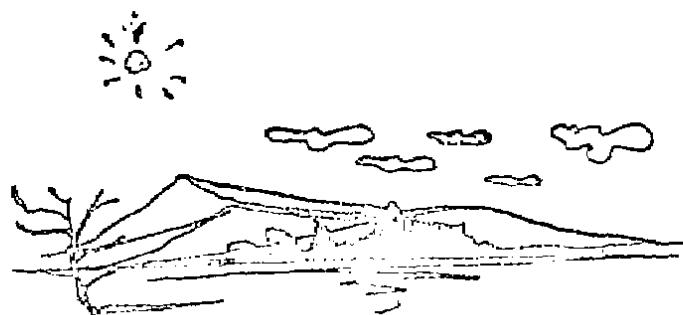
يا حميد انتقال مدحنا وقدحا  
ونقى الصحاف بيضا وجونا  
للم تكن قط بالحقوق ضئينا  
خذون الحمد بعض حتك ما  
طالما ردت جوانب مصر  
هاتف بالرجاء يوما ، ويوما  
تعجب القوم أريجها طربا  
ما توأنت عن مقام وفاء  
وإذا ما اعتراك بالوهن خطب  
صيحة منك تملا العالمين  
هافنا بالعزاء تأسـ و العيونا  
وتواـ سـ يـ هـ و شـ بـ يـا حـ زـ يـا  
أـ وـ نـ اـ رـ يـتـ بـ الـ وـ فـاءـ سـ خـ وـ نـا  
لم تـ كـ نـ فـ يـهـ خـ انـ عـاـ أوـ مـ هـ يـاـ

وإذا قام للضيائِر سوق  
لم تكن من تجَارها النافقينا  
رب قوم تنقصوك مراء  
وبحوا وانشئت أنت غبينا  
خير أبطالنا الذين تخيرت من الأولين والتابعينا  
الإمام "ابن عبده" من بَنِي جيلك وابن الخطاب في الأقدمينا  
لاتدانيهما بدعواك لكن  
باعتراف القصور دنيا ودنيا  
أنت أتقى ممن يجاهز بالتصو  
ى ويأتي في السر إلا مجونا  
رب جمع تفهق الغُر فيه  
وتحدى بالظن منك اليقينا  
كلما قال قوله في رسول  
صحت : يارب اخز هذا اللعنة  
ليس هذا الجدال إلا فتونا  
رحم الله منك قلبا سليما  
وضميرا بِرَا وروحـا أمينا

\* \*  
\*

نم قريرا صناجة العرب الصيد وعد فيهم لساننا مبينا  
كلما جددوا لذكرك عهدا  
عاد عهد الفصحى جديدا مصونا  
حانظرا أنت كنت للضياد لما  
أين في المذكرين من ليس يروى  
لك قولـا جزلا ونسجا متيينا  
سامها الفقر عشر مفلسوـنا  
ودليلـا على غناها إذا ما

دين شعر له زين وثر يشبه الشعر في الدفاع زيننا  
لم تكن حصى من الحفل نظا لا ولا فته بوعد مدينا  
غير أن المزار سط بحائِي ود لو كان حاضر الصوت فيما  
ويعجب إذ يشهد الفن ذكر راك من الشعر وحده أن يدينا  
وجميل إن صح عذر لدينا أن تانا لديك معذرينا  
نخذ اليوم بعض حقولك جهدا أنت بالحمد ما ببرت قيينا  
وقليل وفاء قومك يوما لامسي دان بالوفاء سنينا



## ذکری حفاظت

للمؤتمر عبد الله الطيب ممثل السودان

بنات الشعر بالنفحات جودى  
أقول وحلقت في الجنو عنس  
يققع في الصاخ الرعد منها  
ويسمتن السحاب بجانبها  
وأوصلت المنافذ غير ومض  
متى بلغتني مصرا فلاني  
وأشكر للكتابة إذ أقامت  
وأصلاح بالنشيد على تراه  
وأمدحه وأمدح مادحه  
أحييه على بعد الليالي  
وأن النيل أصحاب مطمئن  
دفوق الموج جياش السجايا

على غير النواب ذا منيد  
تليداً خالداً أبد الأبد  
دم الإيمان في النيل السعيد  
ففاض العلم بالشکر العتيد

وتحمل مصر أن بها جحلاً  
 وأن الله أودعها جلالاً  
وأجري في الفيافي فاتحها  
وقدماً كان علمنا بنوها

\* \* \*

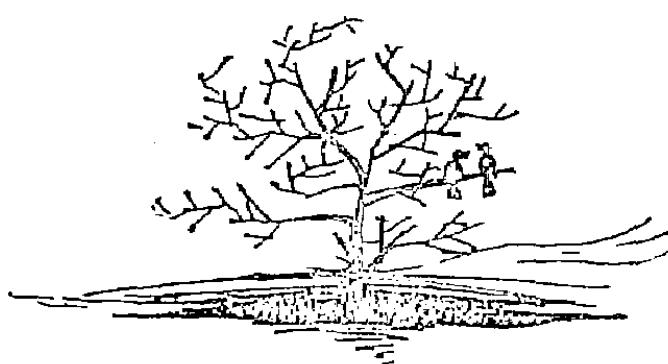
إليه النفس من عهيد بعيد  
بوارق ناره ذات الوقود  
لداي - نبتغى فك القيود  
كما أودي الإياد وأهل أود  
وفيتانا كأشبال الأسود  
جديداً بعد ما طول الحمود  
ضعيف الأسر خوار العمود  
قوافيه على النهج السيد  
بسمل الله من خلف الحمود  
معن بالمنبط والحسود  
على بعض الزعاف والقرود

طربت لحافظ دهراً وهشت  
وشع على قوادي وهو غر  
وثرت كشنل ثورته وثارتْ  
فهم يدرى بأن الشعر أودى  
ولو حياً لحياناً كل قرم  
وخلد ثورة كبرى وبعشاً  
وليس يخلد الأحداث نظم  
ولكن الرصين الجذل صيفتْ  
لنظمك يا بن ابراهيم فاسلم  
أجدك ما تراني إلف هم  
طويل الصبر مطوى الخفايا

وكل مقلد الأفزع ساع إلى كفر العروبة والحدود  
صبرنا إذ يكيد لنا حيناً كيد اليهود

\* \* \*

بِنِ وَطْنِي وَمَا وَطْنِي سَوَاكُمْ بَنِ الْيَلَى وَاهْرَمُ الْمَشِيدِ  
لَكُمْ بَيْضُ الْوِجُوهِ عَلَى الْلَّيَالِي وَمَنْ لَخَطَوْبَ وَجْهُوْ سُودِ  
إِذَا مَا أَحَبَ الْوَادِي عَلَيْكُمْ رَأَى مَنْ شَبَّاً رَكِنْ شَدِيدِ  
سَلَامُ اللَّهِ بِالْإِحْسَانِ مَصْرَا وَأَيَامُ كَيَامِ الرَّشِيدِ  
وَرَفَرَفَ رَحْمَةُ مِنْهُ وَأَمَنَ عَلَى اسْكَنْدَرِيَةِ فَالصَّعِيدِ



# مرجان حافظ

لـ سـاـدـ مـحـمـودـ عـمـارـ

---

أحافظ ، هذا هو المنبر وهذا هو الأثر  
 بحالك يا أخطب الشعرا  
 لهم . لبت حافظ فيما خطيب  
 ياذن . لجباه بفيض من الشعـ  
 لقد كان إن ذكر الذاهبـ  
 فيما أخرج اليوم هذا المقاـ  
 نيسـحـرـناـ شـعـرـهـ آـنـةـ  
 لقد قـسـرـ حـافـظـ فـ صـوـتـهـ  
 إـفـاـ ماـ سـعـنـاهـ مـنـ خـلـفـ بـتـرـ  
 يـشـهـماـ غـلـيـظـاـ إـذـ جـدـ قـوـلاـ  
 وـلـوـ آـنـهـ خـلـدـواـ صـوـتـهـ  
 وـمـاـ خـلـدـوهـ وـلـكـنـهـمـ

وهذا هو المـنـبـرـ وهذا هو الأـثـرـ  
 إـنـهـاـ هـلـاـ بـهـ تـخـضـرـ ؟ـ  
 لـحـافـظـ فـهـوـ بـهـ أـجـدرـ  
 وـرـيـضـيـهـ لـوـ شـعـرـنـاـ بـقـصـرـ  
 يـنـ يـهـنـهـمـ إـلـيـنـاـ بـاـ يـذـكـرـ  
 مـإـلـىـ حـافـظـ قـاـمـاـ يـهـدرـ  
 وـأـوـنـةـ صـوـتـهـ يـسـحـرـ  
 فـاـ شـئـتـ تـسـمـعـ أوـ تـبـصـرـ  
 رـأـيـاهـ مـاـ يـيـنـهـاـ يـنـهـطـرـ  
 وـنـضـرـاـ وـصـبـاـ مـنـ يـهـنـهـ  
 بـحـائـ لـأـسـدـواـ يـدـاـ شـكـرـ  
 أـضـاعـوـهـ .ـ فـالـذـبـ لـأـيـغـفـرـ

مُضى حافظ وهو دامى الفؤا  
دَيْنَ مِصْرَ وَيَسْعِيرُ  
وينسُك في أرضها فاصبا  
يَاصُّ الطَّعَامِ وَيَسْتَكِبُ !  
فمن مبلغ حافظاً أن مصرًا  
قد انحاب عنها الذي ينسُك ؟  
وأن الذئاب تولت عواءً  
وأن الأسود بها ترأوا  
وفي جوها طار نسر أصيل  
وقد كان من قبيل يستدير

\* \* \*

وفود العروبة طبتم مقاماً  
بكم مصر تزهو وتبشر  
حضرتم لحافظ أن تحضروا  
ونفر لحافظ أن تخضرها  
فما كان حافظ صاحب تاج  
وفود بلاد له تخسر  
ولكنه شاعر صار ذكراً  
جثتم كما لكي ذكرها  
 فمن بعد هذا يقول العرو  
بة تنشق في الرأي أو تشطر ؟  
نفرنا خفافاً لذكرى عزيز  
فهل نحن للجد لا ننفر ؟



# المحاضرات

---



# عصرها فاطمة للدكتور محمد صابر جري

حصاد :

حدثني المرحوم حفني ناصف أن الشعر في عصر محمد على كان من طراز :  
يا آل طه عليكم حلق حسبت إن الضعيف على الأجواد محول  
ولكني قرأت ما كتبه الشيخ حسن العطار ، شيخ الجامع الأزهر  
المتوفى سنة ١٨٣٤ في وصف الأذربيجانية ثرا وشيرا قال :  
وأما بركة الأذربيجانية : فهي مسكن الأمراء، وموطن الرؤساء .. ولطافا  
حضرت لى بالمسرة فيها أيام وليلى، هن في سبط الأيام من يليم اللالى .. ان  
وفيهما أقول :

بـالأذـربـيجـانـية طـابـت لـى مـسـراتـ ولـذـلـى مـن بـديـعـ الـأنـسـ أـوقـاتـ  
حيـثـ المـيـاهـ بـهـاـ وـالـفـلـكـ سـابـحةـ كـانـهـ الزـهـرـ تـحـوـيـهاـ السـمـوـاتـ  
وـقـدـ أـدـيرـ بـهـاـ دـورـ مـشـيـدةـ كـانـهـ لـبـدـورـ الـحـسـنـ هـالـاتـ  
وـغـرـدتـ فـيـ نـواـحـيـهاـ حـمـامـاتـ دـوـدـتـ عـلـيـهـاـ الرـوـابـتـ خـضـرـ سـنـدـسـهاـ

في الذر سجع ، وفي النثر والشعر بديع . كلًا مما من مظاهر التكلف والتعمل عند الشعوب البدائية أو المتأخرة المولعة بالزخارف والأزهار الصناعية وألوانها الملوحة .

\* \* \*

محمود صفوت الساعاتي (١٨٢٥ - ١٨٨٠) أول شاعر أو ناظم ترك ديواناً من الشعر ، وقد اشتهر في سنة ١٨٥٨ في عهد سعيد بقصيدة بديعية عن بشرحها المرحوم عبد الله باشا فكري ، والساعاتي يمثل نشوء الحركة الأدبية في طور التقليد والمحاكاة الساذجة التي لا تتحمل طابع الشخصية في صورة من صورها .

يأتي بعد ذلك عصر البارودي ، فينتظم عصر إسماعيل ، والثورة العرابية ، ويتند إلى أواخر القرن التاسع عشر . وقد بلغ فيه الشعر نضجه وطاب جنئ ، بعد أن كان كالبسرب إذا لون ، واستوت الحركة الأدبية على قواعدها فأصدر الشيخ حسين المرصفي - أستاذ البارودي - كتاب "الوسيلة الأدبية" في سنة ١٨٧٩ . ولأول مرة نشرت الوسيلة القصائد التي جاري بها البارودي القدماء أمثل : أبي نواس ، والشريف الرضي ، وأبي فراس ، والنابغة .

وقد أسس إبراهيم المويحي مع عارف باشا "جمعية المعارف" لنشر الكتب النافعة . وإبراهيم المويحي هو والد الكاتب محمد المويحي وأخو النائب عبد السلام المويحي الذي لقبته التيمص في سنة ١٨٧٩ بميرابو مصر .

روى جورج زيدان أن الجمعية كانت تطبع كتبها في المطبعة إلى أنساها الموياجي باسمه في سنة ١٨٦٨ وفي مطابع أخرى كالمطبعة الوهبية. وأن هذه الجمعية شأنها كبيراً في تاريخ النهضة، لأنها نشرت كثيراً من أمثلة الكتب: «كماج العروس»، وأسد الغابة، ورسائل بديع الزمان...، وغيرها من كتب التاريخ، والأدب، والفقه. وقد اشتراك إبراهيم الموياجي مع عثمان جلال - صاحب العيون الياواقظ - في إصدار جريدة نزهة الأفكار سنة ١٨٦٩، ويظهر أن إسماعيل تخوف منها فألغيت بعد صدور عددين . وأنشأ بالاشتراك مع ابنه محمد "مصباح الشرق" التي ظهرت حتى موته في سنة ١٩٠٦ - وكان عبد الله الحامولي مؤسس دولة الغناء والموسيقى في الشرق (١٨٤٥ - ١٩٠١) صديقاً لإبراهيم ، وهو الذي قال شوقي في رثائه :

يسمع الليل منه في الفجر «يا ليل» فيصغى مستميلاً في فراره  
كان إذن عصر البارودي عصر تأسيس في الكلمة والشعر والغناء  
والموسيقى ، وأن ظهرت ملامح العبقريّة في الأفراد في الفنون المختلفة ،  
فإن أولئك الأفراد كانوا قلة ، وكانوا غرباء في بيئتهم .

كان البارودي شاعراً سليقياً غذى بآداب العرب والفرس والترك ،  
ولم يكن مقلداً للآقدمين ولكن مجازياً. وقد طفر بالشعر طفرة واسعة من  
غير مقدمات ، وبرزت شخصيته منذ الحقبة الأولى ، حقبة المجازة إلى

قال يصف الحالم في القصيدة التي جاري بها أبا نواس :

نواعم لا يعرفن بؤس معيشة      ولا دائرات الدهر كيف تدور  
خوارج من أيلك دو اخل غيره      زاهن ظل سابق وظاهر  
إذا غازها الشمس رفت كانها      على صفحاتها سندس وجحيم

وكان البارودي أول من خلق الشعر السياسي في مصر، إذ جاء في ديوانه  
”وقال يذم الحكم ويحرض الناس على طلب العدل في الأحكام وذلك  
في عهد إسماعيل باشا خديوي مصر“ :

فبادروا الأمر قبل الفوت واتزعوا      شكل الرث فالدنيا مع العجل  
وطالبوا بحقوق أصبحت غرضا      لكل متزع سهما ومحشل  
حتى تعود سماء الأمن ضاحية      ويرفل العدل في ضائق من الحال

وقد نفى البارودي مع زعماء الثورة في جزيرة سيلان، وبقى فيها سبعين  
عشر عاما (١٨٨٣ - ١٩٠٠) فحركت الطبيعة من جهال ووهاد وأمواء  
وشر وآدواح لوابع الوجد والخذين وأنضجت حسه فبلغ آخره، وكان في  
حالة الشيخوخة كالشمس الغاربة بين مراكب الألوان والأضواء تزداد  
بهاء كلما مالت إلى العتمة.

ومن شعره في المتنفى :

جَرِي السُّوَابِقُ وَالْوَخَادَةُ النَّشَطُ  
 كَانُوهُم مِنْ عَتِيقِ الْحُمُرِ قَدْ سَقَطُوا  
 قَدْ مَاجَ مِنْ لَحْنِنِ السَّهْلِ وَالْفَرَطِ  
 أَطْفَالُ مَلْكٍ لَهَا مِنْ سَنَدِسٍ قَطْطُ

وَرَبِّ يَوْمٍ طَوِيلِ الْعُمُرِ فَصَرَّهُ  
 تَرَى بِهِ الْقَوْمُ صَرْعَى لَا حَرَكَتْهُمْ  
 وَلِلْغَوَاحَتِ فِي أَفَانِهَا هَرَجَ  
 خَضْرَ الْجَنَاجِنِ وَالْأَطْوَاقِ تَحْسِبُهَا

وقال :

وَكَيْفَ يَحْيِي الْقَوْلَ أَخْرَسَ مَطْرَقَ؟  
 وَيَخْبُرُ مَا فِي نَفْسِهِ وَهُوَ مَطْبَقَ  
 وَلَا شَائِنَهُ يَدْنُو وَلَا نَحْنُ نَلْحِقَ  
 يَقْصُ جَنَاحَ الْفَكَرِ وَهُوَ مَحْلِقَ

سَلَ الْفَلَكَ الدَّوَارَ إِنْ كَانَ يَنْطَقَ  
 نَسَائِلَهُ عَنْ شَائِنَهُ وَهُوَ صَامِتَ  
 فَلَا سَرَهُ يَبْدُو وَلَا نَحْنُ نَرْعُوْيَ  
 فَضَاءُ يَرْدَ الْعَيْنِ حَسَرَى وَمَسْرَحَ

وَبَعْدَ عُودَتِهِ إِلَى مِصْرَ فِي سَنَةِ ١٩٠٠ مِنْ بَقْسِرِ الْجَزِيرَةِ لِتَذَكُّرِ أَيَّامِ  
 اسْمَاعِيلَ، فَنَظَمَ مُعْتَبِرًا وَمَذَكَّرًا قَصْيَدَتَهُ الشَّهِيرَةَ :

هَلْ بِالْحَمْيِ عنْ سَرِيرِ الْمَلَكِ مِنْ يَنْعِ  
 هَيَّاهَاتٌ قَدْ ذَهَبَ الْمَتَبَوِعُ وَالتَّبعُ

وَقَدْ مَاتَ الْبَارُودِيَ فِي سَنَةِ ١٩٠٤ وَتَرَكَ شِعْرًا كَافِ مِنْ أَشْخَاصِيَّتِهِ  
 الْقَوْيَّةِ، وَمِنْ آَئِدِعَصَرَهُ، شِعْرًا فَاضَ بِهِ الطَّبَعُ وَالْإِلَهَامُ لَمْ يَمْتَ، وَلَنْ يَمُوتْ مِنْهُ

يت واحد، لأن المدحى وبكاء الطلول والنسيب وكل تقليد ممدوح لم يعرف إلى ديوانه سبيلاً.

### سادتي :

لكل شخصية معجزات ، وقد كانت معجزة البارودي أنه خرج بقوه باهرة من طوق التقليد الحكم الذي نشأ فيه ، وقفه كما ينقف الفرخ البيضة . وهذا سر من أسرار الله ، وأستطيع أن أقول : إن البارودي تحرر من القديم أكثر من معظم الشعراء الذين تبعوه في النصف الأول من القرن التاسع عشر .

كان التحرر من القديم ولا يزال مشكلة المشاكل في كل بلد وزمن ، خصوصاً في مصر حيث تتعدد المذاهب والمسالك ، وتتشابه وتختلط بين الشرق والغرب والقديم والحديث في الدين واللغة والأدب والكتابة والقضاء . وكل شأن من شأن حياة الفرد أو الجماعة . وقد كان الشعر العباسي بوجه خاص المرجع والمثال الذي يحتذى لكل شاعر ، ولا شك أن العباسيين قد جددوا في الشعر بقوه أسلوبهم وخيالهم ، ولكنهم تغافلوا في المدحى وبكاء الطلول والنميريات والنسيب ، فمات جزء كبير من شعرهم بعدهم . صحيح أن الشعراء اللاتينيين القدماء كانوا يتغفرون بالنبيذ مثلاً ولكن خلفاءهم من الحمدان هجروا هذا الباب . كما أن بكاء الطلول

أو المنازل التي خفَّ أهلها ، والعقود التي انقضت قد يجد له في قلب كل عصر ورثا حناناً يشجى ، إذا لمسته عروس الشعر . أليس البحترى هو الذى قال :

تلك المنازل ما تمنع واقفاً بزهى الشخص ولا وغى الأصوات  
وهذا يذكُرنا بالآية الكريمة : "وكم أهلنَا قبلهم من قرن ، هل تحس منهم من أحد ، أو تسمع لهم ركناً".

وقال شوقي :

وإذا الدار ما بها من أنيس وإذا القوم ما لهم من محس  
ولكن "شوق" لم يوفق كما وفق "البحترى" في قوة الأداء والتوصير .  
ولو أن المديح وما إليه لم يحتل ذلك المكان من ديوان شاعرين كبارين  
كالبحترى والمتذى لما حدث ذلك الفراغ في أدبنا بين الآداب العالمية .

\* \* \*

وصف مصطفى صادق الرافعى أثر الشعر العباسى وكتاب الوسيلة  
الذى نقد ذلك الشعر فى تكوين شعرائنا . قال : "ولد حافظ سنة ١٨٧١  
وكان الكتاب الأول الذى هداه إلى سر الأدب العربى وأرھف ذوقه  
وأحكام طبيعته هو كتاب "الوسيلة الأدبية" . فنى هذا الكتاب قرأ حافظ  
خلاصة مختاره محققة من فنون الأدب العربى في عصوره المختلفة ، ودرس

ذوق البلاغة في أسمى ما يبلغ بها الذوق ، ووقف على أسرار تراكيبيها  
وعرف منه الطريقة التي نبغ بها البارودي وهي قراءة دواوين خول الشعراء  
من العرب ومن بعدهم وحفظه الكبير منها ” .

وكتب الأمير شحيب أرسلان : ” والظاهر أن الوسيلة الأدبية  
للمرصفى بما فيها من شعر البارودى قد أنسأت أكثر من شوقى ، وحافظت  
وأحيت لالدب العرب دولة . وقد كان اطلاعنا على شعر محمود سامي  
البارودى بواسطة الأستاذ الإمام محمد عبده يوم كان منفيا في بيروت وكنا  
نلزمه فهو الذى عرفنا الوسيلة الأدبية، وذا أنا وأخي ” نسيب ” رحمه الله ،  
نصبومن صبانا إلى طريقة الأولين في الشعر ونؤثر شعر الجاهلية الخضراء  
فلماقرأنا شعر محمود سامي سكرنا بأدبه ، ورقضنا على قصبه ، وبعث لنا  
نشوة روحية لم نعهد لها في أنفسنا من قبل أن عرفناه ، وعلمنا أن في  
المعاصرين من قدر أن يضارع الأولين . وكما من قبل محمود سامي نظن  
الأولين غاية لا تدرك ” .

وأذكر أننى في سنة ١٩٠٩ قيل بإصدار الجزء الأول من شعراء العصر  
نسخة بجميع قصائد البارودى من الوسيلة بـ تـ زـ الـ نـ فـ لـ اـ طـ يـ وـ كـ اـ لـ تـ عـ روـ نـ  
أشداء نسخها هزة الطرد حين يقول :

سواء يتحدى الأغاريد يطرب وغيرى باللذات يلهى ويلعب

ثم اشتريت الوسيلة بعد ذلك فاغتنى عن كتب البلاغة كلها .

وخلالقة القول. كان الشعر العباسى وبالاخص أسلوب البحترى مدرسة  
لشعراءنا المعاصرين جمیعا .

وإذا كانت قصيدة أبي تمام في فتح عمورية (السيف أصدق أنباء من الكتب) أكبر قصيدة حماسية في العصر العباسى ، فإن القصيدة التي قالها مطران في حرب طرابلس الغرب كانت أكبر قصيدة حماسية في العصر الحديث ، وبين القصيدتين نسب واحد يؤلف بينهما ، قال مطران :

وقال :

خلتم طرابلس الغنم المباح لكم  
هناك يلقى سراياكم وإن ثقلت  
يغشون بكر الروابي وهي ناهدة  
ورب واد تواروا فيه ليلاتهم  
عطف العقاب على أفراخها فإذا  
تواثبوا قلقت من روعها الأكم  
شاطئهم بجناحية وقد جثموا  
فتكتسيهم على عري وتختشم  
عرب صلاب خفاف في الوغنى هضم  
وشر ما قتل الخداع ما غنهوا

كونوا ملائكة لا جوع ولا ظمآن  
أليس منكم أوان الكر كل قتي  
وكل ذي صرة يمضى برأيته  
يقول للعلم الخفاق في يده  
وليغائب نظام الخلق صبركم  
يصلون ما شاء في الدنيا ويتحكمون  
إلى الجهاد كما اعتادت ويعتنون  
في الأرض ما تختار ياعلم  
لاتقل هذه القصيدة في قوتها عن قصيدة أبي تمام التي كان مطران  
يعجب بها و يقوله :

ولا الحدود وإن أدمين من نجح  
أشهى إلى نظرى من خدك الترب  
كان اسماعيل صبرى يقول "شوقى ينظم ، وحافظ يينى ، ومطران  
يتندع" ولما قال مطران بيميته السابقة طرب لها، وكان ينشد منها هذا  
البيت مراراً :

يقول للعلم الخفاق في يده      في الأرض ما تختار ياعلم  
وقابل مطران بعد ذلك فقال له : "لقد أسكتنى . إنك فت الشعراء  
بسمة عاصم" .

على أن "مطران" في قصائده في العام الهجرى وفي السياسة والاجتماع  
لا يسمو سمو حافظ ، وقد ينسف ، ولكنها إذا غضب أو ثار أو تحمس  
بلغ القمة ، وكان أجرأ شاعر في التنديد بالظلم ، ومناؤة كل جبار ، وقد نظم

على إثر صدور القوانين التي تحد من حرية الصحافة في سنة ١٩٠٩ وما تبعها من سجن الأحرار ومطاردتهم أبياتاً منشورة في ديوانه تحت عنوان (مقاطعة) :

شدوا أخيارها بحراً وبراً      واقتلوا أحرارها حراً فبرا  
كسرموا الأقلام هل تكسيرها يمنع الأيدي أن تنشق صخراً  
وبعد انتشار هذه الأبيات توعده رئيس وزارة بالفنى من مصر، فكتب  
الأبيات التي نشر بعضها في ديوانه :

أنا لا أخاف ولا أرجى فرمى مؤهبة وسر جى  
وكان مطران ، رغمما من رقة حاله ، لا يفتئي بنا هض السلطات كلما  
رأى في تصرفاتها ما يمس حرية الرأى والشعور . فقد وصلت والدة  
المديوى عباس إلى قصرها فى الدوبارة فى يوم ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣  
وفي اليوم资料 شرط الأهرام قصيدة لمطران يحيى فيها قدوتها . ولم  
تنشر هذه القصيدة في ديوانه الذي ظهر في سنة ١٩٤٩ ومطلعها :

يادواه أهلك بالسلامة عادوا لا النفى أنساهم ولا الإبعاد  
وفى ليلة ٢٣ أكتوبر من نفس السنة ١٩٢٣ وصلت إلى الإسكندرية  
السفينة التي تقل رفات الأمير عبد القادر، وكان موته في برلين سنة ١٩١٩  
فمن استقبال الرفات في الميناء أو الاحتفال به . ونقلت الجثة ليلًا إلى

القاهرة حيث شيعت الجنازة رسمياً في اليوم التالي : واتفق أن كانت عودة الملك فؤاد إلى القاهرة من مصيفه بالإسكندرية يوم ٢٢ أكتوبر وكانت الزينات لا تزال قائمة إبان تشيع الجنازة وقباها وبعدها أيام ، كما جرت العادة . نشرت الأهرام بهذه المناسبة ، في يوم ٢٣ أكتوبر قصيدة لمطران ، أوردة وفاء وجزاء على الأمير عبد القادر . روى لى المرحوم «أنطون الجميل» أن السرای عقب نشر القصيدة التي عرض فيها الشاعر بالزينات ولم تؤثر فيه رغبة أو رهبة ، استدعاه للسؤال ما وكانت تفكير في محاكمته . وهذه القصيدة كما بقى لها لم تنشر في ديوانه ، ولعل مطران كان يخشى بطش فاروق وغدره :

أقدم الفتیان فی طلب العلا  
سأء العلا أن كنت أول عائز  
نجد المحابر للسرور بها الأسى  
وترى عظامهن جد صغائر  
نهدو الہارج كل زور تحتها  
وتمر بالزينات من الساخر

ولم يتخلص شوقی إلا قصيدة واحدة ترحيباً بالوالدة ورثاء لحفيدها نشرتها  
له الأهرام يوم ٢٤ أكتوبر .

وليس أدل على علو نفس مطران وميله انحرافاته إلى الحورية وتحطيم القيد  
من قوله رداً على اقتراح كاتب الأهرام في فبراير سنة ١٩٣٤ تعينه  
في وظيفة حكومية : خلقت عيوفاً لكل صلة من الصلات الشبيهة

بالأغلال . إن ببلاء يتعنى في قفص قد يجيد ولكن بصدره ضيقاً، وتحت شدوه حزناً داوياً . أما البليل الذي يتعنى في الروض وبجاله سعة السماء في Sikki ويضحك ويغضب ويشكو غرامه حين يجد به الغرام .

والواقع أن حكومات الاحتلال كانت لا تسعف الشعراء والكتاب بمحوتها إلا إذا ضفت أن يخدموا أغراضها التي تتنافى مع أغراض الشعر . وقد عانى حافظ مراة الضنك والبؤس طويلاً على الرغم مما زعمه أحد الأدباء الذين لا خبرة لهم بالحياة أنه لم يعرف البؤس ، وما قال حافظ ( سعيت إلى أن كدت اتعل الدما ) إلا ترجمة عن حقيقة كابدها وركب هو لها . ولا ريب أن جزءاً كبيراً من محمود حافظ ومطران وغيرهما ضائع في الكفاح في سبيل العيش في جو خناق للعبقرية يفت في عضدهم ، ولولا البيئة التي كان يعاني فيها بعض الشعراء ذلك البؤس المادي والروحي لما هجر البليل صداح كعبد الرحمن شكري دوحة الشعر وانزوى ببلاء آخرساً .

والحمد لله أولاً وآخراً فإنه على الرغم من العوائق غرد شوقى ، وصبرى ومطران ، وحافظ وغيرهم ، وجددوا كثيراً من فنون الشعر وأغراضه . وقد كان لمطران من وحي الحس والخيال آيات تتجلى فيها دقة التصوير ولو رزق سلاسة شوقى لنازعه الإمارة .

جاء في الجزء الثاني من ديوان مطران أنه بينما كان ينظم إذ استوقفت  
قلمه ألحان حزن تصدح بها موسيقى كانت سائرة في الطريق ، فإذا جنائزه  
مير خلف طبل و بوق فقال :

عظة جنت فغفت في الطريق	مشهد سير في طبل و بوق
أن تزف النعش في تدليل سوق	عظة الموت وما عهدي بها
عن ثبور من نحاس و حلوق	لا ، ولا عهدي بها خطابة
صوتها حس جراح و حروق	ويبح تلك القطع الصفراء في
من وجيف و عويل و نعيق	من ترى علمها ما من جلت
كل سمع وأجفت كل ديق	ألت الفجعة فاستولت على
صاحب الآلام رنان الخفوق	تلك شكوى عن فؤاد تأكل
ذلك التنبية للحس الصعيق	يا أباً يبكي ابنه متلمسا
آه من نار الجوى فهى التي	تفجر البركان من قلب رفيق

\* \* \* \* \*

أما صبرى فكان دولة وحده بمقطعاته التي تجمع بين صفاء الباھلية  
و حلو نفسها، وبين روح الشعر الغنائى في الغرب . أليس هو القائل في شجرة :  
عار عليك وهذا الظل منتشر فتك المحبير بمثلى في نواحيك  
كى أقطع العمر شدواً في أعلىك فم معيرى جناحى طائر غرد

والقاتل :

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمانا  
حمل الصباية فاخفق وحدك الآنا  
وحسينا الإشارة إلى قصيده فى المرأة (تمثال جمال) التى تقع  
في عشرين بيتا :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى  
فرقتهم فى الهوى ثاراتهم  
أنت يم الحسن فيه ازدحمت  
يقذف الشوق بها في ما يجع  
أقل نستقبل الدنيا وما  
واخطرى بين النداوى يخلفوا  
لا تخافى شططا من أنفس  
أنت روحانية لا تدعى  
أن روضا راح فى النادى وجاء  
ضئته من معدات ال�باء  
سفر الآمال يرجيها الرجاء  
فاعجمى الأمر وصونى الأربعاء  
ايقضوا الفتنة فى ظل اللواء

\* \* \*

وقد نشرت هذه القصيدة لأول مرة في (المجلة المصرية) التي كان  
يصدرها خليل مطران في عدد يونيو سنة ١٩٠١ . وهذا ما قاله مطران  
بهذه المناسبة " كانت التزليات قبل الان فيها ما يمس الآداب العمومية  
من ذكر القذود والنزو وورقة الخصر وذافة الردف ، ولقد كان هذا من

للمعام حتى في قصائد المديح للملوك والأمراء ، وهو ما لا ترضاه الأذواق  
في هذه الأيام ، وينكره علينا أدباء الغرب ، وقد سئل صاحب السعادة  
المفضال اسماعيل باشا صبرى نظم أبيات تنقل إلى اللغة الفرنسية ، بخادت  
قريحته الوفادة بهذه الأبيات التي جاءت على الطريقة الصوفية من حيث  
سمو الخيال ، ونراة الشيحة ، وغرابة الوضع ، ولعلها أحسن ما جمع فيه بين  
الأسلوبين العربي والغربي في نظم الشعر .

كان صبرى من الشعراء المقلين ، وكان مثلاً ماهراً يفضل نحت دمية  
على بناء هرم ، وقد يجد في الوردة الجميلة ما يجد الغير في حقل من الورد .  
وكان يحب الإتقان ، وكان الشعراً جميعهم ناشئوهم وكهولهم ، يبحرون  
في غباره ، ويسهترشدون بذرقه الذي "يحس نبو" الوتر ، كما قال حافظ .  
وقد جنى عليه ناشر ديرانه بنشر المطولات التي كانت أغلبها من شعر  
الشباب ، وكان يزيد محوها من آثاره إلى الأبد .

كان صبرى يقول : البحترى أشعر القدماء ، وسوق أشعر المحدثين وكان  
هذا رأى معظم أدباء العصر ، وكانت في مصر حركة أدبية واسعة تختار  
كراميم الشعر وتتدوّق ، وكان حديث الشعر في كل صحيفة وناد . ألتقي  
بصادق عزبر في الطريق فيقول : من حسنات شوقي :

همت الفلك واحتواها الماء      وحداها بمن تقل الرجال

وأنت في بحث أديب في "بار الماء" فيقول: لم يقل أحد في الجماجم المبعثرة  
في التراب ما قاله شوقي :

وترى الجماجم في التراب تشبه الأصداف  
بعد العقول تشبه تشابه

وكلكم يعرف سينية البحترى في "إيوان كسرى" . ويعرف سينية شوقي  
الأندلسية . وائن لم يصل شوقي الى مرتبة الوليد في جودة السبك ، والصعود  
بالقصيدة كلها في نفس واحد في جو من أجواء ذلك العالم العلوى ، عالم  
الشجا والنغم والخيال ، فإن له أبياتا في هذه القصيدة توazi أرقى أبيات  
"إيوان" كقوله في خروج العرب من الأندلس :

خرج القوم في كتاب صم  
عن حفاظ كوكب المدفن خرس  
ركعوا بالبحار نعشًا وكانت  
وقوله في خاتمة الإنسان أمام الكون والاصير المخنوم :

يافوادى لكل أمر قرار  
فيه يبدوا وينجلى بعد لبس  
كانت الموت طول سبع وغض  
عقلت بحنة الأمور عقولا  
غرقت حيث لا يصاح بطااف  
أثر غريق ، ولا يصاح لحس  
وحسمات شوقي لا يحصها عد . تغنى بالليل ، وتغنى بصر ، وتاريخ  
مصر ، وأثار مصر ، وهو القائل في قصيدة أنس الوجود :

أنا المحتفى بتاريخ مصر  
من يصن مجد قومه صان عرضنا

وتغنى بالثورة :

والشعب إن رام الحياة كبيرة خاض الغمار دما إلى آماله

\* \*

وللحربية الحمراء بباب بكل يد مضرجة بدق

وتغنى بالتخيل بين المنته وأب قير :

نمـت وربـت فـي ظـلـال الكـتب

و باسقة من بنات الرمال

إذا الـريـح جاءـ بهـ أوـ ذـهـبـ

تطـولـ وـتقـصـرـ خـلـفـ الـكـثـيبـ

وـجـزـ الأـصـيـلـ عـلـيـهاـ الـلـهـبـ

تـخـالـ إـذـاـ اـنـقـدـتـ فـيـ الضـحـىـ

مـنـ الصـحـوـأـوـمـنـ حـواـشـيـ السـحـبـ

وـطـافـ عـلـيـهـاـ شـعـاعـ النـهـارـ

مـنـ القـصـرـ وـاقـفـةـ تـرـقبـ

وـصـيـفـةـ فـرـعـونـ فـيـ سـاحـةـ

مـفـصـلـةـ بـشـذـورـ الـدـهـبـ

قـدـ اـعـتـصـبـتـ بـفـصـوصـ الـعـقـيقـ

عـلـيـ الصـدـرـ وـاتـسـحتـ بـالـقـصـبـ

وـنـاطـتـ قـلـائـدـ صـرـجـانـهـاـ

تـعـقـدـ مـنـ رـأـسـاـ لـذـنـبـ

وـشـلتـ عـلـىـ سـاقـهاـ مـئـزـراـ

\* \*

أمير الحقـلـ عـرـوـسـ العـزـبـ

أهـذـاـ هـوـ النـخلـ مـلـكـ الـرـيـاضـ

وـزـادـ المـسـافـرـ وـالـمـغـرـبـ

طـعامـ الـفـقـيرـ وـحلـوىـ الـفـنـيـ

وـلـاـ قـصـرـ نـخـلـاتـ الـتـربـ

فـيـنـخـلـةـ الـرـمـلـ لـمـ تـخـلـىـ

ئد من وصفكـن وعطل الكـتب  
كان أـعاليـكـن العـبـبـ  
جـناـها بـجـانـبـ أـخـرىـ حـلـبـ  
حـسـانـ الدـمـىـ الزـائـنـاتـ الـرـحـبـ  
وـكـالـشـهـدـ فـكـلـ لـونـ يـحـبـ

أـلـيـسـ حـراـماـ خـلـوـ القـصـاـ  
وـأـتـنـ فـيـ الـهـاجـرـاتـ الـظـلـلـ  
وـأـتـنـ فـيـ الـبـيـدـ شـاءـ الـمـعـيلـ  
وـأـتـنـ فـيـ عـرـصـاتـ الـقـصـورـ  
جـناـكـنـ كـالـكـرمـ شـتـ المـذاـقـ

لم أـرـ بـلـاحـلـيـ أوـ إـسـلـامـيـ شـعـرـاـ فـيـ النـيـخـيـلـ جـمـعـ بـينـ أـفـانـيـنـ التـصـوـيرـ كـاـ  
جـمـعـهـاـ شـعـرـ شـوـقـيـ وـقـدـ أـطـنـبـ كـذـابـنـاـ فـقـولـ شـوـقـيـ :

وـنـاطـتـ قـلـائـدـ مـرـجـانـهـاـ  
عـلـىـ الصـدـرـ وـاتـسـحتـ بـالـفـصـبـ  
وـشـأـتـ عـلـىـ سـاقـهـاـ مـزـرـاـ  
تـعـقـدـ مـنـ رـأـهـاـ لـلـذـبـ

وـأـلـكـنـ أـولـئـكـ الـحـابـ أـغـفـلـواـ بـيـتـاـ مـنـ التـصـوـيرـ الذـيـ تـعـجـزـ عـنـهـ رـيشـةـ  
الـصـورـ :

إـنـ حـرـكـةـ النـيـخـيـلـ وـرـاءـ الـكـثـيـانـ طـوـلـ وـتـقـصـرـ ،ـ هـذـهـ الـحـرـكـةـ الـتـيـ تـنـاغـيـ  
الـحـيـالـ وـتـلاـعـبـهـ ،ـ نـضـارـعـ فـيـ الـمـحـنـ وـالـمـلـاـوـةـ ،ـ حـرـكـةـ الـأـغـصـانـ فـيـ بـيـتـ  
ابـنـ الرـوـمـيـ الـلـدـنـ فـاـلـهـاـ فـيـ بـعـضـ أـسـفـارـهـ يـذـكـرـ بـغـدـادـ :

بـلـدـ صـحبـتـ بـهـ الشـبـيـةـ وـالـصـبـهـاـ  
وـلـبـسـتـ فـيـهـ الـعـيـشـ وـهـوـ جـدـيدـ  
فـاـذـاـ تـمـثـلـ فـيـ الـضـمـيرـ رـأـيـتـهـ

ولاشك أن مجرد تصوير حركة أغصان الشباب ، والشباب والأغصان  
مختلطان ، من التصوير الواقعى البسيط الذى لا تشبيه فيه .

هل أذن هناك مشكلة عويصة عرض لها شوقى ، وهى مشكلة اللغة  
الفصحي والعامية ، وضرورة استعمال الثانية فى بعض الحالات خصوصا  
إذا كانت العامية ترجع إلى أصل فصيح مثل ذلك : قال شوقى عن المدخلة  
إنها عروس العزب ، والعزبة ليست عربية ، ولكن مجرد ذكرها يقرب  
إلى أذهاننا وقلوبنا صورا محببة من ريف مصر وألوانه التى ألفناها . جاء  
في كتب اللغة عزب ، بعد وغاب ، والمصدر العزبة بضم العين . والعازب  
الكلاب البعيد ، فالعزبة الأرض البعيدة في الريف . ولعل الأبعدية أيضا  
من الأبعد ضد الأقرب . وقد أراد البارودى أن يصف امرأة بخفة الدم  
فقال "خفيفة بحرى الروح" مع أن خفيف الظل ، أو خفيف الروح  
في الشعر نسب ، و (خفيف الدم) في النثر المرضى أوقع لأنها مصرية قبح .

تقول : إن الصورة الواقعية البسيطة أفعى في النفوس من الصورة المركبة  
التي تحمل طلاء البديع ، وفيها لمسة المصور الخاذق ، كما في قول البارودى :  
أخلاق الشيب جدوى وكسانى خلعة منه رثة الحلباب  
ولوى شعر حاجي على عيـ

وقد انفرد شوقى ومطران باستقصاء كل الصور الحسية والمعنوية  
في تصويرهما . وصف شوقى المزار، فقال من قصيدة لم تنشر في ديوانه :

سما يناغى الشهبا هـل مـهـا فـالـهـبـا  
كـالـدـيـدـبـاـنـ ئـلـزـمـوـهـ فـيـ الـبـحـارـ حـرـقـبـاـ  
شـيـعـ مـنـهـ مـرـجـبـاـ وـقـامـ يـلـقـيـ مـرـجـبـاـ  
بـشـرـ بـالـدارـ وـبـالـ  
أـهـلـ السـرـةـ النـيـبـاـ  
وـخـطـ بـالـنـورـ عـلـىـ لـوـحـ الـظـلـامـ حـرـجـبـاـ  
كـالـبـارـقـ الـمـلـحـ لـمـ عـقـبـاـ  
يـمـىـ إـلـىـ الـظـلـامـ طـوـ فـاـ حـائـرـاـ ،ـ مـذـذـبـاـ  
كـنـمـرـ أـدـارـ عـيـ نـاـ فـيـ الدـجـيـ وـقـلـبـاـ  
وـكـالـسـرـاجـ فـيـ يـدـ الـرـيـحـ أـضـاءـ ،ـ وـخـبـاـ  
وـلـحـةـ مـنـ خـاطـرـ ماـ جـاءـ حـتـىـ ذـهـبـاـ  
مـجـتـبـ الـعـالـمـ فـيـ عـزـتـهـ ،ـ مـجـتـبـاـ  
إـلـاـ شـرـاعـاـ ضـلـ أـوـ فـلـكـاـ يـقـادـ الـعـطـبـاـ

حدثني أديب أنه في أثناء مواسم الاحتفال بتأمين شوقى واحتضان الوفود  
العربية المختلفة للأشراك فيها مع أدباء مصر وثقفيها من كل الطبقات

استرعى ذلك المهرجان "برنارد شو" الذي تصادف وجوده في مصر في ذلك الوقت فسأل بعض المصريين الذين وفدوا لتجيئه في نزل الكونتكتال ، أن يترجموا له ما نظمه في المزار ، والنخيل فاستطرب ، ولوح بيديه إعجاباً وقال : إن مثل هذا الشاعر بحدير بالتكريم حقاً فلست أعرف بين الشعراء من له قدرة هذا الشاعر في اختراع التشبيهات المطردة المتنوعة للمنظر الواحد مع قوة الأداء على الرغم مما في شعركم من قيود .

. والواقع أن عصر حافظ كان غنياً بشعره عبقرية ، وأن بعض كنوزه لا تزال مبعثرة ، قرأت "أولى الدين" يكن أبياتاً أنسدتها فتاة عميماء في حفلة خيرية للبنات الكفيفات في مصر :

رحم الله أعينا لم تشاهد منذ كانت إلا ليالي سودا  
تمنى لو فتحت فتملت من جمال الوجود هذا الشهودا  
تنابجي حمام الروض صباحاً لا زاهماً ، ونسمع التغريدا  
ويكون الربع منا قريباً فنظن الربيع منا بعيداً  
حين ترنو إلى الورود عيون  
أبوى اللذين أوجدناني  
أثيران شقوتى ، لن تريدا  
أنا وحدي وجدت شملي بدليداً  
عشنا في ظلال شمل جميع

وقد ذكرتني هذه القطعة بأبيات الشاعر الإنجليزي "ملتون" الذي  
كف بصره في كهولته :

”أنا ظلام وسط نور  
”أ تعرض كل يوم للخدعه والغش والعبث والازدراء في البيت وفي الطريق  
”أنا كالمحفل أصبح زمامي بيده غيري لا بيده  
”يخيل إلى أن الحياة لا تكاد تدب في جسمى ، وأن أكثرى ميت  
”حلوكة لن تزول ومحاق كامل لن يفضى إلى نهار  
”أيها الظلام الحالك . الحالك . الحالك في ضوء الظهر المتوجج ...

ليست صيحة ماتون يأبلغ من صيحة "ولي الدين" في طلب الرحمة لملك الأعين التي لم تشاهد منذ كانت إلا ليالي سودا .

وإبائي يرى من الضييم ان أحد مل في الدهر منة للغمام وهذا الكاظمى حسبه مجدا قوله :

والكافظى هو الشاعر الوحيد فى عصرنا الذى كانت له سلقة الأعراب فى ارتياح الشعر ، أذ كرأنه نظم أمامى مائة وأربعين بيتاً . وكان كلما نظم بيتاً جديداً أو يتبين أو ثلاثة تغنى بالأبيات التى قاھا من قبل ، فعل المستجم ، ثم انطلق ينظم ويطرب نطرياً بصوته المشجى ، ثم يقبل

ثم يدبر في زهو وخياله ، متنقلًا من فن إلى فن كالبلبل المأتم يردد  
تغريداً يتغريد . وأذكر أني قاطعته وهو يقول : ( ونبيبي بسماكن  
الرمل .... ) فقلت أرمل الاسكندرية ، فضحك .

\*  
\* \* \*

كان عصر البارودي عصر فرد ، عصر البارودي وحده ، وكان عصر  
حافظ عصر جماعة . وكان حافظ في المرتبة الشعرية واحداً من أربعة  
 كانوا في الوعيل الأول . ول肯نه كان ثانى اثنين بابعهما الجماهير بزعامة  
 الشعر : شوقي وحافظ . وكانت الموازنة بينهما شغل الأدباء الشاغل  
 كان المنفلوطى يقول إن حافظاً يقرن اسمه باسم شوقي ليضمن لنفسه محل  
 الثاني . على أن المنفلوطى نفسه كتب مقالاً بغير توقيع في جريدة عكاظ  
 تحت عنوان "شاعر ونار" وازى نفسه فيه بشوقي ليهتزّع صو بحان الكاتبة  
 من صاحب "عيسى بن هشام" .

والواقع أن حافظاً بشعره وشخصيته كان أقرب إلى الشعب من أى شاعر  
 آخر . قال لى صرة إن المتذمّى شاعر يحب أن تقف أمامه زهرار وتضرب  
 سلام ، والبهـــترى شاعر يأخذك بالحضن ، وقد كان شوقي وصبرى  
 وهمطران أشبه بالأرستوقراتية الشعرية قليلة الاتصال بالشعب متبااعدة  
 عنه كالمتنبى . أما حافظ فكان عشيراً أو عشريًّا كما يقول أولاد البلد

أبداً ضاحك السن لا يتجهم . جواداً متلافاً . كان أهلاً وكان سهلاً .  
وكانت مصر يته العريقة تبدو في ظرفه ، ونبرات صوته العريض ، في حز  
الجبن وفي ماء ذلك الوجه الأسمى النصیر الریان ، الذي كان يتلاً لأ  
البشر في أرجائه كما يتلاً في بحبوحة النيل الطامى .

كان حافظ إذا تحدث يدمع في مجلسه ، وكان مجلسه يدمج فيه ، وكان  
إذا خطب يدمع في الشعب ، وكان الشعب يدمج فيه ، كان أقرب إلينا  
من غيره كأنما كانت تربطه بكل منا صلة رحم أو قرابة . فإذا قال يا شباب  
النيل ، أو يا رجال الفند كان صوته المحب يلتفظ أبديتنا قبل آذانا .

نكلم حافظ بلغة الشعب ، لغة الرجولة والوفاء والإخلاص ؛ وكان  
يهزنا بشعره في كل المواقف : في مصر والسودان .

رويدك حتى يتحقق العلمان وتنظر ما يحرى به الفتىان

وفي الإمبراطورة أوجيني :

كنت بالأمس ضيفة عند ملك فانزلالي اليوم ضيفة في خان  
راذرینا على القصور كلانا غيرته طوارق الحدثان

في دنشواى :

لنب القضاء بنا وعز المهرب  
 في دنشواى وأنت عنا غائب  
 خليتهم والقاسمه طون بمرصد  
 وسياطهم وحباهم تتأهّب  
 والمتسار مكابر برجاله ومناجر ومحزب  
 طاحوا بأربعة فأردوا خامسا

هو خير ما يرجو العميد ويطلب  
 حب يحاول غرسه في أنفس يجئي بمغرسها الثناء الطيب  
 فاجعل شوارك رحمة ومودة إن القلوب مع المودة تكسب

هذا شعر ؟ أليها السادة ، وبيان كبيان الجاهلية في طلاوته وتحمدره  
 وهو ما يسميه بعض أدبائنا بالضجيج اللفظي . منهم في ذلك مثل الذين  
 لا يرون في التأليل التي صاغتها كف صناع ، إلا جحادة أو حجارة ، ورحم الله  
 البحترى الذى يقول :

على نحت القوافي من مقاطعها  
 وما على لهم أن تفهم البقر

روكان بعض كتاب العصر ؟ وعلى رأسهم المنفلوطى ، يقولون إن  
 شعر حافظ مجرد صناعة لفظية وقد صدرت (النظارات) في مارس  
 سنة ١٩١٠ ، وكانت لها صبغة لأنت المنفلوطى تمرض للحكم على الشعراء

والكتاب ، بخار في أحكامه . امتدح شوقى (١) ، ثم البارودى (٢) ثم قال عن صبرى (٣) ، كأن شعره البرد المخبر والجوهر المتخير . ولو كان له في الأسلوب العربى مثل نصيبي سابقية ما فضله أحد ، ثم حافظ (٤) ثم البكرى (٥) ثم شكيب (٦) ثم الكاظمى (٧) ثم مطران بعد أوائل جميعاً قال عنه ، بياض مهانىه فى سواد مجده كلاماس فى الفخر . أكثير الناس نفقة استغراجه فأغفلوه . أما حافظ فقال عنه : حظه أكبير من قدره ، وحياته أأشهر من شعره فهو صائغ ماهر ؛ لاغنى قادر ، ينجم الذهب قطعاً صفاء ، ويعرضه صوراً حسناً ، إلا أنه يتعمد الشعر تمهلاً يكاد يخفى آثره بين حلاوة اللفظ وطلاؤة الأسلوب ، لذلك لا تتجدد له معنى جديداً .

ولعمرى أين المعنى الجديد في قول من قال :  
ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لامحالة زائل  
وقول الآخر :

والناس من يلق خيراً فائلون له ما يشتهى ولأم المخطىء الم belum  
وهذا معنى متداول ، والعامة تقول : "البقرة لما تقع تكثُر سكاكينها"

وقد رثى حافظ (قاسم أمين) فقال في ختام قصيده :

قل للإمام إذا التقى به في الحسين بأكرم السرل  
للله آثار لكم خلدت صاح الزوال بها فلم تزل

لله أيام لكم درجت طالت عو ارفها ولم تطل

نعم الظلال لو أنها بقيت أو أن ظلا غير منتقل

ليس في هذه الأبيات معنى جديد ، ولكن فيها سحر البيان والنغم ،  
وما أحلى قول حافظ :

نعم الظلال لو أنها بقيت لو أن ظلا غير منتقل

وهذا كقول البحترى :

ويأصرنى بالصبر من ليس وجده كوجدى ولا إعلان حالى حاله

فقدمماً فقدت الظل عند انتقاله فإن أفقد العيش الذى فات باللوى

وما أحلى قول حافظ :

لله آثار لكم خلدت صاح الزوال بها فلم تزل

صاحب الزوال من فصيح العبارة ، وهي كقول أسرئ القيس (دع  
عنك نهبا صريح في حجراته) وصيغة المبنى للجهول في صحيح يخرج منها  
شعاع لامح كضوء النهار . ولشوق مبني آخر للجهول فيه عذوبة :

الذين ميل بهم فى اسفارهم بعدوا

ولقد عاصرت كتاب عصر حافظ وشعراءه ، وكنت أقرض الشعر  
وأعرضه عليهم فوجدت مرض " المعنى الجديد " متفشيا عند طائفة منهم

كان بعضهم يجري وراء المعنى، ويحصر القرية في استنباطه كأنه مطالب بحل عملية جبر أو حساب، وبطبيعة الحال كان البيت الذي يظفرون به تبدو عليه سيمى الضعف والوهن، كأنه نضو أسفار.

والمحجوب أن كتاباً كالمولى الحسني، وهو الوزان الحصيف، قد أصابته عدوى ذلك المرض فقال إن إحدى مقالاته في نقد ديوان شوقي «ومما نعده من حماسنه ونراه من المعانى المبتكرة :

سحت لك صورتى وأتاك شخصى      وسار الظل نحوك والجهات  
لأن الروح عندك وهى أصل      وحيث الأصل تسعى الملحقات  
وهيها صورة من غير روح      أليس من القبول لها حياة  
وهذا شعر سقى أقل ما يقال فيه أنه ليس من مستوى شوقي .

ولاحظ أنه كان لاسماعيل صبرى وبعض الأدباء والنقاد فضل كبير في تقويم الذوق، وتصحيح اتجاهات الشعر، فـ كان صبرى يندد بالإسراف في استعمال كان، والتشبيه بالذر، وكل المبالغات والتحسينات البدوية التي تحرر الشعر من أكثرها الآن. أذكر أن بعض الأدباء كانوا يطردون لقول المكافظى : ( لخ كوكا ، وابد غصنا ، والتفت ريم ) ويعذونه من بلية الشعر .

ولا يخالجنا شك في أن جرأة هذا المرض كانت موجودة منذ العصر العباسي ، في شهر المعانى والبدائع ، الذى أفسد على أبي تمام ، وابن المعتز بعض شعرهما . ولم يسلم منه البحترى ، قال يصف الربيع :

أناك الربيع الطلاق ينتهى ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقال أيضًا :

ألم تر تغليس الربيع المبكر  
وما حاك من فشى الرياض المنشر  
وردنا على بطيس وهي كأنها  
سبائب عصب أو زرابي عيقرا  
إليها سقوط المسؤول المتحدر  
كأن سقوط القطر فيها إذا اندى  
وفي أرجوانى من النور أحمر  
يشاب بيافند من الروض أخضر  
ليس في هذا الشعر أى إحساس عميق بالطبيعة ، وإن كذا نعشق موسيقاه  
التي ضاعت بين مهانيه وبرج ألوانه .

نحن لا ندعى أن حافظنا متره عن كل عيب ، ولكننا نؤكد أنه لم يتم عمل الشعر عملا إلا في أحوال نادرة كما حدث في مميمية رعاية الأطفال التي وصف فيها القطار ، فقال : إنه تم كاللائح ، أو كشريح الشباب ، أو كالظالمين أو كالقطاء ألغى ...

وقد يبدو التكلف بصفة عامة في المدح والنسيب وشعر المناسبات .  
ولكن من الخطأ القول أن شعر المدح أو النسيب التقليدي لا يصدر كله

عن وجdan صادق ، وأن التعامل بين في كل أحزائه ونواحيه ، فإن للشراء  
قلوبا يعمها الحب والصداقه والواطئ البشريه التي تحركها مواقف  
الوداع والتلاقي ، ونضوب المودات وازدهارها . أليس البحترى ، شاعر  
النسيب هو القائل :

ولقد تأملت الفراق فلم أجد يوم الفراق على امرئ بطيء  
قصرت مسافته على متزود منه لدهر صباة وعویل

و”صبرى“ هو القائل وقد جرى على نفس النهج التقليدى :  
هل عند ذاك السرب أنا بعده في الحى من آماقنا تتدفق  
ومدانح حافظ ومراثيه فى الإمام من الشعرابافى . وقد كان  
على الدين يكن فى النسيب الذى بدأ به حافظ قصيده :  
كم تحت أذیال الظلام متيم دامى الفؤاد ولله لا يعلم

وقد أنصف مطران الشعرااء المعاصرین في مقالاته التي نشرها في (المجلة  
المصرية) وهي جديرة أن تكتب بماء الذهب . قال عن حافظ : ” يقول  
الشوري كل مكان يتافق له أن يخلو بنفسه ، ومن عاداته دخول حدائقه  
الأزبكية بعد الظهر طالبا تلك الحلوة ، ولا ين太太ط عليه الفكر خلال الضجيج  
المحيط به . يتعجب في قرض قريضه تعب النحات الماهر في استخراج  
مثال جميل من حجره . يؤثر الحزالة على الرقة قوله فيها آيات . يطرق

الموضوع في القالب من جوهره ، وربما نظم أكثر الأبيات قبل المطلع شأن الصانع القدير الذي يبدأ بأصحاب ما بين يديه آمناً أن تن عزيمته دون الإجادة بعد ذلك ، عالمًا أن الكلام لا بد أن يأتيه في أى مقام طبعاً ولو بعد حين . حاضر المحظوظ من أوفصع أسماليب العرب ينسج على منوالها ويتغير نفائس مفرداتها وأعلاق حلالها . إذا صب البيت في قالب من العروض أعاده نغماً على سمه مستشيراً بذلك ذوقه عن طريق أذنه . وطاماً صدقه الأذن بتصویحه ، أما تخنيه فبدوىٌ أخذه عن الشيخ عبد الحسن الكاظمي . وطريقته أن ينطق بالكلمات ماحنة تلحينا ساذجاً . من إطالة في الحروف الممثلة ، ورجفة في القرار ، كثرة أربعة أنفاس وتقتضب . له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى . وفي أقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظاً على المجاد معنى ، فإذا فاته الابتكار حيناً في التصور لم يفته الابتكار في التصوير ، أولع بالاجتماعيات ، فقال فيها وأجاد ما شاء . كبير الآمال عاذر الحمد نجد على أكثر منظومه أثراً من ألم النفس ، أو مسحة من الشكوى ، وتحمل بعض ترونه من بهـ ما يلazu لدع النار المكامنة في غير متقد ، فهو على الجملة أحد ثلاثة الذين هم نجوم الأدب العربي في مصر لهذا العصر ، ولكل من تلك النجوم منزلته وإضاءته وأثره الخالد ، أما شعره فشعر البيان ، وإن من البيان لسحراً .

وقد نشرت مجلة الأقلام في سنة ١٩٠٦ رأى حافظ في شعراء عصره :  
قال في اسماعيل صبرى " يقول الشعر لنفسه لا ل manus " وفي شوقى " أرق  
الشعراء طبعاً وأسماهم خيالاً " وفي مطران " أمر عليهم بديمه وأقدرهم ابتكاراً .

\* \* \*

وقد أحضر المنشلوطى أنه اشتط في أحد كلامه ، فمدحها في مختاراته التي صدرت  
في سنة ١٩١٢ أى بعد صدور النظارات بعامين ، ولكنه وجد الفرصة موائمة  
لإذناف حافظ قبل ذلك ، فكتب في المؤيد في ١١ أبريل سنة ١٩١٠ ،  
أى بعد النظارات بشهر واحد ، مقالاً عنوانه ( إلى حافظ ابراهيم ) وذلك  
بمناسبة قصيده في رعاية الأطفال التي نشرتها المؤيد في اليوم السابق  
١٠ أبريل :

شبحاً أرى أم ذاتك طيف خيال لا بل فتاة بالعمر حيالي

وقد كان لذلك المقال صدى في الأوساط الأدبية . نجترئ بالشمر بهذه  
طويلة منه ، لأنه يكشف عن الصحف الذي يعتور أحياناً أسلوب المنشلوطى  
وآراءه التي كان يتعصب لها فريق من أدباء ذلك العصر ، قال :

" لو أن قصيده تلك في رعاية الأطفال تقدمت كلمتي عنك في كتاب  
النظارات يوم واحد لكان لي معك شأن غير الذي رأيت .

”أحب الشعر غزلاً ونسيماً واستعطاها واعتها مذاراً وتمثيلاً وتصويراً  
 فلا أحب سياسة أو حماسة ويدحاً وذماً وأخذناً ورداً، لذلك كان إعجابي  
 بموقفك أهلاً الشاعر الجليل بين الظل والماء، والكأس والوتر، والشفق  
 الأحمر والليل الأسود، والفجر الأبيض، أكثر من موقفك في منابر  
 السياسة بين جماعة السياسيين“.

”أعجبتني قصيتك عامة لأنها أبكنتني، وأعجبني منها خاصة :  
 فعلمتك ما تخفي الفتاة وإنما يخنو على أمثالها أمثالى  
 كما أعجبني قولك بعد ذلك :  
 ووقفت أنظرها كأنى عابد في هيكل يرنو إلى تمثال  
 ولم أر في الشعراء من أحسن تمثيل الموقفين المختلفين في بيت واحد  
 مثلك في قولك :

أمشى وأحمل بالسين فطارق بزوال  
 بباب الحياة ومؤذن لها من الإشراق والإعوال  
 أبكيهما وكأنما أنا نالت

\* \* \*

كالم أرباتهم عن شبهه خفقان قلب المريض بممثل ما شبه به في قوله:  
 وجنتا الطيب يحس نبضها خافنا ويرود مكن دائها القتال  
 لم يدر عين دنا ليبلو قلبه دقات قلب أم دباب نمال

« وَاقْدَرْتُ قِرَأْتَ حِكْمَةَ الْمَاءِرِيِّ ، وَآدَابَ أَبِي الطَّيْبِ ، فَلَمْ أُرِهَا بِذَاكِرَةِ حِكْمَتِكَ الَّتِي أُوْدِعْتَهَا قَوْلَكَ » :

خَيْرُ الصَّنَاعَمْ فِي الْأَنَامِ صَنْيَعَةٌ تَذَبَّرُ بِحَامِلَاهَا عَنِ الْإِذْلَالِ  
وَإِذَا النَّوَالُ آتَى وَلَمْ يَهْرُقْ لَهُ مَاءُ الْوَجْهِ فَذَاكِرَةُ خَيْرٍ نَوَالٍ

« وَفِي اعْتِقَادِي أَنَّ أَبْنَى الْمَهْتَرَ لَوْ سَمِعَ قَوْلَكَ » :

وَكَانَ نَاحِلُ جَسْمِهِ فِي ثُوبِهِ خَلْفَ الْخَرْوَقِ يَطْلُلُ مِنْ غَرَبَالِ

« لَا غَبَطْ بِكَ كَثِيرًا ، وَلَا عَنْقَدْ أَنْ جَمَالَ التَّشَابِهِ لَا يَوْتِي هَوْتَهُ » .

وَكَانَ الْخَتَامُ : « نَهَيْتَنَا يَا حَافِظَ بِعِهْدِكَ الْجَدِيدِ فِي شِعْرِكَ الْجَدِيدِ . . .  
وَكَنْ يَا حَافِظَ فِي شِعْرِكَ كَمَّهُ شَاعِرُ الْأَئْمَاءِ وَالْقُلُوبِ ، لَا شَاعِرُ الْمُسِيَّاسَةِ  
وَالْأَحْزَابِ » اتَّهَى .

هَذِهِ الْقُصْيَدَةُ مِنْ أَرْوَعِ قَصَائِدِ حَافِظٍ وَقَدْ تَكُونُ أَرْوَعَهَا ، وَتَمْتَازُ بِقُوَّةِ  
الْحِلْكَ وَحُسْنِ السِّرْدِ وَالسِّيَاقِ الرَّوَائِيِّ فِي أَسْلَوبٍ سَهْلٍ سَلِيسٍ ، وَدَقَّةِ  
تَصْوِيرِ المَوَاقِفِ الْمُخْتَلِفةِ ، وَلِذَاكِرَةِ فَإِنَّ التَّشَبِيهَاتِ لَا يَبْدُو بِهِرَاهَا إِلَّا مَنْظُوَةً  
فِي سَلِكِ الْقُصْيَدَةِ ، وَجَوْهَرِهَا . وَبَيْتٌ حَافِظٌ :

وَكَانَ نَاحِلُ جَسْمِهِ فِي ثُوبِهِ خَلْفَ الْخَرْوَقِ يَطْلُلُ مِنْ غَرَبَالِ

إذا نظرنا إليه منفردا لم نجد فيه من جمال التشبيه ما يرفض له ابن المعتر. فظاهر البيت أن الجسم الناصل يهدو في ثوبه المخروق وكأنه يطل من غربال . وظاهر أن حافظا أراد أن يقول (وكأن عارى جسمه في ثوبه) ليستقيم التشبيه ويبدو جماله في إطاره، ولكن كلمة عاري نافرة فاضطر إلى استعمال كلمة ناصل، وهي غير ملائمة في البيت . والبيت السابق يبين المعنى المقصود :

لم يدر ناظره أعرىانا يرى أم كاسيا في تلكم الأسماء

وَكُلُّ فَاعِلٍ جَسْمَهُ فِي أَهْوَاهِهِ خَلْفُ الْخَرْقَ يَطْلُبُ مِنْ غَرْبَالٍ

ولعل حافظاً أراد أن يجمع بين النحو والعرى فاختلطت الصورة  
وتشوشت . وقد أسرف الشعراء قديماً في وصف الجسم الناحل ، وشبهه  
حافظ في نفس التصييدة بعود خلال . والجديد هنا هو تصوير الحقيقة  
الجردة على مثال شعراء الجاهلية والروائيين الغربيين فإن الصورة الواقعية  
أو صورة المؤس المادية أفعى في النفوس من آية صورة أخرى ، قال  
الإمام علي : " لو تمثل الفقر رجلاً لقتله " . وإنني لأذكر أنني خرجت  
ذات يوم أتريض ، وكان صباحاً ، فرأيت طلبة واقفين بباب المدرسة ،  
خانت مني التفاة إلى أحد هم فرأيت ملابسه بالية وأصبعه يطل من حذائه .  
فأحزنني ذلك المنظر الذي يقطع نياط القلب ، منظر العرى والبؤس .

قصيدة حافظ في رعاية الأطفال قصيدة إنسانية عالية ، تزخر بحقائق الحياة وصورها ، وهي من هذه الناحية تجديد وابتكار .

وقد نظم حافظ على أثر رحلته في إيطاليا وركو به البحر لأول مرة سنة ١٩٣٣ قصيدة طولية ليست سوى مقالة منظومة باستثناء بيتين فذين من خير ما جازت به قريحة الشعراء في ضآلة الكون :

أيها البحر لا يغرنك حول واتساع وأنت خلق كبير  
إما أنت ذرة قد حوتها ذرة في فضاء ربى تدور

هذا إن البيتان من الشعر الضخم الذي لا يطأوله شعر .

ولنا إذ نشكر وزارة التربية على عنایتها بطبع الديوان الذي ظهر في جرائين سنة ١٩٤٧ ، وإذ نشكر الأدباء الذين ضبطوه وصححوه وشرحوه على عنایتهم بتاريخ القصائد وذكر مناسباتها ، وهو ما لا تجده في ديوان شوقى أو مطران ، نعتب عليهم لأنهم لم يعنوا العناية التامة بالبحث عن كل شعر حافظ ، فقد نشروا له مثلاً في صفحة ١٠٥ من الجزء الثاني أحد عشر بيتاً فقط من قصيدة في شؤون مصر السياسية (قد من عام ياسعاد وعام ) نظمها في سنة ١٩٣٢ وكانت تبلغ مائتي بيت ، قال المازنى إنها من أجود وأرقن شعره .

وأذكر أن حافظاً إذ كان في دار الكتب أسمعني قصيدة طولية لم يعلق  
بذهني منها إلا قوله ( . . . الآحاد والجحا ) وهي ليست في ديوانه .

كما أني وجدت في أوراق المرحوم محمد رفعت ابن أخت حافظ  
حافظية لم تنشر في ديوانه قالها في رثاء الاشني عشر طالباً الذين أصبهوا  
في حادث القطار في إيطاليا :

قطف الموت بواكيزى	بحنى أحفل طاقات الزهر
وعدا الموت على أقاربنا	فتهادوا فمرا بعد فمر
في سبيل النيل والمعلم وفي	ذمة الله قضى الاشنا عشر
أى بدور الشرق ماذا فابكم	في مسار الغرب من صرف الغير
نب قطع أوصال المدى	وأصمّ السمع منا والبصر
كم بمحضر زفارة من حرها	كتنس الأعفر والطير وكر
كم أب أسوان دام قلبه	مستطير اللاب مفقور الظاهر
ساهم الوجه لما حل به	سادر النظرة من وقع الخبر
كم بها والدة والهبة	عضاها الثكل بناب فعقر
ذات نوح تحت أذيال الدجي	علم الأشجان سكان الشجر
تسأل الأطيار عن مؤنسها	كلما صدق طير واستحر

تسأل الأنجم عن واحدها كلها غور نجم أو ظهر  
تهب العمر لمن ينبعها أنه أفلت من كف القدر

\* \*

أى شباب النيل لا تقد بكم عن خطير المجد أخطار السفور  
إن من يعشق أسباب العلي يطرح الإحجام عنه والخذر  
فاطلبووا العسلم ولو جشمكم فوق ما تحمل أطواق البشر  
نحن في عهد جهاد قائم بين موت وحياة لم تقر

هذا شعر تبدو فيه ملامح شخصية حافظ كأنجيه . تغنى بشباب النيل ،  
ولطالما تغنى بمصر ومجدها :

ونف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد وحدى  
أنا تاج العلاء في منرق الـ شرق ودراته فرائد عقدي

ويعجبني قوله :

ورجالي لو أنصفوهم لسادوا من كهول ملء العيون ومرد معجزات الذكاء في كل قصيدة  
لو أصابوا لهم بحالا لأبدوا

وقوله :

كم بعثت دولة على وجارت ثم زالت وتلك عقبى التهدى  
إنى حرة كسرت قيودى رغم رقى العدا وقطعت قدى  
والقصيدة كلها على نمط واحد ، وهى في الظاهر من الشعر السياسى  
أو الاجتماعى ، ولكنها في الواقع أسلوب عال من شعر الحماسة ، شعر الغناء  
والوجدان ، شعر الحياة ، وسيبقى خالدًا ما يبقى في مصر قاپب يخنقق ، وشعب  
يسمو إلى العلiae .

وإنه ليطيب لنا في المنهى أن نذكر أن البارودى وشوقى وحافظ  
وشعراء مصر وكتابه وأدباءه جمیعا ولا يزال منهم أحیاء بیننا ، قد حملوا  
 بشجاعة الشعلة المقدسة التي أضاءت الرادى في عهد الظلام والاستعباد ،  
 وأن النهضة الفكرية التي أوجدوها من العدم في كبد ، وهم ناصب ، كانت  
 خير مقدمة لثورتنا المباركة .

ولا يزال صدى غنائهم يحدو الركب ، وإن غاب الحادى .



# هَمَاءُ هَمَاءُ

## لِرَسْتَمَارِ احْمَدِ حَسَنِ الرِّبَاطِ

ترى لو أنس حافظاً ورحة الله عليه تأنس به الزمن سبعين عالماً فظهور  
في أواسط هذا القرن لافي أوائل القرن الماضي ، أكان ذكره يرتفع هذا  
الارتفاع وذكره يحتفل بها هذا الاحتفال ؟

أغلب الناس أن حافظاً لو نشأ في هذا الجيل لكان له أصل غير هذا  
الأصل ، وتاريخ غير هذا التاريخ ، ذلك أن الصقرى ابن إقليمه رب بيته وزمانه  
وظروفه وأحواله ، فهو التي تعدد وتكيفه وتوجهه ، وتتيح له الفرصة  
ليصبح ، وتهيء له الأسباب ليتميز ، وتركز عليه الضوء ليظهر ، وعلى حسب  
هواملهما المختلقة الأثر في النهاية تكون طبيعة النبوغ ونوعه ودرجةه .  
فالناتج في شيء معين في زمن معين قد لا تهيئه له وسائل النبوغ فيه إذا تغير  
الزمن أو اختلفت البيئة . فالمتنبي مثلاً لو لم يظهر في القرن الهجرى الرابع  
إذ كان الملوك شعراء ، والوزراء أدباء ، والشعب من هف الحسن لروائع الأدب  
لم يملأ الدنيا ، ولا شغل الناس . وابن عرب لو عاش في غير عصره الذي  
كان يؤمن بالروح والإلهام والولاية ، والفناء المطلق في الله ، والتعبير  
المرتدى عن الحقيقة ، لعد في الحجازين لافي العباقة . ونابليون لو انبعث

من عصر الجواد والسيف إلى عصر العطاءرة والدبابة لما ألغت عبقريته الحربية عن قومه شيئاً في بور سعيد . وحافظ لو تأخر إلى هذا الجيل لا يختلف عما كان عليه في نمط حياته، ونوع ثقافته، وأوان تفكيره، وطبيعة قلمه، ولدي نبوغه . كان لا يشتهر مثلاً بابتكار النكت وجمع الأحاديث وحفظ الأشعار، لأن انزوع إلى هذا النوع من التأدب كان مقتصى الحال الاجتماعية زالت اليوم ، ولا مجال للسرور في قصور الملاوك ، ولا محافل للآدب في دور السادة . وكان لا يقتصر في ثقافته إلى علم الشاعر القديم لأن التكسب بالشعر أو بالمنادمة أصبح في رأي هذا الجيل بطالة لا تغنى من جوع ، أو كدية لا تليق برجل . وعلمه كان ينصرف عن الشعر إلى القانون أو الطاب أو الحرب فلا يقول إلا توجيه الفراغ أو تسليمة لهم، لأن مجتمع الجيل الجديد كان بجهله باللغة الفصحى، وزهده في الأدب الرفيع لا يجد جمالاً في شعره، ولا يلقى بالاً إلى إنساده . أما مجتمع الجيل القديم فقد كان إذا طلمعت نسماته ”المؤيد“ أو ”الأهرام“ حالمة الصدر بدلة من درر شوقى ، أو بقلادة من قلائد حافظ أنيبل عليها يقرأها بشغف ، ويتدوّقها بلذة ، وينقدوها بعلم ، ثم تضطرب بها الألسنة وتتحدث عنها الأندية فتفعل في نفوسه ما تفعله اليوم في نفوسنا : (يامه الأمر ع الباب) والجبلان الماضي والحاضر يتصلان ويتداخلان ويتعايشان ، واكتملما على الرغم من المدة القريبة ، والصلة الوثيقة يختلفان أشد الاختلاف في أحوال الاجتماع ، وألوان الثقافة .

كان جيل حافظ لا يزال يعيش على بقائه تخللت من تلك اليابسا الجميلة في الجماعات والأسر ، فالناس يجرون على أثر من خلال الفترة العربية ، يرثون للزدي ، ويتنافسون في المعرف ، ويهررون للبطولة ، ويطربون للبيان ويجيرون على الشعر . ومناظر الدور ، وأبهاء الفصوص تأخذ في كل مساء زخرفها من أسلل الأدب ورجال السياسة ، وأصحاب الجاه وأرباب الحكم . وكان مدار الحديث فيها على النكبة البارعة ، والخبر الطريف ، والمسألة الدقيقة والبلاغة المأثورة يتساقطها المساصرون على شخص المؤودة ووثوق الألفة فتفتق الذهن ، وتصقل الذوق ، وتوجه الميل ، وتنيل الحظوة . وكانت المawahب والملكات تفتح في جوانب هذه الأندية ، فتدل على نفسها أشد النفوذ فيقبلون عليها حتى تزهر وتتمر . وكانت النهضة الأدبية والحركة الفكرية يومئذ في طور الانتعاش تتحرّك اننمو والسمو على نفحات المرصفي والبارودي ، والأفغاني ، ومحمد عبده ، ومهمن ، ومحنة ، والشنبيطي ، واليازجي والموياحي ، ونديم ، وسعد ، وفتحي ، وقاسم ، ومصطفى . فالمجالس تشيع حر الكلام والصحف تذيع بارع النقد ، والخدابون يتذدون من الأدباء ندائى ومن الشعراء بطانة ، حتى قررت في نفس حافظ وأنداده أن الأدب كان سبيلاً للثراء لليثي ، وسبباً للمجد للبارودي ، ووسيلة لزلفى لشوقى ، فتجهزوا لهذه الغاية بجهار هذه البيئة ، فرووا رقائق الشعر ، وجمعوا مقطوعات الأحاديث وراضوا أنفسهم على معاناة الفريض . وكان قادة الفكر والبيان في ذلك

الجيل من شيوخ الأزهر ودار العلوم ومن تخرج على أيديهم في مدرسة الحقوق ومدرسة القضاء ومدرسة المعلمين العليا، وكانت ثقافتهم تقوم في الأغلب على الدين واللغة والأدب، فهم يتعمقون القواعد، ويؤثرون الفصحى، وكان تراثهم في المدن والقرى من طلاب الأزهر، وحفظ القرآن فورهم يؤمنون بالكتاب، ويطربون للأسلوب العربي الخالص. أما الجيل الحاضر فخلافة الأول فيه أنه جيل اللغة العالمية، والثقافة الأجنبية، والتحرر من قيود البلاغة في النثر والمحاجة من حدود العروض في الشعر، والاتجاه إلى أدب وفسي متطرف يكلم الشعب بلغته، ويصوره في ميادنه ويفتنه عن حبه الفريزى لحسن العرض وجمال الأسلوب. فإذا كنتم تظنبون أئمـا السادة أن يكون مهـماـ حـاجـلـ أو أـنـهـ عـشـ فيـ هـذـاـ الجـيلـ، وـعـنـتـهـ الـكـبـرـىـ هـىـ الصـيـاغـةـ؛ وـطـرـيـقـتـهـ الـثـلـىـ هـىـ الـبـلـاغـةـ؟

ولد "شيد حافظ" في السنة السابعة من القرن التاسع عشر بذهبية كانت راسية على ساحل دير وط بالصعيد الأعلى يهيم فيما أبوه المصري العجمي "إبراهيم فتحى" مهندس الرى المشرف على القناطر، وأمه التركية الأصل السيدة هانم البورصليه، فكان أول ما فتح عليه عينيه من صور الدنيا نهرنا الحالـ. فـتـلـقـيـهـ بـذـلـكـ بـشـاعـرـ النـيلـ تـلـقـيـبـ هـيـادـقـ يـسـتمـدـ صـدقـهـ منـ النـفحـاتـ الشـعـورـيـةـ الـأـولـىـ فـهـذـهـ العـوـامـةـ، ثـمـ منـ التجـارـبـ الشـعـرـيـةـ الـتـىـ اـسـتـجـابـتـ لـهـ قـرـيـحـتـهـ فـيـ الـقـاهـرـةـ. وـظـلـ مـهـدـهـ القـائـمـ بـيـنـ المـاءـ

والشجر محفوفاً بمظاهر الحنان والنعم أربع سنوات ، ثم بفuje المولت في أبيه ، فانتقلت به أمه إلى القاهرة ، ونزلت في حي المغاربين على أخيها محمد الفهدى نيازى المهندس بمصلحة التنظيم ، وليس في يدها مال موروث من الزوج ، ولا في أملاكها معاش مقرر من الحكومة . ومنذ يومئذ صرف الصافل الفريز معنى البؤس ، فاغبر لون الوجود في عينه ، وتفه طعم العيش في ذوقه ، وباشت علامي اليتم على ملبسه وملاببه ومكتبه ، فكان في مرحلة التعليم الأولى بالمدرسة الخيرية بالقلعة ، وفي مرحلة التعليم الابتدائي بمدرسة القربيبة بتحت الربيع ، وفي مرحلة التعليم الثانوى بالمدرسة الخديوية بدور الجماميز بكلابذ ذل الحرمان كلما وجد أكثر رفقاء يطربون فيجادلون ويشهرون فينالون ، وهو إذا اشتهر طاب من أمه التي لا تملك أو من خاله الذى لا يوجد .

ثم تدخل القدر في حياة سافر ليتحول مجرداً إلى الوجه الذى قسره ، فلوله من القادر والمدرسة الخديوية والوظيفة الحكومية إلى طنطا والجامعة الأحمدى والبطالة الأدبية ، ولو أن خاله استقر في القاهرة لزال حافظ شهادة الدراسة الثانوية ، وابتغى بها العيش في ضياع الحكومة وانتهى أمره إلى أن يصير عبداً للرسوم الديوانية والصيغ التقليدية لا أميراً للشعر ولا زعياً للكتاب ، ولكنه انتقل إلى مثل وظيفته في عاصمة الغربية فلا يجد حافظاً في طنطا مدرسة ثانوية ، ولم يجد في مرتب خاله فضلاً

يعيش عليه في القاهرة ليتمن دراسته في الحديوية ، فانقطع عن الدراسة وأخلد إلى البطالة وأخذ يرود المجالس ويعشى ، الأندية حتى اتصلت به وبين شدة الأدب من طلاب المهد الأحمدى أسباب المودة ، فأجروه على منهاجهم في الدرس ، وأعدوه من ولوعهم بالأدب ، فاختلف معهم كل يوم إلى حلقات الجامع الأحمدى يشاركون في درس النحو والصرف ثم ينفرد عنهم بالنظر المنصل في دواوين الشعراء يقرأ منها الحيد ، ويحفظ الأجدود ، وينظم على مثال ما حفظ في البحر والقافية والموضوع ، فإذا لقى إخوانهم في مجتمعهم في المدينة ، أو بمتزههم في الضاحية أمعتهم بالعجب المطرب من حفظه ، وأسمعهم الجيد المختار من نظمه ، وكان من هؤلاء الإخوان المؤرخ الأديب المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار فوصف لقاءه الأول لحافظ يقوله : عندما عدت من القرشية إلى المعهد بطنطا في شعبان من سنة ١٣٠٥ هـ أبريل سنة ١٨٨٨ رأيت إخوانى وأصدقائى يلوذون بفتن غض الإهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه ، وتقديمه إلى باسم الأديب الشاعر محمد حافظ ابراهيم ، ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست من نفسى ميلاً إليه بمحاذب من الأدب الذى نهمه نفسى حتى آلت ذلك إلى غرام بأدبه وما اشتمل عليه من ظرف ولطف محاضرة ومطالعة بديبة ، وحضور نادرة ، وقد قضينا رمضان

هذه السنة نصلى المغرب والعشاء والتراويح معاً ، ثم ثلبث في سهر ممتع ومطارحة للشعر، ومذاكرة في نوادر الأدب ، وما كان يطوفني به مما يقف عليه من حيد القرىض ، إلى أن يأتي وقت السجور ، ثم نعود بعد السجور إلى ما كان فيه إلى انشاق الفجر فنؤديه ، ثم نخرج بغلس إلى خارج المدينة ثم نعود وقد آذنت الشمس بالطلع فنذهب كل منا إلى بيته ” .

وظل حافظ على تلك الحال سنة أو تزيد يقرأ ويحفظ ويحاكي لا يتنى بذلك بناء مستقبله ولا ضمان رزقه ، وإنما يتنى به تلك اللذة المجردة التي يجدها عشاق الأدب في مطلق الهيام به والغناء فيه ، وهذه الحال الباهلة لازمت الشاعر طول عمره فلم يزاول عملاً عن رغبة ، ولم يتحمل مسئولية عن إرادة . ونفوره من العمل كان أثراً لنفوره من الحياة ، ونفوره من الحياة كان أثراً للعش الذي تقوض وهو طفل ، ولعيشة الذي نبا وهو غلام ، والمظنون أن حاله وهو ولد أمره ومسدد خطاه قد حاول أن يعالج فيه هذه الحال ليضمن لأخته الأمان في كنف وحيدها أو أنه نجح في صفتة أو وظيفته ، ولكن روح الاستهتار التي استبدتها حافظ من أرواح الشعراء البوهيميين الذي اضطربوا في حضارة العصر العباسي من غير نظام ولا قيد ولا غاية أصمت أذنيه عن النصح ، وشلت يديه عن

العمل . وكان من الطبيعي أن يضيق به حاله ويزوّى عنه وجهه . ورأى من حاله هذا الإعراض فتزازعه خواج لتم من تم و عدم ، وهو ان نفس وسوء حال ، فكتب إلى نيازى أفندي هذين الربيتين :

ثقلت عليك مؤونتي وأنا أراها واهية  
فأفرح فإني ذاهب متوجه في داهية

والبيان من ركك الشجر ، ولكن في قوله ”متوجه في داهية“ أثرا من خفة ظله وعذوبة روحه . وكانت الداهية التي توجه فيها حافظة غرفة أحد إوانه المجاورين في الجامع الأحمدى فأقام منه زمنا . وكان شعوره الساذج في هذه الفترة يترجم عمما يكابد في صدره من لوعة الأسى ، وبغض الخيانة . من ذلك ما رواه رفيقه الشيخ المنجار ، وهو قوله :

عجبت لعمري كيف مدد فطلا وما أثرك فيه المهموم زوالا  
وللبوت مالي قد أراه مباعدا وجل صرادي أن أؤسد حالا  
فالموت خير من حياة أرى بها ذليلا وكنت السيد المفضل

ثم ترضاه حاله فعاد إلى داره ، وكان وجود أمه فيه ، وزرارة حاله عليه قد حرّك في نفسه الخاملة عزم الشباب وطموح الرجولة ، فعنزم على أن يسمى لعيش المستقل الحر . ونظر فيما يملك لهذا السعي من وسائل فلم يجد خيرا من وسيلة البلاغة فاختار المحاما . وكانت المحاما يومئذ مفتتحة

الأبواب لكل داخـل مـا داـم طـلق الـأـنسـان حـاضـر الـبـديـهـة وـاسـع الـحـيـلـة ،  
فـدـخـلـهـا مـن بـاب سـعـد وـاهـلـيـاـوـي وـأـبـوـشـادـى وـحـسـن عـبـدـالـقـادـر . وـكـان  
أـوـلـ مـكـتـبـ اختـارـه لـلتـعـرـيـن مـكـتـبـ الشـيـخ مـهـدـ الشـيـمـى بـطـنـطـا فـبـدـأ بـداـيـة  
حـسـنـة ، ثـمـ اـخـتـافـ معـ الأـسـتـاذـ عـلـىـ الأـجـرـ بـعـدـ قـاـيلـ ، فـتـرـكـهـ بـعـدـ أـنـ تـرـكـهـ  
هـذـيـنـ الـبـيـتـيـنـ :

جرـابـ حـظـىـ قـدـ أـفـرـغـتـهـ طـمـعاـ بـبـابـ أـسـتـاذـناـ الشـيـمـىـ وـلـاـ عـجـباـ  
فـعـادـ لـىـ وـهـوـ مـلـوـءـ فـقـاتـ لـهـ مـمـاـ ، فـتـالـ مـنـ الـحـسـرـاتـ وـاحـرـيـاـ  
ثـمـ اـنـتـقلـ إـلـىـ مـكـتـبـ الـحـامـىـ النـابـهـ مـهـدـ أـبـوـشـادـىـ فـأـجـلـ قـدـرهـ ، وـرـفـعـ أـجـرـهـ  
وـلـكـنهـ لـمـ يـابـثـ أـنـ تـحـولـ عـنـهـ إـلـىـ مـكـتـبـ عـبـدـ الـكـرـيمـ نـهـيـمـ فـيـهـ مـدـةـ  
ثـمـ أـدـرـكـهـ الـمـلـالـ وـعـضـهـ الـقـيـدـ ، فـهـيـجـرـ الـمـحـاـمـةـ وـتـنـادـيـزـجـيـ وـقـتـهـ بـالـتـأـوـبـ وـالـمـطـيـ  
وـيـقـضـيـ يـوـمـهـ فـيـ التـائـيـ بالـشـعـورـ ، وـالتـيجـنـ عـلـىـ الـقـدـرـ . وـكـانـ الـمـحـاـمـةـ هـيـ  
سـبـيلـهـ الـقـصـدـ إـلـىـ الـثـرـوـةـ وـالـشـهـرـةـ لـوـلـاـ ماـ رـكـبـ فـيـ طـبـعـهـ مـنـ ضـيـفـ الـاحـتـالـ  
وـلـزـومـ الـقـلاقـ .

\* \* \*

وـتـحدـثـ الصـحـفـ وـالـنـاسـ عـنـ المـدـرـسـةـ الـحرـيـةـ فـيـ نـظـامـهـ الـجـدـيدـ  
فـوـقـ فـيـ نـفـسـ حـافـظـ أـنـ يـدـخـلـهـاـ لـيـخـفـفـ النـفـقـةـ عـنـ خـالـهـ ، وـيـضـمـنـ الرـزـقـ لـهـ  
وـلـأـمـهـ ، ثـمـ تـخـرـجـ فـيـهـ سـنـةـ ١٨٩١ـ وـقـضـيـ فـيـ الـجـيـشـ نـلـاثـ سـنـينـ وـبعـضـ

السنة . ثم نقل إلى العمل في البوليس ببني سويف ، إذ كان المتبع قبل إنشاء مدرسة البوليس والإدارة أن يأخذ من الحرية الداخلية . ولم يلبث ملاحظ البوليس أن برم كعادته بالعمل ، وضيق ذرعاً بالنظام ، فأخذواه وجلبه الخطأ ، واستسلام واشتد عليه اللوم فلم يجد البوليس بدا من إعادته إلى الجيش بعد حادثة رواها هو عن نفسه قال : " كنت فاما في بيتي وإذا برسالة من شيخ البلد في قرية من قرى الشرقية لعلها الابراهيمية تقول : وقع حائط وزدت أرواح . فانقلت بهمس من الليل راكباً جوادى حتى وصلت إلى القرية ، وراغبى أن وجدت جداراً قد انقض حقاً وقتلت تحته ثلاثة دجاجات . قلت لشيخ البلد أين الأرواح التي زدت : فنال متلهمها : والله يا سيدي أنا تساخت مع نسائي فلفت بالطلاق لأحضر البوليس هنا . وأخذت أتمس الوسيلة إلى ذلك حتى علمت أن حائطاً سقط وما تتحته ثلاثة أفراخ ، فأرسلت هذه الرسالة لسرع إلينا البوليس وأبر بالقسم العظيم . فقلت له وأنا أكاد أتميز من الغيظ : والله لنكونن روحك إحدى الأرواح التي زدت كما زعمت ، وانهلت عليه ضرباً حتى كاد ينفق .

وعاد حافظ إلى الجيش ليحال إلى الاستيداع خمسة أشهر : ثم عاد إليه ثانية لينقل إلى السودان فيقضى به أربع سنين تحت قيادة عدوه كتشنر . وهذاك وجد الفرصة ليستغل في نفسه براعة المحمى ، وبالغة

الخطيب ، فكان يدافع عنمن يقدم من الضباط إلى المجالس العسكرية الانجليزية . وفي خلال ذلك كن يؤثر نار الفتنة في الجيش حتى ثار الضباط المصريون على رؤسائهم من الانجليز سنة ١٨٩٩ فاتهم بهذه الثورة هو وثمانية عشر ضابطاً أحيلوا على الاستيادع ، وظل الضابط الناير مستودعاً ثلاثة أعوام ونصف عام ، ثم خرج على المعاش في سنة ١٩٠٣

\* \* \*

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة النابية المبهمة لا يستريح لعمل ، ولا يستقر على أمر ، ولا يتشوق إلى غاية . وظن أن الشهروحدة يشغل الحياة ويُبسط الرزق ويُكسب الحقوق ، فعاش عيش مسلم بن الوليد وأبي نواس وأضرابهما من قضاها أعمارهم صنائع للملوك ، ووسائل للهوى ومحاباً على الجوائز ، فأبي الوظيفة وآثر أن يحيى في ظلال الإمام محمد عبده يلتقم بجاته ويفيء إلى رفده ، ويغشى مع ذلك أبهاء النعمة يسامح أهلها بعذب حديثه ويناديه برقيق شعره . ثم يتطلع الحسين بعد الحسين إلى صلات القصر فيحججه عنها شوقي شاعر الأمير بحوله وطوله . ومن دأب الشعراء الكاسبين بالشعر أن يبذروا إلى حد السفه إذا عاشوا للحاضر ، كصربي الغواني وابن دانى وأن يفتروا إلى حد الكرازة إذا عاشوا للمستقبل كأبي العتايبة والبحترى . ومن الأولين كان حافظ . تمتلء يداه بالمال اليوم فتعتريه حال من الضجر والقلق لا ينفك عنه حتى يتلفه كله قبل الغد

على أخوانه الكثرين من طرائد البؤس وصرعى الأدب كلام العبد وخليل نظير، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكى في لئوم الزمان، وظلم الإنسان، وشقاء الأديب. كان حافظ يطلب الثروة على قدر طموحه، والحظوظ على قدر نبوغه. ولكنه طالبها من طريق الحق الذي يدعوه كل شاعر على الناس، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل انسان إلى المجتمع. لما أخفق بالطبع لم يرد أن يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور، وإنما ارتد ارتداد الأنوف المحتج إلى الفلاحة الشاعرة الصابرة يحمل بؤسه على حرفة الأدب كما يحمل المؤمن رزاه على حكمة الفنار، ثم عاش عيش الطائر الفرد، عمره ساعته، ودنياه روضته، وشر يحيته طبيعته، ودأبه أن يطير في الغيم والصحو، ويسعد في الطرب والشجور، ثم يمقط على الحب أيها انتشار.

فلم يعطف عليه الوزير الأديب أحمد حشمت فأكرمه سنة ١٩١١ بالعمل في دار الكتب رئيساً للقسم الأدبي، وأُجْزِل له المرتب طمعاً في مواهيه وثواباً على فضله حمل الوظيفة على محمل المكافأة الواجبة، وظل أكثر النهار قاعداً في قهوة المكتبة، فإذا طلب إلى الدار لعمل تقتصية الرياسة قال للحرسون: «إذا سأله عن واحد. قل له راح المكتبة شوية وجاي».

ولقد كان من جريرة هذه الحياة التي حببها حافظ أن شغلته عن الدرس والقراءة ، فلم يتكلل بثقافة ، ولم يتعمق في فلسفة . كان يترجم رواية مكث لشكسبير فدعى صرفاً ليحاضر في نادي المدارس العليا ، وهو يومئذ مجتمع الشباب الصالح المنافق فقام فأناشدتهم بعض ما ترجم نظاماً عن شكسبير ، ومثله تمثيلاً أفرغ فيه جهده فأطرب وأعجب ، ثم سأله الحاضرة فأخذ ياتي عليهم من نوادره حتى مضى الوقت ولم يقل شيئاً .

كذلك كان من جرائر هذه الحياة عليه أن أنهما في نفسه معنى المنزل ، ونحمد في حسه شعور الأسرة ، وذوى في قلبه حب المرأة ، فلما أحلت عليه أمه أن يتزوج بعد عودته من السودان سنة ١٩٠٦ بني باصأة من حى عابدين ، وحاول أن يصبر نفسه على حياة الزوجية فلم يستطع الصبر إلا أربعة أشهر تم طلاقها . وسائل حرة هل أحب ؟ فقال : النساء اثنان جميلة تنفر من قبحي ، ودمينة أنفر من قبحها . ولذلك جف في شعره ينبوع هذه العاطفة فلم يقل في النزل شيئاً يذكر .

\* \* \*

كان حافظ منذ أدرك مطبوعاً على اليتم لا يعرف إلا أنه ابن القدر .

ومع ذلك كان خلطاً يرون على وجهه لوناً من الرضا لا يتغير إلّا في نعيم ولا بؤس . ومن عجيب الأمر في هذا اليتم الحزين أنه كان قوي الملكة

في فن الضحك . كأن الله عوضه من أضوبي معاناته في قابله فيضان  
اللغاظة على لسانه .

فالمحروف أن نبوغ المصري في ابتكار النكحة وابتهاج الضحك إنما  
كان تفوياً لها من الكروب التي كايدتها في عهود الطغيان والموتى والذل .  
كان حافظ يقصص على النواادر والفكاهات من مظاهرها في الكتب ورجال  
الأدب وأهل المجون ، فإذا قصها على من يجالسه زاد في أسلوبها أسلوبه  
دو ، وجعل يقللها ويتصرف فيها ، ويبيّن عنها بمنطقه وجهه ، ونبرات من  
لسانه ، وحركات من يده . وهو في غزارة محفوظه من الطرف والأشعار  
والأسماء أوحد الناس بالإجماع . حدثني المرحوم "الرافعى" أنه اجتمع  
في سنة ١٩١٣ بحافظ على مائدة مدير الغريبة محمد محب ، فلما مدت الأيدي  
إلى الطعام قال له المدير : لي عليك شرط يا حافظ ، قال ما هو ؟ قال :  
كل لفمة بنادرة ، فتمل وجهه وقال لك على ذلك . ثم أخذ يقص  
ويأكل والعشاء حافل ، وحافظ كان نهما فما فات طبع ولا أخل حتى وفي  
بالشرط .

وتقى ذكرنا يوماً كثرة ما كان يحفظ من الشعر فقال الرافعى : نشرت  
مصاحف الشرق في سنة ١٩٠٠ قصيدة من مطولات ابن الروى . وكذا يوم  
صدورها في مجلس يضم حافظاً وبعض الأدباء فتجيب الشيخ محمد المهدى

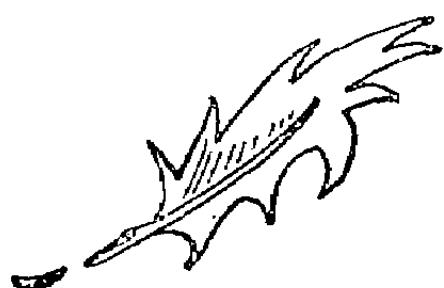
أستاذ الأدب في دار العلوم من بسطة ابن الرومي في قرافيه . فقال له حافظ هلم نتساجل في هذا الوزن حتى ينتفع أحدهنا ، وكانت القافية من وزن : قدرها ، أحمرها ، أكبّرها ، وجملات أنا أحصى عليهم ما فلما ضاق الكلام كذا . الشیخ المهدی بفسکر طو يلا ثم ينطى باللفظ . ولا يمكن يفعل حتى يرمي حافظ على البدایة ، فيعود الرجل إلى الإطراف والتفكير حتى انقطع أخيرا وبقى حافظ يسرد له ما يحفظ من هذا الوزن على هذه القافية .

\* \* \*

### سيداتي ، سادتي :

عاش حافظ زهاء اثنين وستين سنة كانت نوما مضطربا من غير حلم ، أو كما قال هو : كانت حلاما من عجا من غير نوم . فلما أوى في الثالث الأخير من حياته إلى كنف الأمان من منصبه في دار الكتب استراح للنفس واستقام للدّعّة ، وأعني قريحته من قول الشعر فلم ينظمه إلا مدفوعا إليه حينها بعد حين . كان همه كله في الحديث يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة ، ويتهىأ لياله من مجلس إلى مجلس . وأينما يكن يكن الأنس الشامل ، والظرف الناصع ، والأدب النض ، والحديث الذي يتمترج بالروح ، ويغمر بالنشوة جوانب النفس . كان يعيش بعد خروجه من الجيش مستقلًا مع أمّه ، فلما توفيت سنة ١٩٠٨ عزد إلى الجيش في بيت خاله . ولما توفي خاله ظل يعيش مع زوجته السيدة عائشة ،

يقوم على رعايتها بإنفصال ابن البار، وتقوم على خدمته بمنان الأم الرؤوم حتى شارفت حياتهما الأجل الموقوت فتوفاها الله سنة ١٩٣٩ وتوفاه بعدها بثلاث سنين. وكانت هذه السنوات الثلاث عكارة العمر وصباية الكأس، تجمعت فيها وحشة العيش بعد أن خلت دنياه من أمها وخاله وزوجة خاله، وهم الثلاثة الذين لازموه طول العمر، وشاركونه في الحلو والمر. وانضوى فيها إلى حزب الوفد وانقطع إلى الزعيم سعد، فأطلق لسانه بالسوء في رئيس الحكومة إذ ذاك اسماعيل صدقى، فأنحرج من وذلة دار الكتب سنة ١٩٣٢. وترادفت عليه بمنان الأمراض، فأصبح لا يشتهر الطعام ولا يستلذ الشراب، ولا يجد الراحة إلا في منزله الصغير بضاحية الزيتون. وفي السنة الخامسة من صباح يوم الخميس الحادى والعشرين من شهر يوليو بعد خروجه على المعاش بأربعة أشهر ونصف شهر انتقلت روحه إلى الخلود وبقيت ذكرى له ولهمود.



# الْمُرْكَبُ الْعَرَبِيُّ فِي شِعْرِهِ وَفِي لِأَسْتَاذِ شَفِيقِ جَيْمَلِ مُحَمَّدِ سُورِيٍّ

---

قدم حافظ إبراهيم دمشق الشام سنة ١٩٢٩ فاحتفى به المجمع العلمي العربي ، وعاق على صدره وسام الاستحقاق السوري وهو ينشد هذين البيتين :

شَكَرْتُ جَيْمَلَ صَنِعَكُمْ بِدَمْعِي وَدَمْعُ الْعَيْنِ مَقِيَاسُ الشَّعْوَرِ  
لِأَوَّلِ صَرِّي قَدْ ذَاقَ جَفْنِي عَلَى مَا ذَاقَهُ دَمْعُ السَّرَّوْرِ

وَقَالَ الشَّعْرَاءُ فِيهِ قَصَائِدُهُمْ وَأَذْكَرَ أَنَّ مِنَ الشَّعْرِ الَّذِي قِيلَ فِيهِ :

أَرَى رِجَالًا عَلَى الْأَهْرَامِ دِيدَنْهُمْ	حَلَّ الْأَوَاصِرُ مِنْ طَى وَشِيبَانِ
تَنْكِبُوا عَنْ صَمِيمِ الْعَرَبِ وَاعْتَصَمُوا	بِجَمِيلِ رَمْسِيسِ أَحَدَانَا بِأَحَدَانِ
أَعْيَدُوهَا خَطَرَاتٍ مَلَؤُهَا مَضْضٌ	أَنْ تَهْدِمَ الشَّرْقُ أَرْكَانًا بِأَرْكَانِ
مَضَى عَلَى هَذَا الشَّعْرِ ثَمَانِيَةٌ وَعَشْرُونَ عَامًا فَبَدَلتُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ	وَالسَّمْوَاتِ .

من شهرين سألتهى السفارة المصرية في دمشق أنت أذكر لها عنوان الموضوع الذي وقع عليه اختياري في مهرجان حافظ إبراهيم وعرضت على الموضوعات التي اختارها أستاذة مصر الفضلاء في المهرجان، فقلت للذى كان يفاوضنى في هذا الأمر<sup>(١)</sup>: لم يبق لي فضلاء مصر أفقاً أجول فيه، فهم لم يغادروا من متقدم ، فقال لي : عليك التزعة العربية في شعر حافظ ، فوقع هذا الاقتراح مني موقيعاً حسناً ، وأنا لم أنظر إليه لأنه نجاني من ضيق واكفى نظرت إليه من وجه آخر ، قابلت بين هذا الشعر الذي قيل في حافظ من ثمانية وعشرين عاماً في دمشق ، وفيه عتاب مصر بسبب زهدها في القومية العربية وبين قول السفارة المصرية : عليك التزعة العربية في شعر حافظ وفيه اهتمام بهذه القومية ، قابلت بين هاتين الفكرتين ، فعجبت من تغير العصور ، عصر تكاد مصر فيه تزهد في التزعة العربية وعصير تهرب فيه مصر لذكير بلاد العرب بهذه التزعة ، والحضور على الأخذ بأسبابها والاستمساك بالعروة الوثقى من القومية العربية ، والإيمان بقوتها هذه القومية وبمحاسن آثارها في نزاع العالم ، ولا أدل على هذه القوتها من تصافر العرب يوم "بور سعيد" وما أدى إليه هذا التصافر من نصر مبين .

(١) الصديق "الكرم السيد أحمد فتحي رضوان" مستشار السفارة وهو أقدر من عرفت على فهم دقائق الأمور في سوريا .

فهل ارتجلت فكرة القومية العربية ارتجالا في مصر وفي شعر حافظ إبراهيم ، ليس في الطبيعة إنقلابات تفاجئ العالم مفاجأة ، فما حدث على وجه الأرض من الانقلابات في خلال العصور إنما كان نتائج علل بطبيعة في سير ما متى ظهرت في عملها ، فقد تحول مجرى البحار ، وقد ينحدر الجبلين من أعلىيه إلى السهول دون أن تشعر بهيجان البحار و جماح الجبلين ، وما يجري في الطبيعة يجري في المجتمع ، ولكن على تفاوت بين سرعة وسرعة .

لم ترتجل القومية العربية في مصر وفي شعر حافظ ارتجالا ، وإذا رجعنا إلى طائفتين من أمهات الفكر والشعر وجدنا أنهم بعثوا في أشلاء القرن التاسع عشر والقرن العشرين هذه القومية من مدافنها ، وتنفسوا بحضا العرب ودلوا على روائع آثارها ، وعلموا الناس أصول الحرية والاستقلال ، فإذا رجعنا إلى هذه الطائفتين من الكذاب والشعراء وأينا أن كتاباتهم وقصائدهم مليئة بالقومية فلم تصن بلاد العرب بخفة إلى حريتها واستقلالها في هذه الأيام وإنما مهد لهذه الحرية وهذا الاستقلال ردحا من المده حتى اختارت فكرة القومية في الأذهان ونضج الشعور بها في القلوب ، فلما أمكنت الفرص اغتنمتها بلاد العرب ولم تضع منهازها .

فلنبادر بعد هذه المقدمة الوجيزة إلى التتبع من نزعة حافظ العربية .

لست أحاول أن أضيع في شعر حافظ بين نزعاته العربية المشتقة  
في تضاعيف هذا الشعر، وإنما حسي أن أحترم بواحدة من هذه النزعات  
بكلاد يظهر فيها الصفاء في أوضاع مظاهيره :

جوانب الشرق رغداً من أيامها  
عواها على دولة بالأنس قد ملأت  
كم ظلمتها وحاطتها بأجنحة  
عن أعين الدهر قد كانت توار بها  
من العناية قد ريشت قوادمهما  
ومن صميم التقى ريشت خوافيها  
والله ما عالمها قدماً وكاد لها  
وأجتث دوختها إلا موالاتها  
لو أنها في صميم العرب قد بقيت  
لما نعاها على الأيام ناعيها  
ياليتهم سمعوا ما قاله عمر  
والروح قد بلغت منه تراقيها  
لا تكثروا من مواليكم فإن لهم  
مطامها نسبات الضعف تخفيها

نلمح في هذه الأبيات القوية إخلاص حافظ للعرب حبه، فكأنه يريد لها  
دولة عربية لا أثر لاجئي فيها لأنه يعلم أن نكبة العرب في كل دهر،  
في قديمه وحاليه كانت على أيدي الأعاجم، ففي القديم قتلوا عمر وكانوا  
سبباً في تهريم بنى أممية وأضعاف بنى العباس؛ وفي الحديث وقفوا في سبيل  
حرية العرب واستقلالهم، وما زالوا يتذرون هذا الموقف نفسه.

لا أحاول أن أضيع بين هذه النزعات الصافية الخالصة وإنما أحبس  
قولي على نزعتين منها وكأنهما زينة شعر حافظ العربي ورونق قلبه

العربي، وأريد بهما تغنيه بوحدة العربية وبلغة العرب، ففني هاتين النزعتين  
يظهر حافظ في حقيقته، لا يؤثر فيها بعض دمه التركي؛ وإنما ينفع  
عنه كل أثر غير أثر العرب وظاهر في روحه العربية وقلبه العربي وشعوره  
العربي.

فيظن حافظ ابراهيم إلى منزلة الشاعر في جمع الأهواء والتأليف بين  
القلوب فاستخدم شعره في هذه الغاية النبيلة.

لقد وقع بعض الحفاء بين المصريين وبين طائفة من الشاميين المقيمين  
بمصر، وأشار إلى هذا الحفاء أحد الكتاب الذين عاشوا في مصر في أوائل  
القرن العشرين وأيد ذلك قول حافظ :

لولا رجال تغالوا في سياستهم     منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا  
فعم جماعة من السورين على تكرييم حافظ في فندق «شبرد» فعمل  
حافظ قصيدة : سوريا ومصر وأنشدتها سنة ١٩٠٨

لم يقع حافظ في مصرية الضيق، فقد كان يعلم أن هذه اللغة التي ينطق  
 بها ثمانون مليون عربي جديرة بأن يستخدمها هو وأمثاله من الشعراء  
 في جمع هذه الملايين المتباينة على بقاع واحد من الأرض. بدأ بالتأليف  
 بين مصر والشام لأنه كان يعلم حق العلم كثرة التشابه بينهما فقد كانت  
 أقدارهما على نحو ما ذكره أحد المؤرخين «واحدة في عهد الدول الإسلامية

وحياتهما الاجتماعية متجانسة . هكذا كانت مصر والشام في دولة الراشدين والدولة الأموية فالعباسية فالطغرلوبية فالفااطمية والأيوبيّة، فدولة الأتراك والماليك، فدولة الحِراكسة، فدولة الترك العثمانية . وكانت مصر منبعث حضارة في معظم أزمانها كما كانت في العقود الأخيرة من حياتها ملحاً ومتصرّلاً للأحرار، ومباعدة ممتازة للعلم الإسلامي تأخذ عنها الأقطار والأمصار » .

عرف حافظ إبراهيم هذا كله ، وعرف أن الشعر إنما هو أقدر الصيغ على نزع البغضاء من الصدور والقاء الحبّة في القلوب فقام قصيدة :  
لمصر أم لربوع الشام تنسب     هنا العلا وهناك المجد والحسب  
وأشار فيها إلى اشتراك هذين القطرين العظيمين في تاريخ واحدٍ وآلام واحدةٍ وحبٍ واحدٍ :  
إذا ألمت بوادي النيل نازلة     باتت لها رasicيات الشام تضطرّب  
وإن دعا في ثرى الأهرام ذو الْمِ     أجا به في ذرا لبناء منتخب  
لو أخلاص النيل والأردن ودهما     تصاfähت منها الأمواه والعشب  
ولم يبالغ حافظ إبراهيم في تصوير هذه الصلة المستحکمة بين مصر والشام من قديم الدهر ، وإذا أردنا برها على هذه الصلة الروحية وجدها في اضطراب الشام يوم بور سعيد الأخير .

وكان حافظاً لم تنفع غايله هذه النفحـة السـاوية الـأـلـفـ بها بين مصر والشـام وأـحـبـ أن يطلع على العـربـ بـنـفـحةـ أـوـسـعـ مـدـىـ وـأـبـعـ مـذـهـبـاـ أوـحـثـهاـ إـلـيـهـ دـيـارـ الشـامـ لـمـاـ قـدـمـهـاـ بـعـدـ وـاحـدـ وـعـشـرـينـ عـامـاـ ، فـاـذـكـرـهـ الشـامـ ، لـقـدـ ذـكـرـتـهـ بـنـيـ أـمـيـةـ وـمـاـ اـشـتـهـتـ عـلـيـهـ خـالـقـهـمـ منـ الـحـامـدـ الـتـيـ لـاـ تـبـلـ :  
أـبـتـ أـمـيـةـ أـذـ تـفـنـيـ مـحـامـدـهـ عـلـيـ المـدـىـ وـأـبـيـ أـبـنـاءـ غـسـانـ

فـهـنـ غـطـارـفـةـ فـيـ جـلـيقـ نـجـبـ وـمـنـ غـطـارـفـةـ فـيـ أـرـضـ حـورـانـ عـافـواـ الـمـذـلـةـ فـيـ الدـنـيـاـ فـعـنـدـهـمـ عـزـ الـحـيـاةـ وـعـزـ الـمـوـتـ سـيـآنـ لـاـ يـصـبـرـوـنـ عـلـىـ ضـيمـ يـحـاـولـهـ باـغـيـهـ مـنـ الـإـنـسـ أوـ طـاغـيـهـ بـخـانـ

فـكـاـ اـتـسـعـ أـوـقـ شـوـقـ فـيـ نـزـعـتـهـ الـعـربـيـةـ بـعـدـ زـيـارـتـهـ الـأـنـدـلـسـ وـمـلـءـ خـاطـرـهـ مـنـ آـثـارـ الـعـربـ فـيـ هـذـهـ الـجـنـةـ الـخـضـرـاءـ ، فـكـذـكـ اـتـسـعـ أـنـقـ حـافـظـ فـيـ هـذـهـ الـنـزـعـةـ بـعـدـ زـيـارـتـهـ الشـامـ ، لـقـدـ أـوـحـتـ الـأـنـدـلـسـ إـلـىـ شـوـقـ شـعـراـ تـأـجـجـتـ الـقـوـمـيـةـ فـيـ قـلـائـدـهـ فـقـالـ فـيـ دـمـشـقـ فـصـيـدـتـهـ الـخـالـدـةـ :  
بـنـوـ أـمـيـةـ لـلـأـبـنـاءـ مـاـ فـتـحـواـ وـلـلـأـحـادـيـثـ مـاـ سـادـواـ وـمـاـ دـانـواـ

كـانـواـ مـلـوكـ سـرـيرـ الشـرـقـ تـحـتـهـ فـهـلـ سـأـلـتـ سـرـرـ الـغـربـ مـاـ كـانـواـ عـالـيـينـ كـالـشـمـسـ فـأـطـرافـ دـوـلـهـ فـيـ كـلـ نـاحـيـةـ مـلـكـ وـسـلـطـانـ سـرـىـ بـهـ الـهـمـ أـوـ دـادـتـهـ أـشـجـانـ يـاـ وـيـعـ قـلـبيـ مـهـمـاـ نـتـابـ أـرـسـمـهـمـ

بِالْأَمْسِ قُتِّلَ عَلَى الزَّهْرَاءِ أَنْدَهْم  
وَالْيَوْمَ دُمِعَ عَلَى الْفَيْحَاءِ هَانَ  
مَعَادِنُ الْعَزِيزِ قَدْ مَالَ الرَّغَامُ بِهِمْ  
أَوْ هَانَ فِي تُرْبَةِ الْأَبْرِيزِ مَا دَانُوا

وأوحَتِ الشَّامُ إِلَى حَافِظِ شِعْرًا يُوحَدُ بِهِ الْعَرَبُ :

وَفِي دِمْشَقِ اِنْطَوَى عَهْدَ أَبْنِ مَرْوَانِ	عَهْدَ الرَّشِيدِ بِبَغْدَادِ عَنِي وَمَضِي
كَيْفَ اِنْجَحَى بَيْنَ أَسِيفٍ وَنَيرَانِ	وَلَا تَسْلُ بَعْدَهُ عَنِ عَهْدِ قَرْطَبَةِ
عَلَيْكَ لَهُ وَالْأَوْطَانِ دِينَانِ	فَعَلَمَ - وَا كَلَ حَى عِنْدَ مَوْلَدِهِ
فَارَأِيْ بِنْفِسِكَ أَنْ تَمْنَى بِخَسْرَانِ	حَتَّمَ قَضَاؤُهُمَا ، حَتَّمَ جَرَاؤُهُمَا
يَهْدِي إِلَى بَرْدَى أَشْوَاقَ وَلَهَانِ	النَّيلُ وَهُوَ إِلَى الْأَرْدَنَ فِي شَغِيفِ
وَبِأَفْرَاتِ ، وَتَخْنَانَ لَسِيحَانِ	وَفِي الْعَرَاقِ بِهِ وَجَدَ بَدْجَلَهُ

فَهَكُذا نَجَدَ حَافِظاً قدْ خَرَجَ عَنْ قَوْمِيَّةِ ضِيقَةِ تَضْمُنِ مَصْرُوْرَا شَامَ إِلَى قَوْمِيَّةِ  
رَحْبَةِ تَسْعُ بِلَادِ الْعَرَبِ ، فَلَيْتَ اللَّهُ بَعْثَهُ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ حَتَّى يَرَى بِعِينِيهِ أَنَّ  
عَهْدَ الرَّشِيدِ لَمْ يَعْفُ بِبَغْدَادِ ، وَأَنَّ عَهْدَ أَبْنِ مَرْوَانِ لَمْ يَنْطُوْ فِي دِمْشَقِ ،  
لَيْتَ اللَّهُ بَعْثَهُ حَتَّى يَرَى بِعِينِيهِ أَثْرَ شِعْرِهِ فِي اسْتِيقَاظِ الْعَرَبِ مِنْ رَقْدَتِهِمْ ،  
وَمَا أَدْتَ إِلَيْهِ يَقْظَتِهِمْ مِنْ نِعْمَةِ الْحُرْيَةِ وَالْاسْتِقْلَالِ .

فَكَمَا جَمَعَ شِعْرَ « هُومِيرُوسْ » فِي الْمَاضِي قُلُوبَ الْيُونَانِيِّينَ فَكَذَلِكَ  
جَمَعَ شِعْرَ حَافِظٍ فِي الْحَدِيثِ قُلُوبَ الْعَرَبِ ، وَإِذَا كَانَتِ الْأَسْمَاءُ وَالصُّورُ

والرموز والتقاليد التي وحد بها شعراً الأغريق قبائلهم هي التي خلقت اتحاد الأغريق، فإن أشباه هذه الأسماء والصور والرموز والتقاليد في شعر حافظ ابراهيم كان لها أبلغ الأثر في وحدة العرب.

ولتكن الأفق الذي لاحت منه نزعة حافظة العربية إنما هو أفق اللغة فقد استفاضت على ما يظهر دعوة إلى استعمال اللغة العامية في مصر بدلاً من الفصحي. صاحب هذه الدعوة رجل من الانكليز جاء مصر، وخطب في هذا الموضوع، وكتب على نحو ما قرأت في خطبة من الخطيب التي قيلت في تأمين حافظ ابراهيم في دمشق، فكادت الدعوة تعم لو لا أن وقف في وجهها شيخوخة اللغة وحاجتها، وكان حافظ ابراهيم لسان أولئك الشيوخ والجماعة، فقد نشر قصيده : اللغة تنسى حظها بين أهلها في سنة ١٩٠٣ أي في مطلع القرن العشرين، وقد كانت القومية اختارت أقوى اختياراً أو كادت على أيدي رجال الفكر والشعراء.

يقول حافظ في القصيدة على لسان اللغة :

أيد طربكم من جانب الغرب فاعب ينادي بوادي في ربىع حياتي

وكان هذا الناعب الذي ينادي بوادي اللغة وهي في رباع شبابها إنما هو الرجل الانكليزي الذي دعا إلى العامية في حينه.

لورجعنا إلى عناصر هذه القصيدة لوجدنا أنها تشير إلى سعة لغة العرب التي  
وسيت كتاب الله ، وإلى تفاسير العرب عن لغتهم ورميها بضيقها عن  
استيعاب الحضارة ومذاهبيها ، وإلى الترجمة على الذين حفظوا لغة العرب  
في الغابر من السنين وزاروا عليها ، وإلى تقرير أهالها وأبنائها من أجل  
هجرانها والزهد فيها وقد تضمنت القصيدة غير ذلك من النزاعات التي تدل  
دلالة قوية على حرص حافظ على القومية العربية :

وسيت كتاب الله لفظاً وغايةٌ  
وما ضقت عن آئٍ به وعظاتٍ  
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلهٌ  
وتنسق أسماءٍ لمخترعاتٍ  
أنا البحر في أحشائهِ الدر كامنٌ  
فهل سألو الغواص عن صدفاتهِ  
فيما ويحكم أبلٍ وتبلي محسنيٍّ  
ومنكم وإن عز الدواء أمساكٍ  
فلا تكرونى للزمانِ فإنى أخف عليكم أن تحين وفاتهِ

قد حافظ بهذا الشعر المؤثر وقد نصّبها القومية كما قلت ، واشتد  
الدفاع عن لغة العرب والتغنى بآثار هذه اللغة وخصائصها . لقد صدرت  
قصيدة حافظ في مطلع القرن العشرين ، ولكن أمة اللغة لم يقتصروا في خاليل  
القرن التاسع عشر في التهوض باللغة والمراها دون حيائهم ، ووضع بعض  
المصطلحات لما تفاجأ به من مستحدثات الحضارة ، وإذا ذكرت أمة  
اللغة الذين دافعوا عنها في مصر والشام والعراق فما ينبغي لي أن أغفل

عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، أو عن الشدياق واليازجي وأخوه إبراهيم وقد بلغ حب الشدياق للغته أنه كان لا يذكر لغة العرب إلا قرئها بصفة الشرف ، وكان يفضلها على اللغات كلها ، بخواص قصيدة حافظت في هذا الباب خاتمة هذه الترجمة الفوية التي استفاضت في القرن التاسع عشر .

وحرام أن نمر بهذه القصيدة دون التنبية على فضيلة حافظ في إدراكه حقيقة اللغة ومتزلتها من الأمور فقد أدرك حفظ إبراهيم أن اللغة إنما هي وطننا الروحي ، وإذا ذهب الوطن ورسومه بقيت اللغة وآثارها ، لقد اتبسط ظل الأعاجم على مصر والشام والعراق أحقابا طويلة ، ولأن استطاعوا السبيل إلى الأضطراب ، فهم لم يستطيعوا أن يمنعوا شعر المتنبي والبهرجى وأبنى تمام عن أن يقوم بقام وطن مضهد ، أفلم تقم في الماضي لائحة ” هوميروس ” شاعر اليونان ، قام وطن اليونانين الذين أرهقهم الأضطهاد ، اللغة إنما هي مملكة العقل الذي لا يعرف الحدود ولا الموت ، لقد أصبحت قبور الحافظ وابن المقفع وعبد الحميد وغيرهم من أمراء البيان دوارس ، لا عين ولا أثر ، ولكن بيان هذه الطبقية من رجال العبرية ظل يرتفع إلى أعلى السماء حتى عصرنا هذا .

قيمة اللغة ما تعطيه البشرية ، إنها تموت في اليوم الذي لم يتحقق لها شيء نافع تعطيه ، فاللغة العربية كانت لغة ملايين من البشر ، نشأت في القفار والصحاري ، ثم أصبحت لغة دينٍ ومثلٍ أعلى وفتوح وبطولات ، ثم أصبحت

لغة أدب يلغ في عصور العربية كل مبلغ من النضج، ثم أصبحت لغة فلسفة وعمران واجتماع.

أدرك حافظ إبراهيم هذا كله، أدرك أن اللغة ليست مجرد ألفاظ وأصوات وإنما هي عالم معنوي، فإذا لم يعطها أهلها روحهم فلا تبلغ القلوب المبالغ، واللغة العربية أعطاها أعمتها في القدم كل ما ملكوه من العبرية في مذاهب الفكر، وأعطاها شيوخها وشاعراؤها في القرن التاسع عشر والقرن العشرين مثل هذه العبرية. فظات خالدة على الدهر بفضل حافظ إبراهيم وتظرائه من أحباب العربية، وستظل ناعمة بهذا الخلود أبد الآبدية.

هذه اللغة هي التي أحبتها حافظ، وصور هذا الحب في شعره أبلغ تصوير فتفتح فيهار وحده وقلبه، وأفرغ فيها عبريته، وتنقى بعظمتها، وذاق محسنه وبلا حلاوتها، فنعني على أنها تشكرهم لها، وتقسم عليهم تقديرهم في رفع شأنها.

فإذا بحثنا عن النزعة العربية في شعر حافظ إبراهيم فلا نكاد نجد في شعره أبلغ من هذه النزعة وأنطق منها.

فلنجد الذين يواطرون على جعل العربية لغة شعر وعلم وفلسفة وتاريخ ونقد وصحافة وخطابة، ولنجد الذين يجزمون على صفاتها ويحولون دون شيخوختها وهرمتها، وحافظ إبراهيم على رأس هذه الطبقة.

سلام على مصر! سلام على شاعرها الخالد.

# الوطني في حضره

## للكتور عبد الوهاب عزام

عني العرب منذ أولية تاريخهم ، وأقدم أزمانهم ، بأن يسجلوا في الشعر ما يعنיהם من الأمور وما يهمهم من الأحداث ، فاتخذوا الشعر ديوان مآثرهم وكتاب حرثهم وسلبهم ، وسفر مفاحرتهم ومنافرتهم . لا تقع الحادثة التي تروعهم أو تعجبهم أو تهمهم إلا تناقلها الألسن وتدالوها في الأشعار ، حتى قيل قديما : الشعر ديوان العرب .

ولا يزال العرب اليوم في بواديهم وحواضرهم على هذا السنن ، تثير الحوادث عواطفهم أو تروع أفمشتهم أو تنال إعجابهم ، فيعمدون إلى الشعر يسجلونها فيه ، ويشحذون بها العزائم في النائبات ويسقطون الهمم في الملاحم ، ويشيدون بآمالها من تاريخهم ، ويقيسونها بأكمالها من مفاحرهم وأحسابهم ليلقواها بعدتها من الأدب والثبات والجهاد والإقدام ، ولیأخذوا منها العظات وال عبر ، بل كثيرا ما يسجل العرب الحادثات الصغيرة والواقعات الهينية ، وكثيرا ما يتفكرون بالحوادث المضحكة ويسخرون منها . تنطق بهذا كتب الأدب العربي قديمه وحديثه ، وروايات البادية والحاضرة .

ولم يحد عن هذا النهج شعراء الأقطار العربية في عصرنا هذا ، ومن سار على هذه الطريقة وعرف بها وشهر فيها شاعر مصري في الثالث الأول من هذا القرن العشرين الميلادي حافظ إبراهيم ، لم يأل جهدا في الإشادة بالحوادث في شعره يذكر بها أمته ، ويعظ بها قومه ، يمحفظهم إلى المعالى ويختتم على المكارم ، ويدعو إلى العيشة الكريمة واللحظة القوية ، وابتهاج العزة والكرامة، وطلب المجد الذي يكفيه مكانهم بين الأمم ، ويلاثم هيبتهم في العالم .

وقد وفر الزمان نصيب أمته من الخطب في حياته ، وأدار عليهما كثيرا من الدوائر في أيامه ، فكان كما قال أبو الطيب :

وقد وجدت مجال لقول ذا سعة     فإن وجدت لسانا فائلا فقل

كان محمد حافظ في حدود العاشرة من عمره حين منيت مصر بما منيت به من احتلال الانجليز وتسليطهم عليها ، ونيا لهم من سلطانها وعزلتها ، وتصدهم إياها عن المضي في سبيل الاستقلال الذي سارت فيه ، وطريق المجد الذي استقامت عليه .

وكان هو في صيامه صرف الحسن ، رقيق الطبع ، فيه مواهب الشعر ، ومخايل البيان ، وقد شرع يظهر مواهبه ويزين في الشعر مناقبه ، وهو

في حدود الخامسة عشرة من سنه . وتوفي حين جاوز السفين . فقد عاش زهاء خمسة وأربعين عاماً مذ شدا في الشعر وغزيم في فنونه . وقد أمضها كلها والبلد في بلاء الاحتلال ، تجاهده بين اليأس والرجاء ، وتصييده بالأساء والضراء .

ووجهة أشعار حافظ نظمت ما بين سنة ١٩٠٠ من الميلاد إلى وفاته سنة ١٩٣٣ ، وقليل مما بين أيدينا من شعره نظم في آخر القرن الماضي في الخمس سين الأخيرة منه . فشعره الذي بين أيدينا نتاج نيف وثلاثين سنة من عمره .

\* \* \*

صحب الشاعر تاريخ مصر في هذه الحقبة ، وساير غيرها وتتبع حوادثها يذوق حلوها ومرها ، ويبلو خيراً وشرها ، وينضح عنها في شعره ويشيد بها ، ويستخرج العظات وال عبر منها ، ويحفز أمنته على العلات إلى دفع الضيم وطلب العزة ، ويعرفها الداء والدواء ، ويهصرها بعيوبها ، ويتجهها بنقائصها ، ويدعوها إلى إصلاح الفاسد وتقويم المعوج وجمع الشمل وتأليف القلوب والأيدي ، والمضي إلى المعالى يستسلمون في سبيلها كل صعب ، ويبذلون كل نفيس ، ويضرب لهم الأمثال ، ويعرض عليهم

من التاريخ المثلاً . هم مصر يهمه وينصبه ، وحدها يؤرقه ويُعذبه :  
كما قال سنة ١٩٠٩ م :

لعمرك ما أرقت لغير مصر وماي دونها أمل يرام  
ذكريت جلاها أيام كانت تصول بها الفراعنة العظام  
وأيام الرجال بها رجال وأيام الزمان لها غلام  
فأقلق ماضجي ما بات فيها وباتت مصر فيه . فهل ألام ؟  
أرى شعبها بمدرجة العوادي تمخض عظمه داء عقاب  
إذا ما صر بالأساء عام أطل عليه بالأساء عام  
هلاك الفرد منشوه توافر وموت الشعب منشوه انقسام  
وإننا قد ونينا وانقسمنا فلا سعي هناك ولا وئام  
فساء مقامنا في أرض مصر وطاب لغيرنا فيها المقام  
فلا عجب إذا ملكت علينا وأكثرنا نيام

\* \* \*

فاما قصائده التي أنشأها في حادثات سياسية أو ذكرى حادثات ،  
أو أنشدت في محفل سياسية فالأمر فيها بين . في حوادث دنسواى رفع  
صوته يتآلم ويتظلم على قدر ما يرتفع صوت المتألم المتظلم في ذلك العهد .

وفي إحدى قصائده بعد خمس وعشرين سنة مضت على الاحتلال يوم  
أمتها على السكوت، ويتحسر لضعفها، ويقول للإنجليز :  
أحسنوا القتل إن ضللتم بعفو أنفوساً أصبتمْ أم جماداً  
عادت أم عهد نيونَ عاداً  
ليت شعرى أملك محكمة التفتيش  
كيف يخلو من القوى التشفي  
إنها مثلاً تشف عن الغبظ  
ولسنا لغاظكمْ أنداداً  
ويشكو إلى العميد الجديد "دانلوب" مستشار المعارف وغيره من  
مستشاري الإنجليز، ويوصي "غورست" بالعناية بالتعليم وبأمور أخرى  
فيها صلاح البلد .

وهي قصيدة بلغة الشعر تطابق مقتضى الحال ، تعدد فيها لباقه الشاعر مساوىً للإنجليز في معرض الشكوى اليهم .

三

ومن سياسيات حافظ قصي الدين أنسد هما في حفظتين أول السنة الهجرية  
عدد فيما ماض ببصر والبلاد والعربية والأقطار الإسلامية من خير وشر  
وذكر العام المنصرم بحسناته وسيئاته .

وقد شهدت إحدى الحفلتين ، وتلكم أول ما شهدت من حفلات سياسية أو أدبية، وقد خبرت يومئذ تأثير حافظ في الناشئة بشعره الحماسي،

وإنشاده الرائع ، وقد حفظت كثيرا من أبيات القصيدة التي أنسدتها  
يومئذ ، وما زلت أنسدتها وأكررها ، وهي القصيدة التي أولها :

لِي فِيكَ حِينَ بَدَا سَنَاكَ وَأَشْرَقَ أَمْلَ سَأَلْتَ اللَّهَ أَنْ يَتَحَقَّقَا  
أَشْرَقَ عَلَيْنَا بِالسَّعُودِ وَلَا تَكُنْ كَأَخِيكَ مَشْؤُومَ الْمَنَازِلِ أَخْرَقَا  
قَدْ كَانَ جَرَاحَ النُّفُوسِ فَدَاوَهَا مَا بَهَا وَكَنْ الطَّبِيبُ مُوفِقاً  
هَالَّتْ حِينَ لَحْتَ نُورَ جَيْنِهِ وَرَجُوتُ فِيهِ الْخَيْرَ حِينَ تَأْلَقَا  
فَنَّا بِجَانِبِهِ وَخَصَّ بِنَحْسِهِ مَصْرَا وَأَمْرَفَ فِي النُّحُوسِ وَأَغْرَقَا  
وَفِيهِ يَنْصَحُ شَبَابُ مَصْرَ بِالْجَدِ فِي التَّعْلِيمِ ، وَيُوصِيهِمْ بِالْتَّعَاضِدِ وَالْعَمَلِ  
لِخَيْرِ الْوَطَنِ وَالْإِقْدَامِ عَلَى كُلِّ عَظِيمَةِ .

وهاتان القصيدتان الحوليتان دليل على تتبع الشاعر للحوادث ، ووعنايته  
بتبيه -لهمـ ، والاستدادة منها ، والاعتبار بها .

« بعد ثورة سنة ١٩١٩ »

ويختلف شعر حافظ بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، يبرق فيه الأمل وينسرق  
الرجاء ويشيع فيه الاستفسار ، ويكثر فيه الفخر بصر ، والاعتداد بماضيها  
وحاضرها ، والاعتزاز برجالها ، لقد تبدل يأسه رجاء ، وغممه فرحا ،  
وذله عنرا ، وضعفه قوة .

استمع إليه في قصيدة أشدها سنة ١٩٢١ في حفل لتكريم المرحوم عدلی يكن ، وقد قطع مفاوضة الإنجليز واستقال من الوزارة ، يقول الشاعر على لسان مصر :

إنى حرة كسرت قيودي رغم رقبي العدا وقطعت قدى  
وتماثلت للشفاء وقد دانيةت حيني وهيا القوم لحدى

إلى أن يقول :

إنتا عند بخر ليلى طويل قد قطعناه بين سهد ووجد  
غمرتنا سود الأهاوين فيه والأمانى بين جزر ومد  
وتجلى ضياؤه بعد لأى وهو رمز لعهدي المسترد  
فاستبينا قصد السبيل وجدوا فالمعالى خطوبة للجد

وكذلك تجد الشاعر في قصيدة "عيد الاستقلال" التي نشرها في ١٥ مارس سنة ١٩٢٣ وجعل عنوانها "بين اليقظة والمنام" :

قم يا ابن مصر فأنت حر واستعد  
مجد الجدد ولا تعد لمزاح  
شهر وكاغ في الحياة فهذه  
وإذا ألح عليك خطب لا تن  
وخض الحياة وإن تلاطم موجها  
ديناك دار تناجر وكفاح  
واضرب على الإلماح باللاح  
خوض البحار رياضة السباح

ثم نجد حافظا ينحي على الإنجليز باللوم حينما تدخلوا في شئون مصر ، وكشفوا عن حقيقة الاستقلال الذي زعموه . يقول في أبيات نشرت في ١١ مارس سنة ١٩٣٢ قبل وفاته بأشهر قليلة يخاطب المنور السامي الإنجليزي :

ألم تخبر بني التامير عنا وقد بعنوك مندو با أمينا  
بأننا فقد لمسنا الغدر لمساً واصبح ظتنا فيكم يقينا  
كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محابيدين

وقد نشر في ذلك الحين خمس قطع أخرى ينحي فيها على الإنجليز  
غدرهم وخداعهم ، يقول في إحداها :

(قصر الدبار) فقد نقضت العهد نقض الغاضب  
أخفيت ما أضمرته وأبنت ود الصاحب  
الحرب أروح للنفوس من الحياد الكاذب

وهكذا لم يشأ لنا شاعرنا يجادل الإنجليز ويعدد مساوئهم ، وييطالبهم بالخلاف  
عن بلاده ، ولكن الشاعر قارب ، أحيانا ، ولain وتودد ، وأعظم ما أخذه  
عليه قصيدة مدح بها السلطان حسين ، ونصحه بالثقة بالإنجليز واستشارتهم

فيما ينوبه وهي وذلة، وإنمدي زلاته ولا ريب. وأعوذ بالله من قوله  
للسلطان :

ووال أقوام إنهم كلام ميامين النقيبة أين حلوا  
لهم ملك على التأمين أضحي ذراه على المعالي تستهل  
وليس كقومهم في الغرب قوم من الأخلاق قد نهلوها وعلموا  
فإن صدقهم صدقوك وذا وليس لهم إذا فتشت مثل .. اخ

ويلحق بهذه القصيدة العوراء قصيدة نظمها في السنة نفسها سنة ١٩١٥  
يخاطب فيها "مكاهون"، المعتمد البريطاني ويقول للإنجليز :

أنتم أطباء الشعوب وأنبل الأقوام غاية  
أني حلتكم في البلاد لكم من الإصلاح آية  
رسخت بناءة بحمدكم فوق الروية والهدایة  
وعدلتكم فلستم الدين—— وفي العدل الكفاية

لم يقصر شاعرنا وطنيته وحماسة في الذود عن أمته على القصائد السياسية  
بل أعرب عن حب أمته، وكلفه بها ، ونقد أحواها وأعمالها ، وبصر  
بعيوبها وأرشد إلى صلاحها في قصائد كثيرة في موضوعات أخرى ، لا يدع  
فرصة إلا انتهزها ، ولا يقوم مقامها إلا تذكر أمته .

فهو يبحث أنته على طلب العلم وبلغ الغاية فيه، ويدعوه إلى بذل المال  
لإنشاء جامعة مصرية في قصيدهتين يقول في إحداهما ، وقد أنسدها  
في ٨ مايو سنة ١٩٠٨ :

حياكم الله ، أحيوا العلم والأدب  
ان تنشروا العلم ينشر فيكم العرما  
ولا حياة لكم إلا بجامعة  
تكون أما لطلاب العلا وأبا  
تبني الرجال وتبني كل شاهقة  
من المعالى وتبني العزّ والغلب  
ضعوا النضار فإني أصغر الذهابا  
ضبعوا القلوب أساسا لا أقول لكم  
وابنوا بأكادمكم سوراً لها ودعوا  
قيل العدو فإني أعرف السببا  
لا تقنطوا إن قرأتم ما يزوجه  
ذاك العميد ويرميكم به غضبا  
فابنوا على الحق برجا ينطح الشهرا  
بني على الأفك أبراجا مشيدة

وكان العميد البريطاني يقول : إن المصريين أحوج إلى الكاتيب منهم  
إلى جامعة .

وكذلك قصيده في احتفال مدرسة مصطفى كامل بتوزيع جوائزها  
(٣٠ نوفمبر سنة ١٩٠٦) يهيب فيها بالشرق أن يأخذ بباب العزة، ثم يوصي  
الناشئين أن يعملوا لخير مصر ، وياشرهم بمستقبل كريم .

وفي حفل مدرسة البنات في بور سعيد (٢٩ مايو سنة ١٩١٠) أنشد  
قصيدة التي مطلعها :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى      في حب مصر كثيرة العشاق  
لاني لأحمل في هواك صباة      يا مصر قد نرجت عن الأطواق

ويشيد بذكرى الأخلاق فيقول :

والعلم إن لم تكتفه شمائل      تعلية كان مطيبة الإخفاق  
لا تحسن العلم ينفع وحده      ما لم يتزوج ربه بخلاق

ثم يبين رذائل العلم الذي لا توجهه الأخلاق، فيذكر العلماء والفقهاء  
والأدباء والأطباء والمهندسين، ويأخذ عليهم عيوبهم غير متجرج ولا مداهن،  
ثم يوصي ب التربية النساء، ويبين مكانة الأم في الأمة.

\* \* \*

واسمع اليه في حفلات غير مصرية لحفلات كلية البنات الأمريكية  
تجده يذكر ما بلغه الغربون في الحضارة، ثم يتنى أن تبلغ مصر شأنهم  
ويدعو أمتهم إلى الاحتذاء بهم. لا يشيد شاعرنا بأئزة أو منقبة أو مفخرة

في الغرب إلا دعا أمته إلى مثواها ، وتنفی أن تناهها . وهذه أبيات من قصيدة في حفلة الكلية الأمريكية :

لَيْتَنَا نَعْتَدِي بِكُمْ أَوْ نَجَارِي—كُمْ عَسَى نَسْتَرِدُ مَا كَانَ ضَمَاعًا  
 إِنْ فَيْنَا لَوْلَا التَّخَاذُلُ أَبْطَالًا      إِذَا مَا هُمْ اسْتَقْلُوا السِّيرَاعًا  
 وَعَقُولًا لَوْلَا الْخَمْرُولُ قَوْلَاهَا      لَفَاضَتْ غَرَابَةُ وَابْتِدَاعًا  
 وَدُعَاءُهُ لِلْخَيْرِ لَوْ أَنْصَفُوهُمْ      مَلَأُوا الشَّرْقَ عَزَّةً وَامْتَنَاعًا

وفي فضيحة أخرى في حفلة أمر يكية أيضاً :

ليت شعري متى أرى أرض مصر  
في حمى الله تنبت الأبطالا  
وأرى أهلها يبارونكم علما  
قد نفينا عننا الـكري وابتدرنا  
فرص العيش وانقلنا انتقالا.. الخ

六

وقصائد آخر تشهد بدعوة شاعرنا البار أمتة إلى الخير والبر ، وتبين كيف  
خفق قلبه بحب مصر ، وكيف وقف حياته ولسانه على إيقاظ أمتة  
ودعوتها إلى العمل الصالح . اقرأ قصائده في حفلات الجمعية الخيرية  
الإسلامية ، وملاجأ الحرية ، وجمعية إبانة العميان ، وجمعية الطفل .

ولاتنس قصيدة في نصرة اللغة العربية، والدعوة إلى إحيائها واعتزازها.

\* \* \*

ويسلك الشاعر البر الكبير إلى مقصد مسالك في قصائد ليست مظنة الدعوة إلى ما يدعو إليه الشاعر من المقاصد الخاطئة والمطالب الكريمة ، في قصائد وثناء ، فهذا الشاعر الذي شغل عقله وقلبه حب أمته والتأمل في فلاحها ، والعمل لصلاحها ، يرى في كل مقام ما يذكره بها .

رثى الشيخ محمد عبدالله ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، وغيرهم من كبراء مصر، فما نهى في لوعة الحزن، وشواغل الزمان أن يشيد به صر ويفخر بها، وياسم لمستقبلها، ويدعو أمته إلى السعي والإقدام. وحسينا من شواهد كثيرة هذه الأبيات في رثاء مصطفى كامل، يقول في حفلة للذكرى الأولى لوفاته :

يا أيها النشء سيروا في طريقته  
ونابروا رضى الأعداء أو نقموا  
فكلكم مصطفى لو سار سيرته  
وكلكم كامل لو جازه السام  
قد كان لا وانياً يوماً ولا وكلاً  
يستقبل الخطب بساماً ويقتحم

و يقول في رثاء محمد فريد :

قال لـ أـ صـبـ (١). النـيلـ إـنـ لـاقـيـتـهـ فـيـ جـوـارـ الدـائـمـ الـفـردـ الصـمدـ  
إـنـ مـصـراـ لـاتـقـىـ عـنـ قـصـدـهـ رـغـمـ مـاـ تـلـقـىـ ،ـ وـإـنـ طـالـ الأـمـدـ

(١) صب النيل : مصطفى كامل .

جئت عنها أحمل البشري إلى  
أول البنين في هذا البلد  
فاسترح واهناً ونم في غبطة  
قد بذرت الحب والشعب حصد

ثم يقول في رثاء سعد زغلول يخاطب الانجليز :

قد ملكتم فم السبيل علينا  
وافتتحتم لكل شعواء بابا  
وأتيتم بالحائط ترمي  
وتملاكم جوانب النيل وعدا  
ووعيدها ورحمه وعدا  
هل ظفرتم منا بقلب أبيِ  
أو رأيتم منا إليكم مثابا  
ال ألف لیث إذا العرين أهاب  
إن عند العرين أسدًا غضبا  
فاجعوا كيدكم وروعوا حماها

\* \* \*

قال بعض الأدباء إن حافظا صمت عن الشعر منذ نال منصبا في دار الكتب سنة ١٩١١ ، وهذه دعوى ينجلها الدليل ، بل ينقضها الواقع . فإن أريد أنه صمت عن شعر السياسة والوطنية فهذا حق ، ولكن إلى سنة ١٩١٩ حين حقق أمله ، وهاج شعوره ثورة أنته ، فكان له بعدها قصائد تعرب عن جذله وعظم أمله ، وتبليغ من الوطنية والحماسة ما لم تبلغه قصائده الأولى .

وإن أريده أنه صمت عن ضروب الشعر عامة ، فما يقول هذا إلا من فاته أن يقرأ ديوان حافظ ، ويتعرف تاريخ القصائد فيه .

\*  
\* \*

شغل حافظ بأحداث مصر ، وعني بما أحاط به من شؤونها ، ولكنه دل على عنایة بالوطن العربي كله واعتراضه به كلما ظفر بفرصة للكلام عن هذا الوطن .

ففي قصيدة أنسدتها في لبنان يقول :

لِ موطن فِي رَبْع النيل أَعْظَمُهُ      وَلِي هُنَا فِي حِمَاكِمِ موطن ثَانٍ  
إِنِّي رأَيْتُ عَلَى أَهْرَامِهَا حَلَّا      مِنَ الْحَلَالِ أَرَاهَا فَوقَ لَبَنَانَ

إلى أن يقول :

النيل وَهُوَ إِلَى الأُرْدُنِ فِي شَغْفٍ      يَهْدِي إِلَى بَرْدَى أَشْوَاقِ وَلَهَانِ  
وَفِي الْعَرَاقِ بِهِ وَجَدَ بِدْجَلَتِهِ      وَبِالْفَرَاتِ وَتَحْنَانَ لَسِيَحَانَ

وفي قصيدة أنسدتها في تكرييم شوقي يقول :

فَعَنْ رَبْعِ النيلِ وَاعْطَفْ بِنَظَرَةِ      وَلَا تَتَسْ نَجْداً إِنَّمَا مَنَّبَتْ الْهُوَى  
وَمَرَعَى الْمَهَا مِنْ سَارِحَاتِ وَرْتَعَ      وَحْيِ ذَرَا لَبَنَانَ وَاجْعَلْ لَتُونَسَ  
نَصِيبَيَا مِنَ السَّلْوَى وَقَسْمَ وَوْزَعَ      نَصِيبَيَا مِنَ السَّلْوَى وَقَسْمَ وَوْزَعَ

وأُنشد في حفل تكريمه في ٢٥ مارس سنة ١٩٠٨ قصيدة مطلعها :

لِمَصْرَ أَمْ لِرَبْوَعِ الشَّامِ تَنَسَّبْ  
هَنَا الْعَلَا وَهُنَاكَ الْمَجْدُ وَالْحَسْبُ  
رَكَانُ الْشَّرْقِ لَا زَالَتْ رَبْوَعَهُمَا  
قَلْبُ الْاَهْلَالِ عَلَيْهَا خَافِقٌ يَحْبُّ  
خَدْرَانُ الْاَضَادِ لَمْ تَهْتَكْ سَتُورَهُمَا  
وَلَا تَحْوِلْ مِنْ مَغْنَثِهِمَا الْأَدَبُ  
وَإِنْ سَأَلْتَ عَنِ الْأَكَابِاءِ فَالْعَرَبُ  
أَمُّ الْلِغَاتِ غَدَةُ النَّذِيرِ أَمُّهُمَا

إِلَى أَنْ يَقُولُ :

هَذِي يَدِي عَنْ بَنِي مَصْرِ تَصْاحِفُ نَفْسَهُمَا الْعَرَبُ  
فَصَاحُوهُمَا تَصْاحِفُ نَفْسَهُمَا الْعَرَبُ  
وَهَكَذَا نَرَى شَاعِرِنَا كَلِمًا سَنَحَتْ فَرْصَتِهِ ذِكْرُ الْوَطَنِ الْعَرَبِيِّ ، وَنَخْرُ  
بِيَقْوِيمِيَّةِ الْعَرَبِ ، وَاعْتَرَ بِلُغَتِهِ الْعَرَبِيَّةِ .

\* \* \*

وَأَحِيَا نَا يَعْنِي حَفَظَ بِالْأَمْمِ الْإِسْلَامِيَّةِ كُلُّهَا ، أَوْ يَعْنِي بِالْوَطَنِ الْإِسْلَامِيِّ  
الْأَوْسَعِ . وَأَكْثَرُ مَا نَجِدُهُمَا فِي قَصَائِدِهِ فِي حَوَادِثِ الْعَمَانِيَّةِ ، وَالسُّلْطَانِ  
عَبْدُ الْحَمِيدِ ، حِينَما كَانَتِ الدُّولَةُ الْعَمَانِيَّةُ تَعْتَزُ بِخَلَافَةِ الْمُسْلِمِينِ ، وَكَانَ  
الْمُسْلِمُونَ يَفْرَغُونَ إِلَيْهَا فِي مَحْنَتِهِمْ . وَيَغْزِيُونَهَا فِي مَحْنَتِهَا .

وَفِي دِيْوَانِهِ قَصَائِدُ كَثِيرَةٍ فِي هَذِهِ الشَّيْئَوْنِ .

## خاتمة

وبعد فذلكم مهد حافظ في شعره الوطني ، وحماسته الوطنية . لقد كان ترجمان أمته تلك السنين الطوال فلقب شاعر النيل .

وإنها في جمهورة شعره صريح حرجرى يعرب عن آمال أمته وآلامها ، ويدرك عاطفتها ويتوهج حماستها ، ويدعوها إلى الخطة الكريمة ، والسيرة المثلثة غير واهن ولا هاب .

وقد بدا له أحياناً قليلاً ما بدا ، فلان وتعدد وأوهن . ولا ندري أكانت هذه سياسة خاطئة أم غفوة طارئة . ولعله أراد حمل نفسه على انصاف العدو كما يعتقد ، أو رغم إعطاء الشيطان حقه كما يقول الإنجيليون أنفسهم .

\* \* \*

نعم هو في شعره هذا الوطني الحماسى — وبعض موضوعاته ليس مجالاً للشعر نسيحاً ، ولا قراراً للخيال واسعاً — لم يتصر في إدراك المعانى وتصويرها ، وصوغ الكلم المبين عنها الملائم لها .

وإن يكن في بعض المعانى ابتذال ، وفي بعض الألفاظ نبو ، وفي بعض العبارات قلق ، فأولئك القليل النادر لا يدخل بالكثير الغالب ، وإن الوهن الذى يعرض لقوى ، والفتور الذى يطرأ على المجد ، والكبود يكتوها الجواب .

شاعرنا في جملة شعره قيم المعانى ، وواسع المجال ، بجزل الألفاظ ،  
رصين السبك ، حسن الحرس ، جيد النغم ، واف بحق الوزن والقافية .  
وحسبيه هذا وكفى .

إن حافظاً أعرّب عن آمال مصر وألامها سين كثيرة فأحسن الإعراب  
وبلغ من نفوس ساميته الغاية ، ثم ترك للأجيال ثروة من التاريخ  
والحماسة والأخلاق ، ودعوة إلى المكرامة والعزة والعمل الدائب والسير  
الصالحة ، كل أولئك في شعر رصين ، بلين ، جدير أن يبقى على مر الزمان  
يتغنى به النشء ما تعاقب الملائكة .

رحم الله حافظاً وجزاه عن أمتة خير الجزاء ،



## ذكريات عن حافظة ومحالله للأستاذ عبود الرحمن صيدلى

يقتضي واجب الأمانة لكم ، وإينار السلامة لي ، أن أقدم بين يدي كلامي هذه ما بحثت به العادة من الاعتذار ، لقلة ما تشمل عليه جعبي المنشورة من ذكريات ، عن الشاعر المحفل بذكره ، ولكن شفيعي عندكم وعد نفسي ، في التعرض للكلام في هذا المقام أن الحكم في تقويم الذكريات ليس هو القيمة العددية على الدوام .

كنت في شبابي وحداثة أمري ، حريصا مثل الكثيرين غيري على شهود المألف التي يلقى فيها شاعر النبي ما ينظمه في المناسبات العامة من القصائد الرنانة ، وأذكر من هذه المناسبات الحفلة التكريمية العظمى التي أقيمت للدكتورين صاحبى المبتطف اختلافا بمرور خمسين عاما على كبرى المجالس العلمية وقتئذ ، وذلك في أول يونيو سنة ١٩٣٦ بدار الأوبرا ، وقد تعانق على موقف الخطابة بالمسرح اخطباء بعده دون مأثر الشيفيين العالمين ، ويزدوجون مناقبهم ، وينوهون بمساعيهم ، ثم قام شاعرنا حافظ ابراهيم حين آذنت نوبته على الجبهة منحصرها ، كبير المأمة ، فارع

القامة ، مع بسطة في الجسم مأنوسه غير مرهبة ، وتعلع لحظة إلى جموع  
السامعين الحائدة ، وقد انطبعت على طمعته السمراء الحازمة أمارات  
العزم والثقة بأنه بالغ من القوم ما هو مقتدره عندهم من التجاوب والتلبية ،  
وسرعان ما التفت حافظ في حركة تمثيلية رصينة وإيماءة لطيفة إلى حيث  
المحتفل بهما ، ثم انتدل على الفور مستقبلا جمهوره ، وهو يردد بصوته العميق  
المتليء الفيixم مطلع القصيدة :

شیخان قد خبرا الوجود وأدرکا  
ما فيه من علل ومن أسباب  
واسطينا الأشياء حتى طالعا  
وجه الحقيقة من وراء نقاب

وكان السامعون يقاولون كل شطر ، بل كل لفظ ، بما هو أهلل من حسن  
القبول والإصغاء ، واغتنم حافظ ما قوبل به المطلع من بوادر التصفيق  
وهتاف الاستحسان ، فعاد - كما هو مألف عادته - إلى ترجيع ما أنسده  
مرة أخرى على أسماع السامعين تعميقا لأثره ، وتمكينا لوقعه ، مع وصل  
ما انقطع من المعنى السابق بما هو لاحق احتفاظا بوحدة السياق :

شیخان قد خبرا الوجود وأدرکا  
ما فيه من علل ومن أسباب  
واسطينا الأشياء حتى طالعا  
شاكى الرياعة طاهر الخلباب  
لا تعجبوا أن خضبوا قلميـها  
وبياض شـيمـها بغـير خـضـاب

هنا لم يتكلّك السامعون أنفسهم ، بل كأنهم تنبهوا الساعة فقط إلى ما نبههم إليه الشاعر من العجب ، فهذه هامة الشيختين الكاتبين ، وقد جالها بياض الشيب فلم يخضباه بالسوداد ، على حين أنهما لا يفتان يخضبان القلم الذي في أيديهما بالمداد . هنا أمام هذه المقابلة الشعرية التي تكلف بها الشاعر ما تكلف من الطلب ، لم يتكلّك السامعون أنفسهم من الطرب فقد زلزلت بهم مقاعدتهم ، لفطر ما اهتزت مشاعرهم وجوه راحهم ، وهللت جموعهم تهليل الاستحسان والاستجاد ، وانطلقت الأكف بالتصفيق ، وارتفعت الأصوات بالاستعادة ، ولا أحسبني ملكت نفسي وقتئذ عن مشاركة الحاضرين في سهرة حماستهم ، وهزة طرفهم ونشوة إعجابهم وعجبهم .

واستمرت الحال في استجابة السامعين وحماستهم على هذا المنوال ، إلى أن فرغ شاعرنا من إنشاد قصيده .

ولما انقض الاحتفال وصرنا خارج الدار ، تلقانا باعة الصحف بما قيل في الحفلة مسجلاً مطبوعاً فبادرت إلى شراء نسخة من الصحيفة أقتنيها وما إن صرت في بيتي واحتوي غرفتي ، حتى أقبلت على قصيدة حافظ خالياً ، وقد فرغت لها أراجعها للاستزادة من المتابع بها . وأقرر مخلصاً أنني استمتعت بها ، أو على الأصح بأكثر أبياتها ، ولكنني لا أكتتمكم في الوقت نفسه آني كنت أحياناً أتوقف عند هذا وذاك من الأبيات التي استولى

بها حافظت مند هذه يهية على أسماعنا ولعب بمشاعرنا ، واختاب عقولنا ، فإذا  
من بين هذه الأبيات التي أنزلها علينا هو ينشدنا منزلة الآيات ، ما لا يمكن  
عده من أجود شعره ، وأسوق مثلاً على ذلك قوله يشبه القلم في كف  
المحتفل بهما بالشهاب الساطع المنقض وهو في يده — أى يد حافظ —  
أشبه بعود الكبريت .

إلى نظرت إلى اليراعة في يدي خسبتها في القدر عود ثقاب  
ونظرتها تنقض من كفيه ما فوق الطروس خلتها كشهاب  
يزهي مدرجنا برحى واحد وأراهما لا يزيهيان بغاب  
هذه المقارنة بين حافظ كاسمعته ، وحافظ كأقرأته ، أفادتني معرفة  
الشاعر في حقيقة أمره ، وأسألتني مفتاح سره ، وبفضل هذه المعرفة  
بقيت حتى اليوم على تقديرى له وحى إياه .

لقد أفادت من هذه المقارنة بين حافظ كاسمعته ، وحافظ كأقرأته  
إن المقياس الحرى بأن يؤخذ به ويحتمل إليه في تقدير شاعر النيل ، هو  
مقاييس الشعر الخطابي ، فقد كان حافظ ابراهيم ينظم قصائد الإنشاد .  
ومما يروى عنه أنه كان في حال نظمه للقصائد يرفع عقيرته بما يرد على خاطره  
تحرياً لتأثير الخطابي . فهو مطلب الذى لم يكن يخرج مائلاً نصب عينيه إذ كان  
لا يخفى عليه أن هذا قبل غيره هو موطن قوته ، وأن فيه سر فضله وميزته .

والشعر الخطابي كالشعر التمثيلي تجده فيما عظيم الأحيان أن الذي لا يروعنا عند النظر القراءة هو بعينه ما يقع في أسماعنا أحسن الوقع عند الإلقاء التمثيلي والخطابة . وعلى هذه الصفة ، وفي هذا الحد ، لم يبح حافظ بعد نصف قرن من الزمان في موضعه الرفيع حيث كان في تاريخ الشعر العربي المعاصر .

ولقد رأينا كيف كانت هذه الصفة الخطابية في شعر حافظ الشاعر تجده من يو匪ما غاية حقها من الإنشاد الساحر في "حافظ الخطيب" ومن ثمة كان لشعره في ساميته من المعاصرين ذلك الأثر الكبير الذي لا يدانيه أثر .

ويحضرني في هذا المقام ما كان يدور بين الأستاذ العقاد "وحافظ" حين يلقاه بعد تلك الحفلات العامة التي كان ينشد فيها قصائد الرنانة ، فقد كان يداعبه العقاد بقوله . .

"إلا ترى أني صدقتك النصح يا حافظ حين قلت لك مرات ، أن  
تصدر ديوان شعرك — حين تصدره — في اسطوانات .

وأدع هذه الصورة من ذكرياتي عن المحافل العامة إلى ذكرى خاصة دي بطبيعة الحال صورة لقائي الأول للشاعر الكبير وإذا كنت أعرضها أول ما أعرض فلا منها صورة لطريقته في ملاقاة من يلتقاهم أول ما يلتقاهم .

كنت وصديقي لى منه رين في شارع محمد علی فلما صرنا تجاه مقهى  
دار الكتب وكان بعرف وقئذ بالقهوة العثمانية ، اندفع صديقي ودفعني  
معه ، فإذا بنا نواجه شاعر النيل حافظ ابراهيم واقفا على أهبة الانصراف  
من المقهى . خيال الصديق ثم قدمني ، وابكي حافظ لم يره فقال لقد  
ذكرتك الالمة البارحة ، وهذا أنت . فتملأ الصديق معقا على الفور  
كالعادة ”خير إن شاء الله خير“ قال حافظ ”كنت أقرأ الليلة البارحة  
في رسالة الغفران ما جاء في صفة جهنم فذكرتك“ .

”وماذا يجعلك تذكرني في هذا الوضع بالذات ؟“ فظهر الجد على  
وجه حافظ وفي نبرة صوته : ”هو الحق أقوله لك ، لقد أعياني تصور  
زبانية البخيم كالعماليق ، في أيديهم مقامع من الحديد يتذهبون هذه  
الأهبة المهولة ، ويتذكرون هذا الوقود العظيم ، لتعذيب من كان مثلك  
في صغر الحجم وقصر القامة وخفة الوزن“ .

— ”ألا تكف عن هذلك يا حافظ بك ؟ ألا تكف عن هذلك ؟“

— ”ما أنا بهازل في هذه المرة يابني ، أنا مشفق عليك ، ولو كان  
أمرك يومئذ يوكل إلى ، لكان حسبيك في جهنم موقد من موقد الكحول  
الصغيرة ، ”اسبرتو“ تقلب من ذبائحه على نار لينة ليسيرة وقبل أن يراجعه  
زميلي بكلمة أشار حافظ إلى وسأله : ”أترى زميلك من أصدقاء العقاد ؟“ .

وما كاد يسمع الرد بالإيجاب ، حتى التفت أني قائلًا " ما أطنك إلا كنت أكثُر شبهاً بـما قبل أن تعرفه ، إن العقاد يعتقد على الناس الحياة ، إنه لا يدع شيئاً على حاله في الشعر وفي مقاييس النقد وفي منازع الفكر وفي سائر الأمور . نصيحتي إليك أن تنجو بحياتك منه " .

ثم تركا غتة رافعاً يده بالتحية ، وانطلق ، فما عرفت من مشيته إن كان معجلاً أو متراقباً فهو يشي متهدلاً الجسم ، لم يكدر يتحرك للسير ، حتى أخذ يحرك ذراعيه كالمدافين ، إلى أن بلغ مرتبة من مراكب الخيل المأجورة ، توافت تجاه المقهى في انتظاره .

ولقد شهدت بعدها أكثر من مجلس لحافظ إبراهيم ، وما شهدته منها مضاقاً إليه ما سمعته عنها يكفي للدلالة بأجل بياني على ما اجتمع لشاعرنا من فضائل النديم وشمائله كما نتمثلها من مطالعتنا في تاريخ الأدب العربي القديم .

فهو لم يكن الأديب الكثير المحفوظ من طرائف الأدب ، المزدحم الصدر به ، الحاضر الرواية لها خسب ، بل كان إلى ذلك حاضر البدية سريع الخاطر كثير الدعابة بارع النكتة مع لطافة روح وخففة ظل ، وبهذا الاجتماع بين ملكي الجد والفكاهة تهافت لحافظ عدة النجاح في المجالس ، وهذه العدة كذلك لا بد معها من حسن الذوق وألطاف الدياسة والتذليل

حتى لا يقع شيء من الجد أو الم Hazel في غير موقعه من حيث مناسبته لقتضي الحال من صفة المجلس وثقافة أهله، والروح الغالبة عليه، ومواتاة الظروف، وقيام البواعث الداعية واستعداد النفوس المتلبية. جميع ذلك مطلوب في النديم. وهذا موضع الامتياز في حافظ، وسر نجاحه في المجالس، إذ كان حافظ وقئذ يغشى في الآونة بعد الأخرى عدة من المجالس لا تكاد تربط بينها رابطة، فلن مشايخ الأزهر العلماء إلى أصحاب الأطيان من الآعيان، ومن قادة الأحزاب والساسة الزعماء إلى موظفى دار الكتب ثم إلى جانب هؤلاء كان حافظ شديد الاحتفال بمحالس أرباب الصحف لاتصالها بالرأى العام، وقد كان المتغلبون عليها يومئذ إخواننا لنا في العروبة من نواب الشام.

على أن أحب المجالس كلها إلى نفسه وأحاطها، فإنه ما برح من قبل ومن بعد مجلس الظرفاء من أهل الأدب ينادهم ويسير معهم، ويسلام لهم الأشعار، ويروى لهم ويسمع منهم النوادر والأخبار، ويتبادلون الدعاية ويتراشقون بالذكارات، ويتبارون في اختراع الأضاحيك والمفارقات.

ييد أن حافظاً كان يكره من مجالس الشعراء والتقاد — سواء من مدرسته أو من غير مدرسته — ما يشع فيها أحياناً من التنويه بشاعر من المعاصرين غيره، أو التعرض لذكر ما يقال بالحق أو بالباطل من قد هذا البيت

أو ذلك في شعره ، وذلك فضلاً عما كانت تدور ثواره في الحين بعد الحين بين الشعراء المتنافسين ، كما هو شأن بين أبناء كل فن .

من ذلك ثورة شاعرنا حافظ وما كان من إطلاق اساته بالتهمة والتهديد والتنقمة على معاصره ”عبدالحليم المصري“ لمعارضته لقصيدةه الأخيرة في سيرة عمر بقصيدة في سيرة أبي بكر . ولقد كان جلساء حافظ يعرفون هذه الغيرة منه على مكانته وعلى شعره ، فلكانوا يتخيّلون مثل هذه الفرض لإثارته وكانوا في ذلك داماً من المفاجين ، ولكن نجاحهم كان في معظم الأمر إلى حين ، ويشهد على ذلك قصته مع أكثر من زميل شاعر .

تولى بعض أولاد الحلال إبلاغ حافظ في هبطة المشفقيين المذكرين كيف أن صديقه أحمد نسيم سطا على أبيات مما نظمها أخيراً . وكان ”نسيم“ قد أخذ معناها وتفنن وصوغها حتى قتن السامعين عن أصلها . ولم يزل أولاد الحلال متخلقين حول حافظ في المفهوى ، يقولون ويأمدون القول في هذا الصديق الذي يواخذه ظاهرًا ثم لا يتورع من السطو عليه على أخيه الذي يكبره سناً ومقاماً ، وكأنه يأبى إلا أن يرثه حياً ، وهذا مضوا يتبارون في التعليل تلو التعليق مع شتى الحواشى والإضافات حتى أثاروا حانظاً وأوغردوا صدره ، وبينما هم كذلك إذ أقبل أحمد نسيم وألقى عليهم التحية ، فلم يره حافظ وابتدره غاضباً يسائله ، كيف جاز

لك أَنْ تَغِيرَ عَلَى قَصْبِيَّتِي الْأُخْرَى تَهْبِطْ خَيْرَ مَعَانِيهَا وَتَدْعِيهِ لَنْفَسِكَ ؟  
كَيْفَ ؟ تَخْرُجُنِي مِنْ حَوْزَتِي وَتَرْثِنِي فِي حَيَاّتِي ؟ وَكَانَ أَحْمَدُ نَسِيمُ هَادِئُ  
الطَّبِيعِ لِبَقَا أَدِيَّا ، فَأَجَابَ عَلَى الْفَورِ "يَا حَافِظَ أَلَا تَرِي الصَّغِيرَ إِذَا  
ضَاقَتْ بِهِ الْحَالُ يَمْيِيلُ عَلَى عَوْهِ الْغَنِيِّ الْوَافِرِ الْمَالُ ؟ فَإِذَا فَعَلَ ابْنُ أَخِيكَ  
غَيْرَ هَذَا يَاعْمِي حَافِظَ"؟

وَلَمْ يَرِدْ حَانِظُ ، بَلْ أَشَاحَ بِوْجُوهِهِ الْمُتَجَهِّمِ الْغَاضِبِ يَصْفِقُ ، فَأَتَى غَلامُ  
الْمَقْهُى فِي الْحَالِ ، وَإِذَا شَاعِرُنَا الْمُتَجَهِّمُ الْغَاضِبُ يَاتَّفِتُ إِلَى أَحْمَدَ نَسِيمَ  
يَسْأَلُهُ فِي صَوْتِهِ الْأَجْسَحِ الطَّيِّبِ "تَشْرِبُ أَيْهَ يَا وَادَ ؟" بِيَدِ أَنْ هَذَا  
وَغَيْرُهُ ذَرْجَيَّهُ مَا كَانَ يَبْيَنُهُ وَبَيْنَ الشُّعُرَاءِ كَافَةً ، لَمْ يَكُنْ يَشْغُلْ نَفْسَهُ  
قَدْرَ مَا كَانَ يَشْغُلُهَا مَوْقِفُهُ مِنْ شَوْقِي وَمَوْقِفُ شَوْقِي مِنْهُ ، وَنَقْتَصَرَ مِنْ  
ذَكْرِيَّاتِ هَذِهِ الْمَوَاقِفِ عَلَى مَثَالٍ وَاحِدٍ :

كَتَبَ الدَّكْتُورُ هِيكِلْ مَقْالًا فِي السِّيَاسَةِ الْأَسْبُوعِيَّةِ بِعِنْوَانٍ "شَوْقِي وَحَافِظَ"  
وَفِي هَذَا الْمَقْالَ قَدَمَ شَوْقِيَا عَلَى حَافِظَ ، وَقَضَى لَهُ بِالْتَّيِيزِ وَالْمَكَانَةِ الْعُلَيَا  
فَلَمْ يَسْلِمْ النَّاقِدُ الْكَبِيرُ مِنَ الْعَتَبِ وَالْمَلَامَةِ ، وَلَكِنَّ الْلَّائِمَ الْمُسْتَطَارُ الْغَضَبُ  
لَمْ يَكُنْ حَافِظًا ، كَمَا كَانَ الْمَنْظُورُ الْمُرَتَّبُ ، بَلْ شَوْقِيَا نَفْسَهُ . فَقَدْ كَرِهَ  
شَوْقِيَا أَنْ يَقْرَنَ أَسْمَ شَاعِرٍ مُعاصرٍ بِاسْمِهِ وَلَوْ فِي مَقْامٍ تَمِيزَهُ وَتَفَضِيلَهِ  
مُتَبَّلاً فِي ذَلِكَ قَوْلَ الشَّاعِرِ الْقَدِيمِ :

أَلمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَصْغُرُ قَدْرَهُ إِذَا قَيَّلَ إِنَّ السَّيْفَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَمِ

وفي ذلك الشأن يروى الأستاذ الطناحي في مقال له إنه زار حافظ ابراهيم وقتئذ بداره باب الحزنة، وكان الشاعر في شرفته المطلة على مربوج يخترقها جدول ماء، وهو في لبسة المفضل يرتدي جلبباً بأبيض عليه عباءة بلون البن، وفي يده عصا يهزها يمينة ويسرة أثناء حديثه هز أخفيفاً ويضرب الأرض بها إذا تحسس أو احتد، فأخذ حافظ يحدث جلساًه في فكاهة وألم.

”اسمعوا يا إخوان... إن أمير الشعراء قد غضب لقول هيكل في مقاله ”شرق وحافظ“ ولم يعجبه الجمع بين اسمه واسميه، ألم يسمع الناس يقولون ”زقى وميت عمر“ فهو لم يسمع أن زقى غضب أو أن ميت عمر احتجت؟ ألم يتذكر على سمعه قول الناس ”سميط وجينة“ ”وخيار وفاقوس“ و ”عسل وبصل“ ثم تصاحك حافظ وقال: ”أما من يكون العسل، ومن يكون البصل، فتلك مسألة أخرى“.

وهنا حاول بعض الزوار أن ينال من شعر شوقى فنفر حافظ من ذلك نفرة قوية وقال: إنه لا يرضى لهم أن يكونوا خبيثاء أو جهلاً، وهو لا ينكر على شوقى حقه في الامتياز والتقدير، ول يكن يكره منه هذه المواقف.

ولقد ظل حافظ حياته يترضى شوقى ليتخذه في أول الأمر وسيلة إلى بلوغ انجاز الرسمى منه. وكان يتعدى مطالع مدائنه الرسمية منذ

عام ١٩٠١ أن يذكر شوقى، وينهى عليه، بما يطمئنه على مكانته واستعلاً على منافسة ، فلم ينفعه ذلك شيئاً، ولم يقربه خطوة مما أراد .

فألا مات الإمام المفتى ، واشتد بمحافظ ضيقه وموجداته على شوقى أعلن ثورته في حملة كابية للرة الأولى والأخيرة في كابه ”ليالي سطيح“ وقد جعل ختام هذه الحملة ما أجراه على لسان صاحبه في ذلك الكتاب نفسه إذ يقول عن شوقى وموقف حافظ منه :

” فهو عميد رجال هذه الدولة ، فلا يكن مثلك وإياه كمثل البحترى وذئبه الذى يقول فيه :

كلانا ها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والحد يتعشه الحد

ولكن حافظا سرعان ما عاد إلى المواعدة ، ثم لم يلبث قليلاً بعدها حتى جاوز المسالمة إلى التسليم ، ولم يعن هذا بمانع حافظا حين يخلو إلى خاصة خاصة أن يرفة عن نفسه كلما ساعده شيء من شوقى بسكنية ينال بها من شخصه ، أو معارضة دزلية ينال بها من شعره ، ومن ذلك ما يروى عن حافظ حين نظم أمير الشعراء في وصف حفلة راقصة في القصر مقطوعته التي مطلعها

مال واحتسب

فيقال إن حافظا في أثناء زرته له مع صديقه البشري بجزيرة الروضة قد جعل وصديقه يتناولان القول في معارضته هذه المقطوعة على جهة الم Hazel فإذا المطلع :

شال وانحبـط وادعى العبط  
قل هـاجرـي يـبلـعـ الزـلط

حتى بلغ هو وصديقه من ذلك نحو السنتين بيـتا . ويعلم أصدقاء حافظ أن من عاداته إذا نقم على أحد لم يدع مجلسـا من المجالـس إلا روى عنه النواـدر ، والحق أنه كان يـخـيرـ النـواـدرـ الـواـقـعـةـ فـعـلاـ معـ التـزـيدـ فيهاـ بماـ يـخـرجـهاـ مـخـرـجـ المـهـزـلـ حتـىـ تـشـيعـ منـ قـبـيلـ الأـضـاحـيكـ فـيـنـالـ بهاـ منـ خـصـمـهـ ، وـمـنـ هـذـاـ القـبـيلـ ماـ كـانـ يـرـوـيـهـ عنـ بـخـيلـ منـ هـؤـلـاءـ ، فـقـدـ زـعمـ حـافـظـ فـيـ حـكـاـيـتـهـ عـنـهـ أـنـهـ كـانـ يـشـتـرـىـ الدـجـاجـةـ ثـمـ يـنـفـيـخـهاـ بـمـنـفـاخـ المـدـراـجـةـ وـيـقـدـمـهاـ إـلـىـ أـهـلـ بـيـتـهـ عـلـىـ أـنـهـ دـيـكـ روـمـيـ .

وـائـنـ كـانـ مـنـ بـيـنـ هـذـهـ النـواـدرـ مـالـمـ يـصـدـرـ أـصـلـاـ عـمـنـ يـلـصـقـهـ حـافـظـ بـهـمـ وـيـنـسـبـهـ إـلـيـهـ ، فـلـانـ عـذـرـ حـافـظـ وـشـفـيـعـهـ أـنـهـ كـانـ جـدـيـرـةـ بـأـنـ تـصـدـرـ عـنـهـ لـمـوـاقـقـتـهـ طـبـاعـهـمـ ، وـاتـسـاقـهـ مـعـ سـائـرـ فـعـالـهـمـ ، وـشـأنـ حـافـظـ فـهـذـاـ شـأنـ الـفـنـانـ الـأـصـيـلـ إـذـاـ فـاتـهـ الـحـقـ الـوـاقـعـيـ ، فـلـانـ يـفـوتـهـ الـحـقـ الـفـنـيـ ثـمـ إـنـ حـافـظـاـ كـانـ بـعـدـاـ بـطـبـعـهـ وـسـلـامـةـ قـلـبـهـ وـطـيـبـةـ نـفـسـهـ عـنـ الدـسـ الـذـيـ

لا يعرفه في كثير أو قليل ، ومن هُنَّةٍ كان جهوده في خصوماته كلها  
من هذا القبيل .

بيد أن حافظاً كان كسائر المطبوعين على روح الدعاية لا يكاد يكون  
له سلطان عليها ، فهو يتناول برسومه الهازلة وافتتاحه الفكهة ونكاته عامة  
خصوصه وأصدقائه ، لا فارق إلا في تلك المسحة من حرارة الخصومة  
مع الترفع عن الحقد .

فهو يتناول بالدعاية صديقه الحميم الشيخ عبد العزيز البشري ، فيخلع عليه  
صورة شهود المحاكم الشرعية كما يمثلون فيما يأبوا بها على أهبة الخلف  
على الدوام ، وكان سبيل حافظ إلى ذلك أن يصمد فيروى خبراً مصنوعاً  
لایجوز قبوله على السامعين ، ثم يلتفت حواليه كالباحث ويقول : "ياخسارة  
لو أن الأستاذ البشري هنا لكان أقسم لكم " .

ويروى حافظ في هذا المعنى نوادر يتفنن في إبداعها . ومن ذلك ما يزعمه  
من أن الشيخ البشري كان حاضراً في إحدى القضايا ، وكان الشهود  
يتقدمون بين يدي المحكمة شاهداً بعد شاهد يدلّي كل منهم في القضية  
بشهادته بعد أن يقسم اليدين ، ثم اتفق أن كررت المحكمة على أحد الشهود  
أن يؤدي القسم فلم يبادر ، فإذا الشيخ البشري ينبعث من مجاسمه قائلاً  
في لهجة المتجمس "تسمح لي المحكمة أن أحلف نيابة عنه " .

وديهات أن يسلم حفظ من دعابة صديقه الأستاذ البشري وهو من عرفا دقة ملاحظة وذلاقة لسان ، وعلو طبقة في البيان ، مع طول الاباع في النكتة ، وكأن الإنان حافظ والبشرى إذا اجتمعوا في مجلس تباريَا كفرسي رهان ، فأصبح المجلس بهما قطعة من الجنان ، من فرط ما يدخلانه على النفوس من البهجة والأنس والسرور .

ومن أظهر المفارقات في حافظ أنه على قلة حظه — مثل سقراط — من ملاحة الصورة ووسامة الطلعة ، كان شديد الاعجاب والاحتفال — مثل سقراط — بمن خصتهم الطبيعة بالحسن ، وأفرغتهم في قلب الجمال . وكان احتفاله بالجمال لا يعدله إلا نفوره من القبح وكراحته له ، وليس هذا بالغريب ولا سينا من شاعر ، ولكن الغريب ، على حد تعبير الأستاذ البشري ، هو أنه كان يجا به بذلك الكره مجا بهة من لا يتقوى القول ولا يتخرج ذلك لا يطاع عليه دميم الخلقة غير مستوى معارف الوجه إلا قال له ”يا قى ليس الوزر عليك بل على أبيك لأنه لم يؤد مهرا“ .

وقد أغتنم الأستاذ البشري ذات مرة أن كان المجلس من دحما بالحاضرين فلم يكدر يفرغ الضاحكون من ضحكهم لنكتة حافظ هذه حتى ارتفع صوت البشري ”إذا اطردت القاعدة يا حافظ ، فلاشك ان المرحوم والدك تزوج على الطريقة الإفرنجية ، فلم يدفع مهرا ، بل هو الذي أخذ ”الدوطة“

و كانت مفاجأة لحافظ ابراهيم ولمن كانوا بالمحاس ، فانفجروا يضجعون  
بالصحيح منهلين ” .

و من المعلوم عن حافظ مترجم المؤسأء أنه كان بالأسافى حداثة و في عنفوان  
صباه و شبيته ، ولكنه لم يتمثل من هذه التجربة القاسية المريرة الطويلة  
قيمة المال . بل لعله تعلمها فلم يكن يحبس المال عن ذوى الحاجة من  
الخلان ، وهو الذى ذاق ما ذاق من صرارة الحرمان ، وقد روى الرواية  
كثيرا عن حافظ و نوادر كرمه على الناس وعلى نفسه . وهم يذكرون كيف  
كان حافظ في هذه اللحظات يبدو كأنه من الوارثين أصحاب الملائكة ، وقد  
يكون في تلك اللحظة قد آتى على آخر مليم من مرتب شهر كله ، ونحن  
لا نرضى سرا إذا ذكرنا أن حافظا كان كثير البر بزميل له منذ أيام الفاقة  
من الشعراه الظرفاء أهل الذكرة ، وعني به إمام العبد ، و كان إمام يزعم  
للناس ببريراما يناله من إحسان حافظ إليه ، و بره به ، أنه صاحب الفضل  
الأول على حافظ لأنه هو الذى خلق منه شاعرا . و انتهى خبر ذلك إلى  
حافظ فحفظها له حتى إذا جاء كعادته يلتئم عنده بعض المال أجراه  
بالعبارة المأثورة ” أنا يامولاى كا خلقتني ” ثم اتفق أن طالت غيبة إمام  
فذهب حافظ يزوره ، ثم عاد إلى أصدقائه يقول : لو رأيت البيت الذى يسكنه  
إمام ، في حياتى ما رأيت ، ولا أحسبني أرى بيتا مثله في الصيق ، وقد  
سمعت أن الخفير يشكر كل ليلة من أنه كلها مربه وجد نفسه ضبطه على التوقف

عن المروء فينادى : يا إمام رجليك طالعه من الشباك ، يا أنجى مش ضروري  
تنام متعدد .

وهنا نرى لزاما علينا أن ننبه إلى أن حافظا في مجالسته لأقرانه من الأصدقاء لم يكن يختلف كثيرا عن حافظ في مجالسته لأهل السيادة والزعامة ويشهد على ذلك ما يحكي عنه حين دعى لمقابلة السلطان حسين كامل في أزمة اعتلاله واحتلال أعدائه ، فقد بلغ من انبساط حافظ في الحديث أن علت قهقهته وأعقبتها قهقة السلطان ، وسمع كبير الأمناء صوت حافظ الأجنش وهو يقول «أبوك . . . وجدك بضميرا المفرد» ، وفي غير ما تحفظ ولا كلفة في الحضرة التي كانت وقته الحضرة العلية مما يعد اجتراء على تقليد ذلك الزمان .

ومن كان يتربّد عليهم حافظ في أيامه من الزعماء سعد زغلول ، فكان حافظ يزوره في بيت الأمة في القاهرة ، وكان سعد يزداد يوما بعد يوم الغلة له وأنسها بمحالسه في أوقات الفراغ وانبساطا لحديثه ، واتفق ذات يوم أن احتجز سعد بعض رجاله للغداء على مائدة وكان حافظ من زواره ، فدعاه كذلك ، وكان بين الزوار بعض من يمت بوابشة الأرحام إلى سعد ولكنه عتهم بميله إلى المراى ، وكان الخلاف معها على أشدّه ، بيد أنه لم يكن يستطيع في حدود الآياقة تجنب دعوة هذا الضيف الزائر . وقد شاءت المصادفة أن يكون مجلس حافظ على المائدة في مواجهته .

ولم يفلح حافظ كعادته في إشاعة السرور في المجلس ، فقد كان بعد متجهم على الرغم من تحمله وتجمله لأنه كان بين أمرتين كلًاهما من شدید عليهما، وهما المصانعة أو نسبة الغفلة إليه ، ولم يغب عن حافظ سر ذلك ، فما هو إلا أن جاءت الحلوى حتى توجه بالخطاب إلى الضيف الثقيل الذي يواجهه ، وقال في لهجة بريئة يسائله ” ما رأيك في هذه الحلوى ، قل الحق أليس أطيب مساغا وأصدق حلاوة من عيش السrai ” فارتبك الرجل وغمغم مؤمنا ، واشتراك في التأمين الحاضرون وتشاغل بالضحك الفاحمون ، فزال عن سعد تجهمه وسرى عنه . ثم صار حافظ يدعى لزيارة سعد أثناء اصطيافه في عزبته ، بمسجد وصيف ، وهذا كانت الزيارة أطول وأمتع فقد كان سعد يستيقن زواره بطبيعة الحال للغداء ، ومن ثمة كان ينفسح لحافظ مجال النوادر والفكاهات يتناقاها الرواة مع اختلاف في الروايات لا يعود التفاصيل والجزئيات ، وزروى من ذلك زيارته لسعد في صيف عام ١٩٢٦ مستفسرا عن صحته ، وقد كان أن استيقاه مع غيره من الزوار للغداء فلما فرغوا من الطعام جاء الخدم بأطباق الفاكهة . من التفاح والكمثرى وكان هو حافظ في الكمثرى دون التفاح ، ولعل الضيوف لم يعرفوا ذلك عن حافظ ، أو لعلهم كانوا يعرفونه ولكنهم قصدوا إلى غيظه وإخراجه عن طوره ، فقد كان إقباهم جميعا على الكمثرى ، على نحو أشفق منه حافظ

على نفسه فرفع صوته يخاطب سعدا ، ” يا سيدى الرئيس ، رجأى إلينك وأنت أبلغ الخطيباء أن تخطب هؤلاء القوم في مزايا التفاح ؟ بيد أنه مع كثرة ما يروى من نوادر حافظ ، فإنها لا تعدل ما كان منه أثناء مقامه أيامما مع الدكتور محجوب ثابت في ضيافة سعد في مسجد وصيف . ولقد كان ما يجري من غرائب النوادر والحكايات عنهم هناك يسرى على الفور إلى مجالس القطر كله في مختلف الأرجاء . ومن المعلوم أن الدكتور محجوب ثابت كان وقئد متقدما في السن ، وكان متشاغلا عن الطب بالخوض في السياسة والأحداث الجارية في مصر لذالك العهد . وكانت له عناية خاصة بالسودان ، وكان إذا تحدث في السياسة خاطط بعيد بالقرب ، وطروح بالحديث في جوانب متفرقة شأن العالم الخبير بسياسة العالم كله . وكان ينطق في كلامه العامي بالقاف . وكان همه الشاغل في تلك الأيام الحصول على مقعد من مقاعد النواب في البرلمان ثم تعيينه وزيرا مع ما يساوره من الأمل في الزواج من حسناء من ذوى مدادين .

ومن أشهر النوادر التي تروى في هذا الشأن هذه واقعة : كان سعد زغلول مستجحا في منزله الريفي في مسجد وصيف ، فوفد عليه فيمن وفدوا للزيارة والإقامة أيامما الدكتور محجوب ، وحافظ إبراهيم وآخرون . فلما كان الصباح جلس سعد وصحابه إلى مائدة الإفطار ، وتخالف الدكتور محجوب ثابت وطال انتظارهم له ، ثم حضر فسائل عن سبب تأخره ، فأجاب بهيجته

المعهودة بأنه كان يحمل حلماً وتعوق عن القيام حتى ينتهي الحلم ، فطلب منه سعد أن يقص عليهم الحلم ، فقال : ”رأيتني مقعداً ثوراً كبيراً وقد أخذت بقرنيه ، والثور يقفز بي سريعاً ، ومن خلفه عدد كبير من الحمير“ فقال سعد زغلول ”فسر لنا هذا الحلم يا حافظ“ وكان حافظ مشهوراً بالاعتقاد في دلالات الأحلام فقال مفسراً : ”أما الثور الذي يركبه الدكتور فهو كرمي يتبوأه في مجلس النواب ، وأما أخذه بقرنيه وهو يقفز به فعنده بلوغه إلى منصب الوزارة“ قسأله بعض الحاضرين : ولكن ، ما هذه الحمير التي تجري وراءه ؟ فقال حافظ : ” أولئك هم ناخبوه“ وبعد الإفطار انتقل حافظ إلى حيث خلا بنفسه ، ونظم في وصف الدكتور محجوب ثابت قصيدة المشهورة التي يقول فيها :

يرغى ويزد بالقافات تحسبها  
قصف المدافع في أفق الستين  
من كل قاف كان الله صورها  
يرغى ويزد بالقافات تحسبها  
من مارج الناز تصوير الشياطين  
قد خصبه الله بالقافات يعلوها  
واختص سبحانه بالكاف والنون  
حينما فيخاطب مختلاً بموزون  
يغيب عنه الجما حينما وتحضره  
من كردفان إلى أعلى فلسطين  
لا يأمن السامع المسكين وتبته  
إذا به يتحدى القوم في الصين  
يغيب عنه الجما حينما وتحضره  
لكنها عبقريات الأساطين  
يغيب عنه الجما حينما وتحضره  
ولم يكن ذاك عن طيش ولا خبل

يبيت ينسج أحلاماً مذهبة تغنى تفاسيرها عن ابن سيرين  
طوراً وزيراً مشاعاً في وزارة يصرف الأمر في كل الدواوين  
وتارة زوج عط رسول خدبة حسنة تملك آلاف الفدادين  
يعفى من المهر لا كراماً للحيته وما أظله من دنيا ومن دين  
ونحن لو تركنا عنان الكلام بهذه الذكريات لم نبلغ آخرها إلا بعد  
أيام فلا مندوحة الساعة من ختامها بذكرى — وإن تكون حزينة — من  
ذكريات الختام .

كانت الشيخوخة قد عجلت إلى حافظ قبل السنين ، فتوهم المرض  
وكثرت وساوسه ، وصار يراجع الأطباء والمتخصصين ، ويلتمس الدواء  
في كتب الأولين أمثال تذكرة داود الانطاكي ، وكتاب الرحمة في الطب والحكمة .

ويذكر الشيخ البشري عن حافظ أنه ما يلقاك إلا بشك علة طارئة  
وطالعك بشكاة جديدة ، وأنه ما سمع بعلة إلا أحسن أعراضها ، ولا وقع  
على عقار من العقاقير إلا اتخذه وتداوي به .

ويروى من نوادره في ذلك ، أن صديقاه لقيه مررة في الطريق  
وهو منقبض النفس ، ومتربد الوجه فسألها : ما به ، فقال له : إن المصاران  
الأعور عندى ملتهب ، فقال له صاحبه : وبماذا تشعر ؟ فقال : أشعر

بوجع شديد هاهنا ، وأشار بيده إلى جنبه الأيسر ، فقال له : إن المصران الأعمور إنما يكون في الجنب الأيمن لا الأيسر ، فأجابه من فوره ”يمكن أكون أنا ياسيدى أبور شمال“.

وأكبر الظن أن حافظاً كان يعاني داء بالمعدة ، وقد كان يقيم الحين بعد الحين على الحمبة ، وقد ذكر ذلك آخر مرة لقتيته فيها على رائدة منزله الصغير بضاحية حلوان .

ولا أحب أن أكتتمكم أنني شاركت في هذه المأدبة دون دعوة من صاحبها ، فقد كان المدعون إليها الأستاذة : عباس العقاد و إبراهيم المازنى وزميلا ثالثا ، فاتفق أن لقائهم ظهرًا في صحيفة الأخبار التي كان يصدرها المرحوم أمين الرافعى ، فلما هممت بتوديعهم عند محرفهم ذكروا أنهم مدعوون للغداء عند حافظ ابراهيم ، وأبوا إلا اصطحبانى معهم ، وكنت أحتاج لأنني غير مدعو ، وهم يضحكون من هذا المارض مؤكدين أنه تقليل غير معترف به ولا معمول برسمه عند شاعرنا حافظ ، ومضيت معهم مغلوبا على أمري ، ووصلت بابه وأنا أتعذر نجلا من قدمى عليه قدوم الواغل الطفيلي ، فاستقبلنى الرجل كما استقبلهم في بشر طبيعى دون أن يتكلف لي مزيدا من الحفاوة ، مما أشعرنى حقيقة أن القدوم عليه من غير دعوة أمر مألوف عادى ، ولم يكدر يستقر بنا المقام حتى التفت حافظ

إلى الزميل الذي لا أسيه ، وكان مستكرشاً عظيم البطن منهقه ، متكتلاً  
للسمنت والوقار فأخذ يعابه نارة ، ثم يستطرد إلى الحديث في موضوع  
عام ، ثم يعود إليه بالمداعبة تارة أخرى . ومن ذلك حديثه عن زعيمة  
من زعيمات الحركة النسائية السافرات لذلك العهد ، وهي صربية واضلة  
لم يكن لها من الوسامة أدنى حظ ، فيروى ما يحضره في التمثيل لأوصافها  
من شعر العرب ، ثم يجعلها المسئولة عما كان من نفور الناس من الشعر مع  
كثرة ما قبل منه في تأييد دعوة فاسق أمين إلى التحرير والمساواة بين المرأة  
والرجل ، وعندها يلتفت حافظ إلى زميلنا المستكرش البطن ويقبل عليه  
في جديسه : «ما أراك إلا من القائلين بالمساواة بين الرجل والمرأة»  
فإذا رد الزميل بالإيجاب قال حافظ : «ظاهر عايك اقد حمات عنها حملها»  
وذلك الغاية التي لا غاية بعدها في المساواة بين الجنسين .

ولا يزال حافظ يعابث الزميل من قريب ومن بعيد ، وكلما خشى جفوة  
القول نخرج من التخصيص إلى التعميم ، حتى إذا أعدت المائدة دعانا  
إليها ، واتخذ مكانه في مواجهة الزميل ، وجعل يغريه بالأكل ، ويشجعه  
على المزيد كلما فتر ، ويدرك له من كانت البطنة سبباً لهم إلى الشهرة ثم حانت  
منه التفاتة إلى ناحيتي أخذ بعدها يلاحظني وأنا عاكف على هذه الألوان  
من الطعام الشهي ، فلم يلبث أن خلى عن الزميل البدن واتجه إلى القول  
مظهراً بعجبه من كمية الطعام التي استوعبتها مع ما كنت عليه وقبلاً

من النحافة والهزلال، وجعل يردد هذا ”والله أنت كالمخازنة التي بها درج سرى، أو مايسماونه بالدور المسروق، في المنازل القدية، ماذا ترك كنت فاعلا لو كنت محسوبا في عداد المدعويين؟“ هلا ذكرت يا أستاذ أني مدعي من باطن مدعي“، وكذا من هذا الذي يقوله حافظ لا نكف عن الضحك على المائدة، ولو أن غير حافظ قال بعض هذا القول لكان مستنكرا، ولكنه كان يقول هذا وأكثر من هذا في بساطة وطيبة يجعلان كلامه فكاهة خالصة ترك المعرض لها أشد الحاضرين ضحكا منها وطرد بالسماعها.

وما يجدر بهذه المناسبة توكيده والتتويجه به أن حافظا لم يشاوئكافي معظم ألوان الطعام لأنها كانت من المحظورات عليه بأمر الطبيب، ولكن ما كان عليه من حب لها، وولع قديم بها حبب إليه تقديمها لأحبابه لما كان يجده في نفسه من الارتياح والرضى كما استطابوا طعمها حتى لكانه هو الطاعم منها المستمتع بها.

وإذا ذكرنا أثر الشائع عند عامة الناس هو عكس ذلك، وضح لنا ما جبلت عليه نفس هذا الرجل من الطيبة الطبيعية والمشاركة الإنسانية إلى الحد الذي يعز منه وينذر منه.

وإذا كان إما أن نعرب عن أسفنا على شيء في هذا المقام، فهو أن حافظ ابراهيم لم يعن بتسجيل ما كان له في شأن الناس والمجتمع من تلك النظارات

والمحواط على صورة النكات والنواذر التي كان لا يفتا ينشرها في مجالسه ولعله غاب عن حافظ في مغالاته بقدر أشعاره أن هنالك من النقد الفكاهى مما يدخل في عداد الأدب غير الرخيص ، وأن الخلود كان نصيب الكاتب الأسباني سرفانتيس من أجل تصويره الفكه للفارس دون كيسيوت ، وكذلك كان خلود الكاتب الايرلندي سويفت في حكاياته لمغامرات السائع جايفر ، فضلاً عن إعجابنا المتزايد بتلك الآية الساحرة التي خالفها لنا أبو العلاء المعرى في رسالة الغفران ، على أنني ربما آثرت من فرط حبنا لحافظ أن أصدق الذنب هنا بعصر حافظ ، فقد شاءت أناانية أهله أن يستأثروا المجالسهم بهذه الروح العذبة الاطيبة الفكاهة ، وهكذا قضوا على الأجيال القادمة في مسائِنَف الدور ألا تتصل بهذه الروح في فكاهتها الحلوة إلا عن طريق هذه التفاريق من الذكريات على ما بها من عجز وقصور .



## دَارَسَهَا مَارْجِيَّةُ لِسْرُهَا فَاطَّ لِدَكْتُورُ شُوَّيْفَيْ قَضِيقَتْ

كان طبيعياً أن تقيم لحنة الشعر في المجال الأعلى للآداب والفنون أثناء العيد الخامس للثورة مهرجاناً عظيماً لذكرى حافظ إبراهيم تمجيداً له ووفاء لما بذل من ذات نفسه وشعره في نضال الاحتلال الإنكليزي ، فقد ظل حقبة متطاولة من حياته يرمي العدو الغاشم بسهام أيةاته المصمية ، زائفها عن الحرية ، ومصوراً آلام الشعب وأماله وما يرنو إليه من حياة عزيزة كريمة .

وكأنما اختارت ربة الشعر ليدافع عن وطنه في هذه الحقبة المظلمة من تاريخه ، وقد جمعت له كل الأسباب ، ليستشعر المحن ، ولن يكون صوت مصر في تلك الأيام البائسة ، والهاتف بخواطر روحها الموجع المحزون فقد أنبأته في أسرة مصرية من أسر الشعب المتواضع ، ولم تثبت أن حرمه من رعاية أبيه ، وهو يخطو على عتبة السنة الرابعة ، فكففه حاله ، وكان مهندس مبيان ، ولم يكن على حظ من الغنى والثراء ، وإنما كان

موظفاً بسيطاً محدود الدخل ، يعيش عيشة كفاف ، فيها غير قليل من الشظف والبؤس والحرمان .

نشأ شاعرنا في هذه البيئة المصرية المكرودة ، فذهب إلى الكتاب ثم إلى المدرسة في القاهرة وانتقل به حاله إلى طنطا ، ولم يلبث أن استيقظت فيه مواهبه الأدبية ، واندلع إحساسه بالبؤس في نفسه ، واندلع معه قلق شديد ، ففك في وسيلة يكسب بها عيشه ، حتى لا ينفل على حاله بمئونته ، واتجه إلى المحاماة ، وكانت مهنة حرة ، وليس لها قانون مسنون ، إنما تعتمد على الفصاحة وذلاقة اللسان . ولم يستقر في مكتب محام بعيشه ، بل أخذ يتنقل بين مكاتب المحامين المختلفة ، ويتناقل معه ضيقه وتبرمه بالحياة وقلقه الذي كان دائماً يرافقه . وفاض نبع الشعر على لسانه ، فصب فيه نفسه القلقة الخائرة وما شعر به من بؤس وهم ثقيل . ومن شعره في هذه الفترة :

عجبت لعمري كيف مد فطلاً وما أثرت فيه الهموم فزلاً  
وللwort ، مالي قد أراه مبادعاً وجل صرادي أن أوسد حالاً  
فالموت خير من حياة أرى بها ذليلاً وكنت السيد المفضلاً

ويمثل هذا النغم الحزين استهل شعره ، يسلمه على قيثارته ، يندب عاثر جده وسوء حظه متبرماً بزمنه وأرائه ، ومتمنياً لو يوافيه الحمام .

وعلى هذه الشاكلة كانت الشكوى الشخصية من الزمن ومن حياة الضيق والعسر الموضوع الأول الذى افتتح به حافظ حياته الفنية ، ولكن كيف أعد نفسه للشعر وعلى أى الأساتذة درس أصوله ؟ الحق أنه لم يتعلم فن الشعر على أستاذ ، بل عكف بنفسه على قراءة الشعر القديم ، وكان له من اسمه أوفر نصيب ، فاستظهر كثيرا من درره وقصائده ، لبشار وأبى نواس والبحترى ، وأبى تمام وأبن الرومى والمتنى والشريف الرضى وأبى العلاء وأضرا بهم ، وأثرت نفسه حب البارودى وما شرعه للشعراء من نبذ الأسايل الغنة الساقية الذى انتهى إليها الشعر فى عصره ، والرجوع به إلى قوله العباسية الحزلة المتينة القوية الرصينة ، بحيث تصور شخصية الشاعر ونفسه ووطنه وبيته . وود حافظ لو أصبح من مدرسته ونسج على منواله ، وكان أول ما فكر فيه من تقليده أن يتخذ لنفسه سيرته ، ويجرى حياته في نفس الدرب الذى سلكه ، فهجر طنطا ومكاتب المحامين بها والتحق بمدرسة الحرب ، وتخرج فيها ضابطا سنة ١٨٩١ ويعين في وزارة الحريمة ، ويعاوده الضيق والقلق الذى يستحوذ على كيانه ، وينقل إلى وزارة الداخلية ثم يعود إلى الحريمة .

ويحيى في ذلك نحو خمس سنوات يتعرف فيها على بعض الشخصيات من الأمر المصرية كأسرة أباذه وأسرة البكري ، كما يتعرف على بعض الأدباء ، وكانت فيه فكاهة نشأت من روحه المصرية ، ونها عنده سرعة

بديمته ، فكان حبيبا إلى كل من يعرفه ، واستطاع بفضل راتبه أن يعرف أطراها من الله .

وشعره في هذه الفترة لا ينم على نضج فنه ، فهو لا يتجاوز به المدح والتهنئة والتعزية لبعض أصدقائه ، وأثر التكافف واضح فيه ، فهو يبالغ على طريقة القدماء في معانיהם ويتخذهم نماذج له ويحاول أن يحاكيهم . ولكن أيظل حافظ في هذه الحياة الضيقة الراكرة ؟ وهل تظل حياته الأدبية محدودة بدائرة أصدقائه ودائرة هذا التقليد للقدماء في موضوعاتهم الشعرية ؟ إن ربة الشعر لم تعد لمصر ليكون شاعر أفراد ، ولا شاعراً تقليدياً يعيش في إطار الشعر القديم ، إنما أعدته ليكون شاعر أمته في محنتها أثناء الاحتلال وشاعر نفسه وشجونه . إذن فلا بد من حادث ضخم يخرجه من حدود بيئته وحدود تقليده للقدماء في موضوعاتهم الأدبية . وخرج حافظ من وطنه مع حملة كتشنر إلى السودان ، وصفقت ربة الشعر طرباً ، فإن حافظاً يوشك أن يؤدي الرسالة المرجوة منه ضد الاحتلال وأفاسعه وسيموه . لقد أخذ يعمل مع الإنكليز أعداء وطنه وجهها لوجه ، وأخذ يصل نار السودان وفيافيه ، ونار كتشنر اللاذعة المحرقة .

لم يكن بد لحافظ الذي تمثلت في روحه روح مصر الباسلة من أن يصطدم بهذا القائد الإنكليزي ، وسرعان ما اصطدم به فكتب أيام اسمه : لايرقى

ولا يرى . و سخط حافظه و قلق و ضجر ، واستبد به القلق والضجر ، فكتاب الشيخ محمد عبد زعيم الحركة الفكرية حينئذ كي يتوسط له في رجوعه وتخايمه من براثن العدو الغاشم . وراسل رفقاء لهوه في القاهرة يتشوق الى وطنه . صوراً المحالس لطوبهم ونهرهم . وكأنه يود لو أغرق في النهر أحزانه . وبذلك عاد إليه لحن شكوكه الفدسيم ، ولكنه يطبع هذه المرة بالأسى على وطنه والسودان من ورائه ، وتصور ذلك خير تصوير قصيدة به ” العلما الإنجليزى والمصرى في مدينة الخرطوم ” .

رويدك حتى ينفق العلمان وتنظر ما يجري به الفتيان  
فأكابر ظني أن يوم جلائهم ويوم نشور الخلق مقتربان  
ولكنها مرهونة لأوان مصر كالسودان لقمة جائع

وليت حافظاً كان يدتنا اليوم ليرى أن معجزة إخلاه تتحققت ، وأنها لم تنتظر حتى أمارات الساعة ، غير أن ظلمة الاحتلال ودياجيه كانت تأخذ الوادي من جميع أطرافه ، فلم تلمع أمام عينيه بارقة أمل في جلاء العذاب عن ثرى الوطن ومقدراته . وما زال طهيب سخطه على كتشنز والإنكلزيز يضطرب في قواه ، حتى ثار عليه مع طائفة من رفقائه الضباط ثورة تعيد إلى ذاكرتنا ثورة الضباط الأحرار على توفيق أيام عرابي . وفكرت الحكومة المركزية في محاكمتهم ، ثم رأت إلاكتفاء بإبعادهم إلى بلدهم .

وعاد حافظ إلى مصر في سنة ١٨٩٩ محالاً إلى الاستيداع، حتى إذا كانت سنة ١٩٠٣ أُحيل إلى المعاش. وهو في هذه الفترة يبدوا متعددًا في الطريق التي سينتمي إليها شعره، تارة ينافس الشعراء القدماء، في موضوعاتهم التقليدية من غزل و مدح و رثاء و تهنئة و عتاب ووصف للكأس والطاس، وتارة ينفصل عنهم ليصور همومه و هموم أمته إزاء الاحتلال.

وحاول أن ينظم مقطوعات في وصف الطبيعة. ولكنه أحسن من أعماقه أنه ليس شاعر طبيعة ولا حب ونهر و مناسبة عارضة، إنما هو شاعر شعب يعاني من أثقال الاستعمار وأغلاله. فهو يكتب شعره من صفيح قلبه.

ضفت في الشرق بين قوم هجود لم يفيفوا وأمة مكسال  
قد أذالوك بين أنس وكأس وغرام بطيئة أو غزال  
ونسيب ومدحه وهجاء ورثاء وانتهاء وضلال  
آن يا شعر آن نفك قيوداً قيدتني بها دعاة الحال

وحاول الخديوي عباس أن يرعاه، ولعل ذلك سبب مدحه له حينئذ، ولكن نفسه المصرية أبت عليه أن يكون من رعايا القصر وسدنته.  
وبدلاً من أن يتجه إلى عباس ورعايته اتجه إلى خصوصه الشعبيين وحاملي لوائهم الشيخ محمد عبده الذي كان يكتبه من السودان. إنه يفضل كسرة

ياته وما هو فيه من عوز وإملاق على عباس وذببه ، وانتصرت مصر في شخصه على الفخر وصحبه . أما الإنكليز فإنه ياعنهم ويصور بغيرهم وظلمتهم وما يعصرون من خيرات الوطن وطبياته ، بينما يعتدون على أبنائه ويرمون بأحرارهم في غياب السجون :

متى أرى النيل لا تخلو موارده      لغير مرتهب لله مر تقب  
فقد ندت مصر في حال إذا ذكرت      جادت جفونى لها باللؤاف الرطب  
كأنى عند ذكرى ما ألم بهما      قرم تردد بين الموت والهرب  
إذا نطقت فقاع السجن متکاً      وإن سكت فإن النفس لم تطب  
أيشتكى الفقر غادينا ورانينا      ونحن نمشى على أرض من الذهب  
والقوم في مصر كالإسفنج قد ظفرت      بماء لم يتركوا ضرعاً لمحتب

وكان في هذه السنوات الأربع لا يزال خائفاً يتربص بالحتل وعدوانه وسجونه ، فأوحى إليه شيطانه أن يصانعه ، فرنى الملكة فيكتوريا حين ماتت في سنة ١٩٠١ وهنا خايفتها إدوارد السابع بتوجيه حتى لا يهيج حفيظة القوم عليه وحتى يأمن شرهم وكيدهم وما كانوا يفكرون .

ويبلغ الإعصار العاصف في نفسه قوته ، فيطلب إحالته إلى المعاش ، ويحاب إلى طبله ، ويصبح صوتاً خالصاً لوطنه وشعبه والشعوب العربية والشرقية من حوله .

وفي هذه الفترة التي تمتد من سنة ١٩٠٣ إلى سنة ١٩١١ يتضح فن حافظ، ويبلغ الأوج المتظر. حقا إنما تلميذ البارودي، وقد أخذ يغشى مجالسه منذ عاد من منفاه سنة ١٩٠٠ ويتلق عنده قوله شعره محكمة نامة، ولكن من الحق أنه لم يكن يقلده تقليد الضرير، إنما كان يتأثر خطاه، ويحاول أن يتم رسالته من تصوير الشاعر لأمته وعصره. ومن الحق أيضا أنه يتميز عنه وعن شوقي في أساليبه، فهو أكثر منها وضوها، وأكثر منها استخداما للفصيح المأثور في لغتنا المصرية لسبب بسيط، وهو أنه ابن الشعب، لم ينشأ مثلهما في طبقة أرستقراطية، إنما نشأ في طبقة ديمقراطية، ولذلك كان أدنى إلى الشعب في لغته وفي روحه.

وتصادف في إبان هذه الفترة من حياته الفنية أن اكتافه للأجواء الأدبية بحملة رهيبة على لغتنا الفصحى، وارتفاع ضجيج ينادي بأنها لا تمثل البلاد العربية الناطقة بها، وخير لكل بلد عربي أن يستخدم مكانها لغته المحلية. واحتاط هذا الضجيج بأصوات بعض المستشرقين الانكليزيروجون للدعوة، حتى تنفص عن الوحدة العربية، وينابذ أهلها تنايضا لا يحتملون بعده. واستشاط الجندى القديم غضبا لغة القرآن الكريم، وامتشق قلمه وطعن به دعوة القوم طعنة نجلاء بقصيدة انتالدة على لسان الفصحى: رجعت لنفسى فاتهمت حصانى وناديت قومى فاحتسبت حياتى ولم تقم القوم بعد هذه الطعنة فآمة.

وعنفت الثورة بنفس الجندى القديم ، فاقتصرت بقلمه وألسنة أبياته  
بمادين السياسة والإصلاح الاجتماعى فى جرأة وحماسة بالغة . وكل من  
يقرأه فى هذه السنوات المئان من حياته لا يملك إلا أن يطأطىء الرأس له  
إجلالا ، فقد أصبح أقوى صوت شعري للشعب وأضخمها ، ويصرخ  
في وجه المستعمر يريد أن يزلزل عليه الأرض زلزالا ، ويصرخ  
في أمته يريد أن يدفعها إلى الثورة دفعا ، ولكن أمته لابد لها من سلاح ،  
لابد أن تسلح للمستعمر بالعلم وبالخلق القوى ، ولا بد أن تخلص من كل  
ما يفت في عضدها من تقائص ومعايب . فليصرخ حافظ هنا وهناك ،  
حتى يستحضر همة شعبه وحتى يحفزه إلى ما يريد من نهضة قوية .

ولابد لكي نفهم في دقة هذه الدورة التاريخية اشعر حافظ أن نعرف  
أنه كان يعيش في بيئات مختلفة في وقت واحد ، إذ كان متصلًا بكلار  
المصريين ، ولا تتصدى طبقة الترك الارستقراطية ، فقد كانت تميش  
على هامش الحياة المصرية ، إنما تتصدى الطبقة الممتازة من المصريين الذين  
استطاعوا بفضل نشاطهم العقلى وجهودهم العلمية أن يصلوا إلى مناصب  
عليها في مرافق البلاد المختلفة ، وأكثريهم من أبناء الفلاحين ، أمثال الشيخ  
محمد عبده ، وقاميم أمين ، وحسن عاصم ، والشيخ على يوسف ، ومصطفى كامل ،  
وهي الطبقة التي كانت تطمح إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسي  
وكانت تدعو إليه ، كل فى مجاله . وكان من أهم ما يميزها شدة شعورها

بآلام الشعب وظلماته وأماله ومطامحه ومثله العليا غير المحدودة . ولم تكن أحاديثها تدور إلا في هذه الأفكار ، يتحدث محمد عبده في مجالسه دروسه عن الجمود الديني ، ويتحدث قاسم أمين عن السفور وتحرير المرأة ، وحسن عاصم عن أعمال البر والخير ، وعلى يوسف عن الصحف الخالق ، ومصطفى كامل عن الاحتلال وشورة آثاره .

وكان حافظ يشركهم في هذه الأحاديث ، وينقلها بشعره إلى الشعب — وكأنه آلة مصورة — تنقل نقلًا أميناً دقيقة ، بل لقد كان ينفتح فيما ينقله عنهم من روحه وينفتح فيه من حماسته . وكثيراً ما وقف مع هؤلاء المصلحين يدافع عنهم بأمسنة شعره على نحو ما هو معروف عنه في دفاعه عن قاسم أمين حين تأليب الجمهور على دعوته إلى السفور ، ودفاعه عن الشيخ محمد عبده حين كانت تتألب بعض الصحف أو يتائب بعض رجال الدين الحامدين على دعوته إلى التحرر الديني .

وبجانب هذه البيئة الممتازة التي كان يعيش فيها ، وتفسح له في دورها وبجالسها ، كان يعيش في بيئه الأدباء المختلفين أمثال اسماعيل صبرى ، ومحمد المويagi ، وحفنى ناصف ، وعبد العزىز البشرى ، وإمام العبد وغيرهم ، وكان منهم من كفل له رزقه وكفى مئونته ، ومنهم الشقى البائس مثل حافظ نفسه ، وكانت كثرتهم تختلف إلى المقاهى في الأحياء الوطنية : في باب الخلق والستة زينب ، والستة الخضراء ، وكان حافظ يختلط بهم ويشاركهم

أحاديثهم الشعبية وما يعلقون به على الحوادث السياسية وتصرفات الخديوي وبطانته وسياسة قصر الدوبارة وسياسة دانلوب في التعليم . وفي تصاعيف ذلك يكثرون من اتفندر والفكاهة ، فبؤسه لم يكسر نفسه ، بل ظلت له شخصيته وظل مبتسماً كثير الدعاية ، يتغادر حتى من بؤسه وقد احتفظ ديوانه بأطراف من هذه الدعابات التي لم تفارقه طوال حياته .

وعلى نحو ما كان حافظ يخالط داين اليمتين السابقتين كان يخالط بيئته الشعب العامة في غدوه ورواحه بحكم فقره وبؤسه . ومعنى ذلك أنه كان مختلطًا بطبقات الشعب المصري المختلفة ، فانطبعت حياتها ومشاعرها جمعياً في نفسه ، وأحس آلامها وأماها السياسية وما تعطش إليه من الاستقلال والحرية إحساساً عميقاً . وكانت الحوادث لا تزال تذكي هذا الإحساس في نواهيه ، وكانت حادثة دنشوى المشهورة أهم حادثة دفعته إلى نضال المحتل ونزاله . وما زال تحت لواء مصطفى كامل يرمي كرومس بقدائف أبياته . حتى استقال من منصبه فاصبح من أعماقه :

فليت كرومدا قد دام فينا يطوق بالسلسل كل جيد  
ويتحف مصر أنا بعد آن بمحلود ومقتول شهيد  
لتنزع هذه الأكفان عنا ونبعث في العالم من جديد

وهي نحو ما كان يصبح بكر ومر والإنكلزيز كان يصبح بالشباب المصري أن يفتق من تواكه وتخاذله، ويثير لكرامة وطنه . وكان يتهز كل فرصة ليهز قلوب الشباب ونفوسه ويشير مكان الختم والغيب فيه سواء حين يتحدث عن زواج الشيخ علي يوسف، أو عن حرب اليابان والروس، أو عن غادة اليابان ومواساة جنود قومها في القتال، أو عن الدستور العثماني، أو حين يلم روزفات بمصر ، أو حين يحيى العام المجري . ولما كسر المحتل عن أنيابه لرماء الحزب الوطني بعد وفاة مصطفى كامل وأصدر قانون المطبوعات يغل به الحرريات ، وتحفظ لرجال الصحافة وكل من ينبع بذلت شفة ، ثار ثورة عنيفة على هذا القانون ، ودعا دعوة صريحة إلى الانتقام على الإنكليز مهما كلف ذلك المصريين من الدماء وعزيز الفداء ، يقول من قصيدة طويلة :

إن البلية أن تباع وتشترى مصر وما فيها وأن لانطق الموت في غشيانه وطريقه الموت كل الموت أن لا يطرقا ولن تجد شاعرا استولت مصر على كاته في هذه الفترة على نحو ما استولت على حافظ الذي تحول بشعره إلى ما يشبه حرابا مسمومة لا يزال يسددها إلى صدور العدو وظلمه وجبروه .

وحافظ في هذا الشعر السياسي الوطني يعد مبتكرًا لصورة جديدة في شعرنا العربي لم يكن قد ماء من شعرائنا يألفونها إذ كانوا يعيشون غالبا

في أبراجهم العاجية منفصلين عن شعوبهم وأدواتها وعواطفها السياسية. وحقاً سبقه البارودي إلى رسم جوانب من تلك الصورة، ولكنه هو الذي أوفي بها على الغاية من التعبير والتلويين والتضليل. ومن المهم أن نعرف أن ديوانه لا يضم كل ما نظمه في هذا الحين «اجيا الإنكليز والخدموي» ورجال القصر ونادقاً بعض النظار والحكام وألوان الحكم، فكثير مما قاله لم يستطع نشره للظروف السياسية القائمة. وأكبر الدلالات على ما نزعم أن قصيدة التي وجهتها إلى سعد زغابول حين أستندت إليه مقاليد نظارة المعارف والتي يقول فيها : ..

فَذَامَ فِي قَصْرِ الدِّبَارَةِ رَبَهُ فَسَعْدُ وَدَنَابُ لِعْنَرَةٍ وَاحِدٍ

سقطت من ديوانه . ومعنى ذلك أن شعراً سياسياً كثيراً له فقد ،  
إذ لم يكن من سبيل إلى نشره وإذاعته في الجمهور .

وهذا اللون السياسي الصارخ في شعره أثناء هذه الفترة الخصبة من حياة الفنية كان يقترب به لون صارخ من الشعر الاجتماعي لم يسبق إليه ، وهو فيه يحارب الفقر والجهل وعالم الاجتماع والأخلاقية المختلفة . وله في هذا اللون شعر كثير يدعوه فيه إلى البر بالفقراء وإنساء الملائج لهم والجمعيات دعوة تتجذر بنا بسب الرحمة والإحسان من أشد القلوب قسوة ، كما يدعى إلى التهوض بالتعليم وإنشاء المعاهد فدور العلم

والدرس ، وقد دعا دعوة حارة إلى إنشاء الجامعة القديمة ، ولم تفتح أبوابها للطلاب هال لها طويلاً كا هال لمدرسة بنات أنشئت ببور سعيد ، فنظم في طاب العون لها قصيدة رائعة وهي التي يقول فيها :  
الأم مدرسة إذا أعددتها      أعددت شعباً طيب الأعراق

وقد تحول فيها إلى ما يشبه مصلحاً اجتماعياً ، يريد أن يصلح النفوس المريضة من حوله وكان أكبر من آذاته من أصحاب هذه النفوس ، كاصور ذلك في قصيده ، الفقيه الذي يحال ما حرم الله إبتناء منهقة عاجلة ، والطيب الذي يأكل أموال المرضى بالباطل ، ومهندس الري الذي يرتكب في عمله والأديب المناقق الذي يقلب الباطل حقاً . وكان لا يزال يصف هذه العلل وأمثالها ، ويرشد إلى علاجها والتخلص منها ومن آفاتها بروح الصادق الخالص الأمين .

وحافظ في هذا اللون من الشعر الاجتماعي سابق لشعراء العرب جمِيعاً، فمن قبله لم تعرف العربية شاعراً اجتماعياً من طرازه . حقاً نجد عند المتنبي وأبي العلاء بعض أبيات وأشعار تتحوّل هذا التحول ، ولكنها لا يقصدان بها - كما قصد حافظ - إلى غاية اجتماعية من إصلاح شعب وتفوييمه وتحريله نفسه وإنارتها ضد معايهه ومسارئه . ومن أجل ذلك

لقب غير منازع ولا مدافع — بالشاعر الاجتماعي ؛ نقاوماً انفرد به من دون  
شعراء مصر .

ولم يكن حافظ في هذه الفترة شاعر وطنية حسب ؛ بل كان أيضاً  
شاعر العرب والعروبة ؛ إذ نادى مخلصاً بوجوب التآخي والتعاون بين البلاد  
العربية مشيراً إلى ما بينها من أواصر في التاريخ واللغة والدين على نحو  
ما ذكره في قصيده "سوريا ومصر" التي يفتتحها بقوله :

لصرام لربوع الشام تنسب      هنا العلا وهناك المجد والحسب

والتي يقول في أثنائها :

إذا ألمت بوادي النيل نازلة  
باتت لها راسيات الشام تضطرب

هذه يدي عن بني مصر تصافحكم  
فصافحوها تصافح نفسها العرب

وحافظ الموضع لوطنه في هذه الفترة كان يتوجه لكل وطن تنزل به  
كارثة ، وقصيده في زلزال مسيينا آية من آيات الإنسانية الخالدة .

وفي هذه السنوات الثمان كان يمدح عباساً ، ولكنه ينطّق بصوت  
الشعب ويصور مشاعره ومحابيه ، وأيضاً كان يمدح الترك وخليفتهم ،  
ولكنه لا يصدر في ذلك عن ماق ونفاق ، وإنما يصدر عن روح الشعب الذي

كان يأمل — مع ابنه البار مصطفى كامل — في أن ترد توكيا أعداءه الإنجليز عن دياره .

وليس المدح وحده في هذه الفترة الذي تطور على لسانه من مدح شخصى إلى مدح شعبي ؛ فقد تطور الرثاء على شاكلته ؛ وخاصة حين يرثى من فقدهم الشعب من مصلحية وقادته ؛ أمثال : محمد عبده، ومصطفى كامل وقاسم أمين ، وله فيهم مرات رائعة ، وروعتها لا تأتى من أنه يصور فيها لوعة وحزنه ، وإنما تأتى من أنه يصور فيها لوعة أمهه وحزنها على أفالذ كيدها حزنا يقطع نيات القلوب . وكان لا يزال ينظم في مناسبات عارضة من حين إلى حين .

ونقضى إلى سنة ١٩١١ فيسقط الشاعر الغريد من سمااته الحرة الطيبة و يصبح حبيسا في قفص الوظيفة بدار الكتب المصرية ، و ينعدم لسانه فلا يعود إلى شدراه القديم في الشكوى ، ولا في السياسة . وفي رأينا أن ليست الوظيفة وقيودها الرسمية وحدها هي التي عقدت لسانه الثائر ، وإنما عقده معها ضرب من اليأس والقنوط استولى على نفس الشاعر ، فإن جهاد المصريين للإنجليز ارتفع بوفاة مصطفى كامل وبسياسة الوفاق التي اتبعها عباس مع المعتمد الانجليزي حينذاك .

فُقِعَ المُصْرِيُونَ فِي عَهْرٍ دِيَارِهِمْ، وَفُقِعَ حَافِظُ دَارِ الْكِتَبِ الْمَصْرِيَّةِ يَنْتَظِرُ رَاتِبَهُ الشَّهْرِيَّ، وَلَمْ تُلْبِثِ الْحَرَبُ الْكَبِيرُ أَنْ تُشَبَّهَ وَأَعْلَمَتِ الْأَحْكَامُ الْعُرْفِيَّةُ وَأَحْتَاجَتْ عَنِ الظَّهُورِ أَكْثَرَ الصُّحَفِ الْمَصْرِيَّةِ، وَلَمْ يَعْدْ هُنَاكَ مَا يَدِلُ عَلَى أَنَّ النَّاسَ سَيَثُورُ سَرِيعًا بِفَاقِدِيهِ الْمُعْتَدِلِينَ الظَّالِمِينَ. فَهُنَّرَ قَدْ أَصَابَهُمْ حَيْثُ لَمْذَدْ مَا يُشَبِّهُ الْإِغْفَاءَ، وَتَسَرَّبَ "الْيَأسُ إِلَى نَفْسِ حَافِظٍ"، فَلَمْ يَعْدْ يَرْمِي الْمُتَهَلِّلُ بِقَدَائِفِهِ وَسَهَامِهِ الْلَّادِعَةِ، بَلْ انْصَرَفَ إِلَى مُجَاهَلَاتِ الْقَصْرِ وَتَحْيَاتِ الْأَصْدِقَاءِ وَمَرَاثِ الْدَّرَاحِلِينَ، وَنَذَّرَتْ عَلَى لِسَانِهِ كَاتِبَاتِ الْمَكَاهُونَ مُعْتَمِدَ الْإِنْكَلِيزِ أَخْطَأَ فِيهَا الْقُصْدَ وَانْحَرَفَ بِهِ السَّبِيلُ، وَيَأْمُرُ الدَّارِسَ حَافِظَ أَنْ يَتَحُولَ فِي هَذِهِ الْفَتَرَةِ مِنْ شَاعِرِ النَّاسِ إِلَى شَاعِرِ الظَّرْفِ وَالْأَحْدَاثِ وَالْمَنَاسِبَاتِ الْطَّارِئَةِ. وَحْقًا صَاحَ فِي وَجْهِ الْإِسْتِعْمَارِ، وَلَكِنْ لَا فِي مَصْرِ وَإِنَّمَا فِي طَرَابِلسِ وَضَدِّ إِيطَالِيا. وَقَدْ ظَلَ يَدْعُوا إِلَى الْإِحْسَانِ وَإِنْشَاءِ الْمَلَجَىِءِ وَالْجَمِيعَاتِ الْخَيْرِيَّةِ، وَرَجَعَ إِلَى التَّارِيخِ الْعَرَبِيِّ فَاسْتَمَدَ مِنْهُ سِيرَةُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَصْيَدَتِهِ الْعُمْرِيَّةِ الْمَشْهُورَةِ، وَنَظَمَ فِي ذِكْرِي شَكْسِبِيرِ وَلَمْ تَفَارَقْهُ ابْتِسَامَتِهِ وَدُعَابَاتِهِ.

وَلَمَّا ثَارَتْ مَصْرُ فِي وَجْهِ الْإِنْكَلِيزِ فِي سَنَةِ ١٩١٩ أَعْدَتْ اشَاعِرَ النَّاسِ قَوَاهِ الْقَدِيرَةِ، فَاسْتَرَدَ صَوْتُهُ وَلَكِنْ مَعَ شَيْءٍ مِنَ الْحَذَرِ، مُخَافَةً أَنْ يَحْرُمَ مِنْ وَظِيفَتِهِ، فَقَدْ نَظَمَ قَصْيَدَةً فِي مَظَاهِرَةِ لِلْمُسِيدَاتِ بِتِلْكَ الثُّورَةِ، وَهِيَ تَمْتَلِئُ بِالسُّخْرِيَّةِ مِنَ الْإِنْكَلِيزِ، وَلَمْ يَأْسِرْهَا فِي الْمَلاَءِمِ مِنَ النَّاسِ، بَلْ أَعْطَاهَا

للثائرين ليوزعوها في منشورات غير ممضاة. على أنه سرعان ما رجعت إليه طهانيةته فحمل قيثارته ، وأخذ يرتل عليها أنغامه الوطنية في الأحداث السياسية وقصيدته على لسان مصر :

وقف الخلق يتظرون جميعاً      كيف أبني قواعد المجد وحدى

قلادة باهرة من قلائد شعره ، وقد عاد ينفض حزناً وألمًا كلما قضى زعيم من زعماء الشعب وخلا مكانه ، على نحو ما نرى في رثائه لـ محمد فريد وسعد زغلول . وأخذ يلحّن مع الأناشيد السياسية أنغام العروبة والإسلام وقصيدته "تحية الشام" فريدة بديعية من فرائد . ومن المؤم أن نعرف أنه لم يهد إلى مدحه الترك منذ الحرب الكبرى العامة خروجهم عن نطاق أمانينا الوطنية . وقد ظلت له نزعته الاجتماعية ، وأكثر بحكم تقدمه في السن من المجالات ومن الهمئات والتعزيات .

ونمضي معه حتى فبراير سنة ١٩٣٢ في حال إلى المعاش ويعود الأعصار القاصف إلى سابق العهد به . ويبلغ أقصى قوته ، فقد رفعت من طريقة حواجز الوظيفة وأغلاماً الرسمية ، وأصبح خالصاً للأمة ، وكان إسماعيل صدقي يخنق الحريات حينئذ خنقاً وكان الانكليز يؤيدونه ، وي Sheldon على يده ، خرُول أشعاره إلى ما يشبه سوطاً يلهب به جلودهم وجلد صنائعهم صدقي . وديوانه لا يضم كل الشعر السياسي الذي نظمها لهذا العهد . فقد نظم

قصيدة تربو على مائة وخمسين بيتاً في هجاء صدقى والإنكلاز، وليس في ديوانه منها سوى أحد عشر بيتاً.

ومعنى ذلك أن الخائل الذي منع حافظاً من نشر شعره السياسي في أوائل القرن ظل إلى آخر حياته، ومعناه أيضاً أن ديوانه لا يحتوى كل ما نظمه من هذا الشعر لا في شبابه ولا فيشيخوخته، ومن المحقق أن ما ضاع منه كان شيئاً قيماً. على أن القدر لم يمهله في صراع صدقى الطاغية وصراع بغيه وعدوانه على الحوريات إذ سرعان ما سقطت قيثارة الشعر من يده فليبي زاء ربه مخلفاً وراءه لشعبه هذا التراث الشعري الخالد.

نصر الله وجهه في آخره بمقدار ما أدى لأمنه وأسكنه فسيح جنته.



## فَصَادِرُ مُخْتَارَةٍ مِّنْ شِعْرِ حَافِظٍ لِلْأَسْتَاذِ كَهْشِيلِ الشَّنَاوِي

هل كان شاعرنا حافظ إبراهيم من شعراء الألفاظ ، أو كان من  
شعراء المعانى ؟

سؤال تردد على الأفواه أول ما تردد منذ خمسة وخمسين عاما ، عندما  
أصدر حافظ الجزء الأول من ديوانه . وقد أجاب عن هذا السؤال  
أكثر من كاتب ، وناقد ، وشاعر ، واختلفت إجاباتهم اختلف التقىض  
والنقىض ، فبينهم من ذهب إلى أن حافظاً شاعر لفظ ، وبينهم من ذهبوا  
إلى أنه شاعر معنى .

ولم يخطر لي وأنا أدرس شعر حافظ أن أعرف أين مكانه من شعراء  
المعانى وشعراء الألفاظ ، لأنى لا أؤمن بأن هناك شعراً يقوم على المعنى  
وآخر يقوم على اللفظ ، فالشعر ليس لفظاً أو معنى ، ليس أسلوباً أو فكرة  
ليس إطاراً أو مضموناً ، وإنما هو كل هذا جمياً ، إن اللفظ لا يعبر  
عن غير معنى ، والمعنى لا يتكون بغير لفظ ، لابد إذن من اللفظ والمعنى  
معاً ، والشعر ليس أخيلة وانفعالات تعبّر عنها بالـ ياغة البيانية ، والوزن

وأبحرس الموسيقى خسب ، ولكن الشعر عمل فني يتالف من المعنى ، والفكرة ، والصورة ، والأسلوب ، والتجربة الواقعية ، والتجربة الذهنية .

وهو مثل كل عمل فني ، يجب أن يكون له ما لا كاتب الحقيقة من نمو ، وتكامل ، وشخصية .

ولقد نجحت من دراسة شعر حافظ بما أكدهي أن حافظاً شاعر ذو شخصية بارزة طاغية في تاريخ الأدب العربي الحديث .

لم تكن شخصية حافظ من استحداث مذهب في الأوزان والأشكال ، أو خلق طريقة جديدة في التعبير عن المشاعر الإنسانية الثابتة مشاعر الحب ، والحزن ، والقلق ، وإنما تكونت شخصية حافظ من تجاوبيه الشام مع الشعب ، في الرأى ، والعاطفة ، والاتجاه ، فلا يقع حادث اجتماعي أو سياسي إلا بادر بتسجيجه ، أحياناً يتجه إلى التصریح وأحياناً يلتجأ إلى التلميح .

عاش حافظ فترة هامة في تاريخ مصر ، كان الاحتلال البريطاني وسيطرة القصر يتنازعان الاختصاص في إذلال الشعب . . . كانوا القوتين ت يريد أن تستأثر وحدتها بتقويس الظهور ، وإحباء الرؤوس ، وإهدار الحقوق والحريات .

وكان في مصر اتجادان سياسيان : اتجاه يعادى القصر ، واتجاه يعادى الاحتلال . ومعاداة القصر تنسى بالهادنة للاحتلال ، ومعاداة الاحتلال تنسى بالولاء للقصر ، وكان حافظ يقف من هذين الاتجاهين في المكان الوسط .. يعادى الإنجليز حيناً ، ويهاونهم حيناً ، ويعادى الخديوي حيناً ويهدى له الولاء حيناً ، وهو في خصوصاته ، ومعادنته وولائه ، لا يطرف ولا يفرق في التهور والاندفاع . كان مؤرخاً يسرد الأحداث كما وقعت ويكتب عليها لوناً من عنده ، وكان هذا اللون في الغالب الأعم ، لوناً وطنياً حماسياً ، ينبض بكرامة الظلم والطغيان ، ويحض الشعب على الخلاص من القبود جميراً . وكان يثير الشعور ببكائه الحار على ما وصلت إليه حاليه ، وهو في كل ما عاشه من موضوعات ، يرعى شعور الجماهير فقد كان حافظ شاعر الجماهير . ولقد بلغ من حرشه على جمهوره أنه كان لا يواجه المجتمع بفكرة دينية أو اجتماعية أو سياسية ، تمس عقائد الناس إلا في التقليل النادر ، كقوله في السخرية من تقديس أضرحة الأولياء : أحياؤنا لا يرزقون بدرهم وبألف ألف ترزق الأموات من لي بحظ النائمين بمحفنة قامت على أحجارها الصلوات يسعى الأنام لها ، ويجرى حولها بحر النذور ، وتقرأ الآيات وسائلة تقضي بها الحاجات ويقال : هذا القطب باب المصطفى

هذه الصورة الصحيحة للرأي العام السياسي في عصر حافظ ، تقابلها صورة صحيحة أيضاً للرأي العام الفكري . فتند ظهر في هذا العصر اتجاه فكري متحرر ، يقابلة اتجاه آخر شديد التحفظ والتمسك بالتقاليد . ظهر قسم أمين ودعى إلى سفور المرأة . وظهر شبل شميل وهاجم العقيدة الدينية ، وعبر عن أفكار رأى فيها معاصره كفراً بريحا ، وظهر محمد عبده وأصدر فتاوى دينية جريئة تتعلق بحالات البنوك وحقوق العمال ، ورأى فيها أهل الدين خروجاً وبدعة وضلالاً . كان الاتجاه التحرري قوياً وكان الاتجاه المحافظ قوياً أيضاً ، وكانت الجماهير مع الاتجاه المحافظ . وشاعرنا لا يستطيع أن يعيش غير جمهور . ولكن له رأياً يريد أن يعبر عنه . ولقد عرف كيف يحافظ برأيه السياسي والاجتماعي، دون أن يؤاب عليه الجماهير .

في عام ١٩٠٦ ارتكب الاحتلال جريمة إنسانية اهتز لها العالم . قد قصد خمسة من الضباط الإنجليز إلى قرية دنشواى لصيد الحمام ، فأطلقوا النار على بعض المارة ، وثارت القرية على الضباط ، واصطدم الأهلون بالضباط ، وأصيب أحدهم إصابات أفضت إلى موته ، وقد أمر اللورد كرومبتالين محكمة كاملة من القضاة الإنجليز وقاض معنى هو فتحى زغلول، ومدع عام هو إبراهيم الملباوى، وقضت المحكمة بإعدام أربعة من أهل القرية وجاء وحيد ثمانية، وتم تنفيذ الإعدام والجلد في دنشواى نفسها .

وقد تناول حافظ هذا الحادث بأسلوب جمع بين المرازة ، واللحزوع ، والتهيب ، والثورة . . .

عادت الإنجليز ثم حمل عليهم . ولم يشر إلى فتح زغلوں بكلمة ، وصب جام غضبه على الملاوي وحده ، قال :

أَيُّهَا الْقَاتِلُونَ بِالْأَمْرِ فِينَا ! هَلْ نَسِيْتُمْ وَلَاءَنَا وَالْوَدَادَا ؟ !  
خَفَضُوا جِيشَكُمْ وَنَامُوا هَنِيْثَا  
وَإِذَا أَعْوَزْتُكُمْ ذَاتَ طُوقِ  
إِنَّا نَحْنُ وَالْحَمَامُ سَوَاءٌ  
لَا تَظْنُوا بِنَا الْعَقُوقُ ، وَلَكُنْ  
لَا تَقْيِدُونَا مِنْ أُمَّةٍ بِقَتْلِ  
جَاءَ جَهَانَا بِأَمْرٍ ، وَجَئْتُمْ  
أَحْسِنُوا الْقَتْلَ إِنْ حَنِيْتُمْ يَعْفُو  
أَحْسِنُوا الْقَتْلَ إِنْ حَنِيْتُمْ يَعْفُو  
وَابْتَغُوا صِيدَكُمْ وَجُوْبَا الْبِلَادَا  
بَيْنَ تِلْكَ الرِّبَا فَصِيدُوا الْعِبَادَا  
لَمْ تَغْادِرْ أَطْوَاقُنَا الْأَجِيَادَا  
أَرْشِيدُونَا إِذَا ضَلَّلَنَا الرِّشَادَا  
صَادَتِ الشَّمْسُ نَفْسَهِ حِينَ صَادَا  
ضِعْفٌ ضِعْفِيهِ قَسْوَةٌ وَاشْتَدَادَا  
أَقْصَاصًا أَرْدَتُمْ أَمْ كَيَادَا ؟  
أَنْفُوسًا أَصْبَتُمْ أَمْ جَمَادَا ؟

تيش) عادت أم عهد (نيرون) عادا؟  
 من ضعيف ألقى إليه القبادا؟  
 ظ ولسنا لغاظكم اندادا  
 إنها يكريم الجحود الجحودا  
 علمنا السكون مهما تهادى  
 من رماها وأشفقت أن تعادى  
 حسرة بعد حسرة تهادى

ليت شعرى أملك (محكمة التف  
 كيف يخلو من القوى التشفي  
 أنها منزلة تشف عن الغيـ  
 أكرمونا بأرضنا حيث كتمـ  
 إن عشرين حجة بعد خمـ  
 ثمة النيل أكبرت أنت تعادى  
 ليس فيها إلا كلام ، والإـ

\* \* \*

بعض هذا فقد بلغت المرادـا  
 وضـنا لنجلـك الإـعـادـا  
 عـهـدـ (مـصـرـ) فـقـدـ شـفـيتـ الفـؤـادـا  
 مرـ) وـلاـ جـادـكـ الـحـيـاـ حيثـ جـادـا  
 مرـ) فـأـضـحـيـ عـلـيـكـ شـوـكـاـ قـنـادـا  
 سـ فـلـادـيـ الـقـلـوبـ وـالـأـكـادـا  
 سـادـ فيـ غـفـلةـ الزـمـانـ وـشـادـا  
 قدـ لـيـسـناـ عـلـىـ يـدـيكـ الـحـدـادـا

أـيـهاـ المـدـعـيـ العـدـوـيـ مـهـلاـ  
 قـدـ ضـنـناـ لـكـ القـضـاءـ بـمـصـرـ  
 فـإـذـاـ مـاجـلـسـتـ لـلـحـكـمـ فـاذـكـرـ  
 لـاجـرـيـ النـيـلـ فـنـواـحـيـكـ يـاـ (مـصـ)  
 أـنـتـ أـنـبـتـ ذـلـكـ النـبـتـ يـاـ (مـصـ)  
 أـنـتـ أـنـبـتـ نـاعـقاـ قـامـ بـالـأـمـ  
 أـيـهـ يـامـدـرـةـ القـضـاءـ !ـ وـيـامـنـ  
 أـنـتـ جـلـادـنـاـ ،ـ فـلـاـ تـنـسـ أـنـاـ

ولقد ترك حادث دنشواى في صدر حافظ أثرا عميقا ، وحول ياسه من زوال الاحتلال إلى ثورة صريحة على الاحتلال فبعد وقوع هذا الحادث بستة أشهر نشر قصيدة قال فيها يخاطب كرومر :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهدبت  
حواشيه حتى بات ظلمها منظما  
تمن علينا اليوم أن أخصب الثرى  
وأن أصبح المصرى حرّاً منها  
أعد عهد (إسماعيل) جلداً وسخرة  
عهلتم على عن الجماد وذانها  
إذا أخصببت أرض وأجدب أهلها  
نهش إلى الدينار حتى إذا مشى  
فلا تحسبوا في وفرة المال — لم تند  
فإن كثير المال — والخض وارف —  
متاعاً ولم تعصم من الفقر — معنها  
قليل إذا حل الغلاء وخيمها

ثم استقال كرومر ، وترك مصر ، ولما يمض على حادث دنشواى أكثر  
من عشرة شهور ، فودعه حافظ بقصيدة كظم فيها الغيظ ، واستخدم  
أسلوب السياسي والمؤرخ ، وهو أسلوب تفرد به حافظ ، وكان إحدى  
خصائصه الفنية . إن حافظا في هذه القصيدة يحاول أن يعطي ما القىصر  
لقيصر وما لله لله ، ولقد يرى كثيرون أن حافظا رحمه الله قد أعطى قيصر  
أكثر مما أعطى الله !

يقول :

ففي الشعر هذا موطن الصدق والهدى  
فلا تكذب التاريخ إن كنت منشدًا  
لقد حان توقيع العميد ، وإنه حقيق بأشيع المحبين والعدا  
فودع لنا الطود الذي كان شاعرنا  
وأزقه عنا بالكرامة كلها  
فلم لا نرى الأهرام - يانيل - ميدا؟  
كانك لم تجزع عليه ولم تكن  
سلام ! ولو أنا نسيء إلى الآله  
سنطري أياديك التي قد أفضتها  
أمنا ، فلم يسلك بنا الخوف مسلكا  
وسكنت رحيم القلب تحني ضعيفنا  
وتدفع عننا حادث الدهر إن عدا  
ولولا أسي في (دنشواي) ولوحة  
وفاجعة أدمت قلوبنا وأكبدنا  
— وتصويرك الشرقي غرا بحدا —

نرى فيك ذاك المصباح المتعدد  
أفاد الغني أهل البلاد وأسعدوا  
ترَّخص فيها تارة وتشددا  
خارب جيش الفقر حتى تبددا  
على أهليه ، خصبا وريا وموردا  
رأى القول في أسر السكوت مقيدا  
يرى أن ذاك المال لا يكفل الهدى  
يعلم ، وخير العلم ما كان من شدا  
ولم تبق للتعاليم يا (لُرْدُ) معهدا  
وأجذبت في بصر العقول تعمدا  
قضاء علينا ، أو سبيل إلى الردى  
ولم تستغل حتى حجبت (المؤيدا)  
رأينا جفاء الطبيع فيها مجسدا  
لنغضب إن أغضبها في القبر (أحمد)  
وأى بناء شامخ قد تجدنا  
من الصم لم تسمع لأصواتنا صدى

لذبنا أسى يوم الوداع لأننا  
تشعبت الآراء فيك فسائل  
وكان له في المصلحين سياسة  
رأى العز كل العز في بسطة الغنى  
وأمتعكم بالنيل فهو مبارك  
ومن لكم حرية القول عندما  
وآخر لم يقص على المال همه  
فلا يحمد الإثراء حتى يزينه  
يناديك قد أزرت بالعلم والمحاجة  
وأنك أخصبت البلاد تعمدا  
قضيت على أم اللغات ، وإنه  
حججت ضياء الصحف عن ظلماته  
وأودعت تقرير الوداع مغامزاً  
غمزت بها دين النبي ، وإننا  
يناديك : أين النايفون بعهدكم ؟  
يناديك : وليت الوزارة هيئـة

أبى إذا ما أصدر الأمر أوزدا  
عن القصد؟ إن كان السبيل مهدداً؟  
سديداً؟ ولكن كان سهماً سدداً  
تجزّر علينا الويل والذل هرمندا  
يبيت بها ذاك الغريب مسوداً  
على حين لم نبلغ من الفطنة المدى؟!  
خزيير؟ وكنا جاهلين ورقداً  
سوى شر ليد يلقى به من تصيداً  
إذا قال هذا صاح ذاك مفهداً  
لسهامات لي رأياً . بلغت مقصدنا  
أضف إلى التاريخ قولاً مخلداً  
ويأيضاً القصر المنيف تجليداً  
لقد لبست آثاره فيك شهداً

فليس بها عند الشاور من فني  
بربك ماذا صدنا؟ ولوهى بتنا  
أشرت برأي في كتابك : لم يكن  
وحاولت إعطاء الغريب مكنته  
فيما ويل مصر يوم تسقى بنادوة  
الم يكفنا أنا سلينا ضياعنا  
زاحمنا في العيش كل ممارس  
وما الشركات السود في كل بلدية  
فهذا حديث الناس ، والناس ألسن  
ولو كنت من أهل السياسة بينهم  
ولبكتني في عرض القول شاعر  
فيها الشيخ الجليل ! تحية  
لن ثاب هذا الحديث عنك لعلة

إن حافظاً لم يدع حادثاً عالمياً، سياسياً أو إنسانياً دون أن يسجله  
يعاتب سلطان مراكش ويأزر اليابان في حربها ضد روسيا، ويُشيد  
بالدولة العلية ويودع كروزه، ويستقبل جورست، ويتهنىًّا للخديو، بالعام

الجديد ، ويتكلّم عن الأسطول العثماني ، ويبيّن على تولستوي ، ويتجدد شكسبير ، وينظم تمثيلية في حادثة اعتداء الأسطول الطليانى على بيروت انتقاماً من الترك ، ويحمل على إمبراطور ألمانيا لأنّه تسبّب في إشعال الحرب العالمية الأولى ، ويحيي ساسة مصر على اختلافهم في وجهات النظر لأنّه يرى الحبيب الجميل في كلّ منهم .

وقد كان حزنه على وفاة مصطفى كامل نابعاً من القلب .

وكان تأييده صادقاً عميقاً لسعد زغلول، وكان بكاؤه حاراً على مهد فريد.  
وفي عام ١٩٠٩ قامت في تركيا ثورة انتهت بخلع السلطان عبد الحميد وتولية  
السلطان محمد الخامس، وفرح الأحرار في كل بلد عربي لزوال ملك عبد الحميد  
وشيشه الشعراً بالنقطة والشهاة، وتناول حافظ هذا الحادث أسلوبه  
السيامي الفريد :

لارعن الله عهدها من جدود !  
كيف أمسكت يابن (عبد الحميد) ؟  
مشيئع اليهودِ من لحوم البرايا  
وأجمع الجنود تحت البنود  
كنت أبكي بالأمس منك ، فهالي  
يت أبكي عليك ( عبد الحميد ) ؟  
فرح المسلمين قبل النصارى  
فيك قبل الدروز قبل اليهودِ  
شتبوا كلهم ، وليس من الهمة أن يشمث الورى في طريد  
أنت ( عبد الحميد ) والتابع معقو د ، و ( عبد الحميد ) رهن القيود

خالد أنت رغم أنف الليالي  
للك في الدهر — والكمال محال —  
حاولوا طمسها صنعت وودوا  
ذاك (عبد الحميد) ذخرك عند الله  
أكِيموه ، وراقبوا الله في الشيب  
لاتخافوا أذاه ، فالشيخ هايو  
ولي الامر ثلث قرنٍ ينادي  
كلما قامت الصلاة دعا اذا  
فاسم هذا الأسير قد كان مقرو  
يت أخشى عليكم أن يقولوا  
كان (عبد الحميد) بالأمس فردا  
يا أسيرا في (سنت هيلين) رحب  
قل له : كيف زال ملوك ؟ لم يع  
لم تصنك الجنود تفديك بالأر  
قل له : كيف كنت ؟ كيف امتكـت ا  
ثلاث العروش عرشا فعرشا

كلا نلتَ غايه لم تنهَا  
ضاقت الأرض عن مداك فأرسله  
قل له : جل من له الملك ! لا ما  
أنت - وهم ما شقيت - أرفه حالا  
وأسير الأقواص قد كان أشقي  
كان (عبد الحميد) في القصر أشقي  
كان لا يعرف القرار يليل  
خذرا ، يرعب الظلام ؛ وينخسى  
نفق تحت طابق الأرض أخفى  
يعجز الوهم عن تلميس ذاك الـ  
أصحيح ما قيل عنك ؟ وحق  
أن (عبد الحميد) قد هدم الشر  
إن بريئا ، وإن أثينا ، ستجزى  
أصحيح بكيت ؟ لما آتى الوف  
ونسيت الآباء ، والجند ، والسؤور  
ما عهدنا الملوك تبكي ! ولكن

三

كان حافظاً مولعاً بالفخيم في كل شيء، في المجال، والبطولة والمواهب. وكان يحب أصحاب الفكر وإن كانوا موضع غضب الجماهير أحب قائد الفكر قاسم أمين، فلما مات رثاه بحرقة ومرارة، ولكن قاسم أمين يدعوه إلى السفور، والجمهور ضد السفور، وحافظ يؤثر إلا يقع فريسة لغضب الجمهور. وقد استطاع أن يهكي قاسماً، ويوفيه حقه، واستطاع أيضاً أن يتفادى إبداء الرأي في قضية السفور!

16

لله درك كنت من رجال لو أمهلتكم غوائل الأجل  
خلق كأنفاس الرياض إذا أسرهن غب العارض المطل

بطبائع الأيام لم تحل  
وشتاءً لو أنها من جلت  
جم المحمدة غير متهِم  
من (قاسم) في أبهج الحالِ  
يا دولة الأخلاق رافلة  
أكذا تكون مصارع الدول؟  
كيف انطويت به على عجلِ

\* \* \*

قد هن بعدها مرسل المثل  
يا مرسِل الأمثال يضر بها  
يرمي بهن قاتل الخطلِ  
يا رائش الآراء صائبة  
في الخالدين نوايغ الأولِ  
لله آراء شاؤت بها  
يشق الآئِي بصحة الوكلِ  
قد كنت أشقاناً بنا ، وكذا  
لم تشك ، لم تستوص ، لم تقلِ  
لهفى عليك قضيت مرتحلاً  
يسكي عليك وذاك في جذلِ  
غل القضاء يد القضاة ، فذا  
والمرء من دنياه في شغلِ  
شغلتك عن دنياك أربعة  
تمشي إليها غير متصلِ  
حق تناصره ، ومفخرة  
ما للحِكمَيْن من قبلِ  
وحقائقَ للعلم تنشدها  
تمدد إليه يداً ولم يصلِ  
وفضيلة أحيت سواك فلم  
تعصم بـ فتكلك مراتب الرسلِ  
إن رأيت رأيا في الحِجاب ولم

الحكم لل أيام مترجمه  
فيما رأيت فم ولا تسأل  
وكذا طهارة الرأي ترتكب  
للدهر ينضجها على مهل  
فإذا أصبت قاتل خير فق  
وضع الدواء مواضع العليل  
أولا ، خسيك ما شرفت به  
وتوركت في دنياك من عمل

وكان مولعا بالدكتور شبل شمبل ، يعجب به ، ويعتر بصدقته ، وعلى  
الرغم من إيمان حافظ ، فقد كان يصغي باهتمام إلى آراء شمبل المتحررة  
من العقبة .

ويهود شمبل ، ويندفع حافظ بعاطفته فيرثي شمبل ، ويلومه الناس  
ويساؤنه : كيف ترثي ملحدا . ويتناول حافظ كل هذا في رئاه  
لشمبل ويقول :

سُكْنِ الْفَιلِسُوفِ بَعْدَ اضْطِرَابِ  
إِنْ ذَاكَ السُّكُونُ فَصُلُّ الْخَطَابِ  
لَسْقِ اللَّهِ رَبِّهِ فَاتَّرَكُوا الْمَرِ  
حَزْنَ الْعِلْمِ يَوْمَ مَتَ وَلَكِنْ  
كَنْتَ تَبْغِي بَرْدَ الْيَقِينِ عَلَى الْأَرْ  
فَاسْتَرِحْ أَيْمَانَ الْمُجَاهِدِ وَاهْدِ  
وَعْرَفْتَ الْيَقِينَ وَانْبَلَجَ الْحَـ

ـ كَالشَّهَابِ  
ـ قَيْمَنِيكَ سَاطِعًا

بَيْنَ شَكْ وَحِيرَةٍ وَارِتَابٍ  
لَكْ فَشَكَ الْحَكِيمُ بِدِهِ الصَّوابِ  
دَاهَشَ فِي الْبَحْثِ طَارِقاً كُلَّ بَابٍ  
مُسْتَطِيراً يُرْيِعُ هَنْكَ الْجَهَابِ  
مَدِي إِلَى الْأَرْضِ بَاحْتَا عَنْ جَوَابِ  
بَطْوَاهَا مُسْبِبُ الْأَسْبَابِ  
لَشَائِونَ الْمَهِينَ الْوَهَابِ  
مِنْ قَدِيمًا فَلَمْ يَفْزِ بِالْطَّلَابِ

لَيْتْ شِعْرِي ، وَقَدْ قَضَيْتِ حِيَاةَ  
هَلْ أَنْكَ الْيَقِينَ مِنْ طَرِيقِ الشَّهَادَةِ  
كَمْ سَعَنَا مَسَائِلًا قَبْلَ (شِبْلِيْ)  
أَطْلَقَ الْفَكْرَ فِي الْعَوَالَمِ حَرَّا  
يَقْرَعُ النَّجْمَ سَائِلًا ثُمَّ يَرْتَبِعُ  
أَعْجَزَتْهُ مِنْ قَدْرَةِ اللَّهِ أَسْبَابَا  
لَمْ يَكُنْ مَاجِدًا وَلَكِنْ تَصْدِيَ  
رَامِ إِدْرَاكَ كَمْهُ مَا أَعْجَزَ النَّاسَ

\* \* \*

تَقُولُ حَتَّى تَفَنَّنُوا فِي عَتَابِي  
رَوْلَا يَهْتَدِي بِهِدِي الْكِتَابِ؟  
مِنْهُ خَلَا أَمْسَى طَوِيلَ الْغِيَابِ  
لِي بِهِ فَقَدْ كَانَ صَاحِبِي لَا يَحْبَابِ  
كَنْ أَحْلَى مِنْ الشَّمَادِ الْمَذَابِ  
لَوْلَا يَسْتَبِعُ غَيْبَ الصَّحَابِ  
بِرِّ جَمِيعِ الْفَوَادِ رَحْبُ الْجَهَابِ

إِلَيْهِ شِبْلِي ، قَدْ أَكْثَرَ النَّاسَ فِيْكَ الـ  
قِيلَ : تَرَثَى ذَالِكَ الَّذِي يَنْكِرُ النَّوْ  
قَلَتْ : كَفُوا فَإِنَّمَا قَتَ أَرْثَى  
أَنَا وَاللَّهِ لَا أَحَدِيهِ فِي الْقَوْ  
أَنَا أَرْثَى شَهَائِلًا مِنْهُ عِنْدِي  
كَانَ حَرُّ الْآرَاءِ لَا يَعْرِفُ الْخَتْ  
مَفْضِلًا مُحِسِّنًا عَلَى الْعَسْرِ وَالْيَسِّ

فِيمَوْتُ الْإِمَامِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ عَبْدِهِ فِي رُشْيَهِ حَفَظَ بِقُصْبَيْلَةَ يَعْبُرُ فِيهَا عَنْ  
عَوْاْطِفِهِ ، بِصَدَقَ وَعَمَقَ وَوْضُوحَ . لَا يَبْلُى غَضَبُ خُصُومِ الْإِمَامِ  
وَمَا كَانَ أَكْثُرُهُمْ ، يَقُولُ :

سلام على إِيمَه النُّصُرات  
على البر والتقوى ، على الحسنات  
فأَصْبَحْتُ أَخْثَى أَنْ تَطُولْ حِيَاتِي  
عَلَى نَظَرِهِ مِنْ تِلْكُمُ النَّظَرَاتِ  
كَأَنِّي حِيَالَ الْقَبْرِ فِي عَرَفَاتٍ  
تَجَاهِيلَهُ فِي مُوْحِشٍ بِفَلَّةٍ  
يَخِيرُ يَقَاعَ الْأَرْضِ خَيْرَ رَفَاتٍ  
عَلَى الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، عَلَى الْعِلْمِ وَالْجِنَا  
لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى عَادِيَ الْمَوْتَ قَبْلَهُ  
فَوَاهِفِي — وَالْقَبْرُ بَيْنِ وَبَيْنِهِ —  
وَقَفَتْ عَلَيْهِ حَاسِرَ الرَّأْسِ خَائِشَةً  
لَقَدْ جَهَلُوا قَدْرَ الْإِمَامِ فَأَوْدَعُوهَا  
وَلَوْ ضَرَحُوا بِالْمَسَجِدِينَ لَاَنْزَاَوْهَا

تباركت هذا الدين دين محمدٍ أيتوك في الدنيا بغير حماة ؟  
تباركت هذا عالم الشرق قد قضى  
ولانت قناعة الدين لغمزات  
زرعت لنا زرعاً فأنخرج شطأه  
ولدت ولما نجتن الثمرات

بُشَارَةٌ وَالْأَرْضُ غَيْرُ مَوَاتٍ  
 فِرَدْتُ إِلَى أَعْطَافِنَا صَفَرَاتٍ  
 فَعَدْنَ وَآثَرْنَ الْعُمَى شِرْقَاتٍ  
 مَكَانَكَ حَتَّى سُودَوا الصَّفَحَاتِ  
 وَرَحْتُ . وَلَمْ تَهْمُمْ لَهُ شِكَاهَةٌ  
 وَمَعْرِفَةٌ فِي أَنْفُسِنِكَاتٍ  
 وَفَرَقْتُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلُماتِ  
 فَأَطْلَعْتُ نُورًا مِنْ ثَلَاثَ جِهَاتٍ

فَوَاهَا لَهُ أَلَا يَصِيبُهُ مَوْفَقٌ  
 مَدَدْنَا إِلَى الْأَعْلَامِ بَعْدَكَ رَاجِنَا  
 وَجَالَتْ بَنَا تَهْنِي سِوَالَكَ عَيْنَنَا  
 وَآذَوْكَ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَأَنْكَرُوا  
 رَأْيَتِ الْأَذَى فِي جَانِبِ اللَّهِ لَذَّةٌ  
 لَقَدْ كَنْتَ فِيهِمْ كَوْكَابًا فِي غِيَابِ  
 أَبْنَاتِنَا التَّنْزِيلُ حِكْمَةٌ وَحِكْمَةٌ  
 وَوَنَقْتَ بَيْنَ الدِّينِ وَالْعِلْمِ وَالْجَنَاحِ

\* \* \*

أَمْدَكَ فِيهَا الرُّوحُ بِالنَّفَحَاتِ  
 نَخَافُكَ أَهْلَ الشَّكِّ وَالنَّزَعَاتِ  
 نَخَضَتْ عَلَيْهَا لَذَّةُ الْمَهْجَعَاتِ  
 تَنَاجِيَ اللَّهَ الْبَيْتَ فِي الْخَلَوَاتِ  
 وَنَبَهَتْ فِيهَا صَادِقُ الْعَزَمَاتِ  
 شَبَّاهَ بِرَاعِي سَاحِرِ النَّفَثَاتِ

وَقَفَتْ (لَهَانُوتُو) وَ(رِينَان) وَقَفَةٌ  
 وَخَفَتْ مَقَامُ اللَّهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ  
 وَكُمْ لَكَ فِي إِغْفَاءِ الْفَجَرِ يَقْظَةٌ  
 وَرَلَيْتْ شَطَرَ الْبَيْتِ وَجْهَكَ خَالِيَا  
 وَكُمْ لَيْلَةٌ عَانَدْتَ فِي جَوِنَهَا الْكَرِيِّ  
 وَأَرَصَدْتَ لِلْبَاغِي عَلَى دِينِ أَحْمَدٍ

إذا مس خد الطرس فاض جيده  
بأسطار نور باهر الممات  
كأن قرر التهور باه شقه  
يريك سناء أيسير الممات

\* \* \*

لأنت علينا أيام السنوات  
وأذويت روضا ناضر الزهارت  
عن جمرات الحزن منطويات  
فأندرنا بالويل والعثرات  
تبثت له الأبراج مضطربات  
ورب ضعيف نافذ الرميات  
ومالت له الأجرام منحرفات  
عن النير الهاوى إلى الفلوات  
ويختضر بين المتس والقبلات  
وتندفعه الأنفاس مستعرات  
في سنة مرت بأعواد نعشة  
خطمت لنا سيفا ، وعطلت مبرا  
وأطفافت نيراسا وأشعات أنفسا  
رأى في ليالك المنجم ما رأى  
ونباء علم النجوم بحادث  
رمي السرطان الایث ، والليث خادر  
فاردى به ختلا فحال إلى الثرى  
وشاعت تعازى الشهب بالملح يينها  
مشى نعشة يختال عجبًا بربه  
تکاد الدموع الجاريات تقله

\* \* \*

كان في عصر حافظ شاعر سد الطريق على حافظ وهو أحمد شوقي  
ووقفت السلطات البريطانية أن يخرج شوقي من مصر ،

وبعد ما قضى في المنفى بضع سنوات سمحت له السلطات أن يراسل  
أصدقائه في مصر فأرسل إلى الصحف أبياتاً قال فيها :

يا ساكني مصر إنا لا نزال على عهد الوفاء وإن غبنا مقيمينا  
هلا بعثتم لنا من ماء نهركم شيئاً نُبَلِّ به أحشاء صادينا ؟  
كل المناهل بعد النيل آسنة ما أبعد النيل إلا عن أمايننا

وانبرى الشعراً يردون على شوقي بكلمات تفريض حباه ، وعطفا عليه  
وكان حافظ أحد هؤلاء الشعراء ، وقد بذهم ، وتفوق عليهم ، وليس  
هذا رأي ، ولكنه رأى شوقي سمعته منه قبل وفاته ، قال حافظ :

عجبت للنيل يدرى أن بلبله صاد ، ويسقى رب مصر ويسمينا  
بـ『الله ما طاب للأصحاب مورده』 ولا أرتضوا بعدهم من عيشهم لينا  
وقد نأينا — وإن كان متعينا — لم تأبه — وإن فارقت شاطئه —

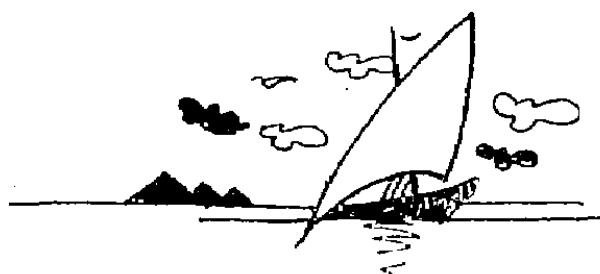
ولقد كان حافظ في حياته سريع الدمعة ، سريع الابتسامة . وقد  
امتلاه ديوانه بالدمع ، وخلام من الابتسamas . فليس في المدحون من  
الشعر المرح الذي نظمه حافظ ، ونقله الرواة عنه إلا قلة ضئيلة قد تثنى  
بشخصية حافظ المرحة ، ولكنها لا تصورها ولا تدل عليها .

أين خمريات حافظ ، ودعاباته ، وسخرياته ، أين قصائده التي هاجم  
فيها الملك فؤاد ، وأسرة محمد علي ، والحكام الطغاة ؟

إذا كانت ظروف حافظ السياسية والاجتماعية قد منعته من نشر هذا  
الشعر ، فإن الأمانة الأدبية تتضمننا نحن الذين نختلف بذلك حافظ أن  
نجمع كل تراثه ، حتى تكتمل صورته في ذهن التاريخ .

كان حافظ إبراديم شاعراً كبيراً ، وإنساناً كبيراً . امتلاً قلبه بحب  
بلاده ، والخوف علىـها ، وكان في طيبة الداعين للوطن العربي  
وقد أتسم صدره للحب والرحمة ، وضاق بالكراهية والقسوة ، كان حافظ  
يتمثل المصري الفلاح ، فيه ذكاؤه وطبيعته . فيه عناده واستسلامه . فيه  
كثير من المصري الفلاح الذي بني الهرم في رضوخ وانكسار ، وكثير من  
المصري الفلاح الذي ثل عرش الملكية ، وأنحرج الإنجليز ، وهزم جيوش  
دول ثلاث في قوة ، وإصرار ، وعناد .

سلام على حافظ !



## نشرها فطه و مترجمان للكتور محمد رمث درور

سيراتي ، سادتي :

عند ما طاب الى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب الحديث عن نشر حافظ وبترجماته أشفقت على نفسي من هذا التكليف ، وخشيت أن أجده نفسي بين أحد أمرئين :

الأمر الأول أن آخذ نفسي بما درحت عليه من النظر في آثار الأدباء نظرة نقدية صارمة في الحق . وكان العالق بذهني عن نشر حافظ أنه نظر متکف لا يعدو رصف الألفاظ الذي حمدنا الله لتخلصنا منه ، وأن ترجماته وبخاصة في "رؤساء" لم تكن ترجمة أمينة بل تخيبها أو اقتباس نتف من قصة "ديجو" الرازحة .

وبذلك يأتي مثل هذا النقد نابيا لا محل له في مهرجان أدبي لم يعقد لنقد حافظ إبراهيم ، بل عقد اعتزازا بفضله على الأدب واللغة ، وترغيبها في الاستفادة من آثاره الأدبية الخالدة .

وكان الأمر الثاني هو أن أحمل نفسي حملا على أن أجعل كلامي مطابقا  
لما تضى الحال، فأحاول أن انحني نثرا حافظ ومتراجمانه ما ليس فيه مما من جمال  
أو أصالة أوأمانة .

وكنت أقول لنفسي ولماذا لم يكن نصيبي الحديث عن ناحية من نواحي  
ذلك الفن الرائع الذي نبغ فيه حافظ وعرف به قبل كل شيء وهو الشعر .

ولتكنى عند ما عدت إلى نثر حافظ أخذ إحسانى بالفن يخف شيئا  
فشيئا حتى انتهيت بأن آمنت بأنى راجح لا مغبون .

### الترجمات العلمية

ولكي أقنعكم بربحي الأكيد سأخذ في تصفية التراث الذى طلب إلى  
دراساته ، وتقديم الخالد منه لأدباء العرب وشبابهم المتأدين .

وأنا أبدأ هذه التصفية بالترجمات غير الأدبية وأهمها :

”الموجز في علم الاقتصاد“، لأستاذ الاقتصاد الفرنسي الشهير بول لروايو.

الذى اشتراك فى ترجمته، أو على الأصح تعريفه حافظ ابراهيم مع الشاعر  
الكبير خليل مطران فى خمسة أجزاء كل منها فى مئتين صفحة تقربا ، وقد  
طبعت فى سنة ١٩١٣، وكانت ترجمته لحساب نظارة المعارف العمومية

وبتكليف من وزيرها الشعير، أو ناظرها كما يقولون أحمد حشمت باشا وقد قررت الظارة دريس هذا الكتاب في مدارسها.

والذى لاشك فيه أن ترجمة مثل هذه الكتاب فى ذلك العصر كان يعتبر كسباً كبيراً للثقافة والتعليم فى بلادنا، وفتحاً جديداً فى وصلنا بعلم كان يعتبر جديداً علينا بأبحاثه ومصطلحاته، وقد أخذ شاعران يخوضان بترجمته ميداناً بكرى، ويلتقيان بشققات كبيرة.

وجميع من رجعنا إليهم من المؤرخين يتفقون على أن خليل مطران قد كان له النصيب الأوفى في فهم النص الفرنسي ونقل معناه إلى العربية وأن حافظاً إنما كانت مشاركته في عملية التعرية والصياغة، ومحاجلة العثور على المصطلحات العلمية ونحوتها في عصر كان فيه التزمر الملغوى، ومحاولات تعرية كل اصطلاح حضارى، والنفور من إدماج أي اصطلاح أجنبي في لغتنا العربية بالغاً أقصاه، وإننا لنبتئم اليوم عندما نرى الشاعرين الكبيرين يعبران بعض الاصطلاحات – التي انتهينا منها سنوات إلى تعريةها بالفاظ سهلة دارجة – بالفاظ مينة استخرجها من بطون المعاجم مثل لفظة : – الوهين أو الولى للفظة الفرنسية Patron التي انتهينا إلى ترجمتها بعبارة ”رب العمل أو صاحبه“ ولفظة المسرة للكلمة الفرنسية Secrétariat التي لم يعد أحد يتورع عن نقلها كما هي

إلى العربية وهي لفظة "سكرتارية" وإن يكن هناك من يفضل عبارة "الأمانة العامة" و "الأمين العام" على عبارات "السكرتارية العامة" و "السكرتير العام" كما يترجمان اصطلاح Bourse de travail بعد بعبارة مصدق العمل بينما نسميهما الآن في بساطة "بورصة العمل" لأن استعملنا مصطلحات "بورصة القطن" و "بورصة الأوراق المالية" واصطلاح Contrat collectif مع أنها تترجمها الآن في بساطة عبارة "العقد الجماعي" ولكنهما إلى جوار ذلك وفقاً إلى العثور على الكثير من المصطلحات التي كتب لها الرواج والانتشار حتى وقتنا الحاضر مثل مصطلحات "الصناعة الاستخراجية" و "الصناعة التحويلية" وأمثالهما.

وأما الترجمة في ذاتها فإنها وإن تكون قد خلت من السبجع والمحسنات البدوية المسرفة إلا أنها مع ذلك قد احتفظت بطبعها الأدبي، ولم يقبل الشاعر أن يكتبان تصريحية الجزاية في سبيل الوضوح والسهولة، ولا التصوير البلياني في سبيل التقرير العلمي المباشر كما لاحت لها فرصة مثل هذا التصوير البلياني، فهو ما عند الحديث عن "مطاعن العامة على الآلات" مثل صفحة ١٤٦ جزء ١ يقولان : (ولو سمع فيها قول الكاشين لبقيت الإنسانية خادرة في وهدتها، ولحرمت أنفس مبتكراتها) ويشعران بال الحاجة إلى وضع هامشين لتفسيير عبارة (الكاشين) بأنها (جمع كاش وهو الذي

يُطوي كشحه على العداوة ، والكشف ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي )  
وعبارة ( خادرة ) بـ ( مسترخية ) وما ضررها لو وضعا في النص لفظي  
( الأعداء ) و ( مسترخية ) بدلا من ( الكاثرين ) و ( خادرة ) .

وأما عن مادة الكتاب ذاته فهي في جملتها مادة سطحية تقف عند  
العمريات ، قد لا يضرها ذلك إذا ذكرنا أن الكتاب قد ترجم للمبتدئين في هذا  
العلم من طلاب المدارس .

ولكن من بين أن مادة هذا الكتاب قد تخطاها الزمن بتقدم البحث  
في علم الاقتصاد ، كما أن هناك مأخذ آخر خطيرا على هذا الكتاب ومؤلفه  
الفرنسي ، فالأستاذ ” بول لروا بوابو ” الذي توفي في عام ١٩١٦  
قد كان بلا ريب من كبار أساتذة هذا العلم ، وقد قام بتدریسه سنوات  
طويلة في College de France ولكنكه كان من أشد رجال هذا  
العلم تعصبا للاقتصاد الحر ، ومن أشد هم عداوة للهادئة الاقتصادية  
والمبادئ الاشتراكية مما يبذلو منه أن كتابه المذكور لم يعد يتنشى مع  
السياسة الاقتصادية التي انتهت إليها بلاد كصربيا ومصر بل و معظم بلاد العالم ،  
حيث لم نعد نرى تقريرها أحدا يأخذ بهرأ الاقتصاد الحر ، ويرفض رفضا  
مطلقا تدخل الدولة على نحو أو آخر في حماية الاقتصاد القومي أو توجيهه  
أو الإشراف عليه . وأمسنا ندرى هل فطن المترجمان الفاضلان

ومن خلفهما السيد الوزير أو الناظر إلى هذه السياسة التي يصدر عنها المؤلف في كتابه أم لا ، وهل قصدوا إلى نشر هذه السياسة والإيمان بها بين تلاميذنا أم لا ، وأكبرظن أن أكبرهمهم كان نشر المعرفة بهذا العلم ومبادئه ، وتقريرها إلى جمهورنا صاريين النظر عن اتجاده السياسي .

والكتاب فعلا يضم أدليات هذا العلم وينحطط مبادين بحثته ، وهو في هذه الحدود ، ومع التحفظ السياسي السابق لا يخلو حتى اليوم من فائدة للناشئين .

### الترجمات الأدبية

وإذا كان حافظ قد اشتراك مع خليل مطران في ترجمة "الموجز في الاقتصاد" وكان لمطران فيما يبدو القدر المعلى في تلك الترجمة المحازية للأصل ، فإنه قد انفرد بتعریف أجزاء ملخصة من قصة فيكتور هيجو "البوساد" التي نشر منها الجزء الأول في أوائل هذا القرن ، والجزء الثاني ، بعده بثمانية عشر عاما .

وهو هذه اختياره لهذه القصة الضخمة التي تتجاوز الألفي صفحة في نصها الفرنسي ، والتي تعتبر أضخم من قصة موحدة ، بل أشرطة واسعة متتابعة من الحياة الفرنسية في القرن التاسع عشر ، نقول : إنه عندما اختار

هذه القصة ليعرف أطرافا منها لم يكن ذلك بتكليف من وزير أو ناظر وإنما ساقته ظروف حياته واستجابت نفسه ل موضوعها ومادتها .

ونحن نعلم أن حافظاً قد مرت به فترة من حياته الكة السوداد وهي تلك  
التي تقع بين عامي ١٩٠٣ - ١٩١١ فهى تلك الفترة ذات حافظ بؤس الحياة  
ولو أنسفنا لقلنا ألم الجموع والحرمان بعد أن طرد من الجيش على أثر التزد  
الذى حدث منه ومن بعض زملائه ، أو الذى اتهم به في السودان ، وقد  
خذلهم الخديوى ، وترك الانكليز ينكلون بهم ، وإذا كان حافظ قد وجد أول  
الأمر في الإمام محمد عبد عونا على الحياة ، فإن الإمام لم يلبث أن انتقل إلى  
رحمة الله في سنة ١٩٠٤ تاركاً حافظاً ينبعي بؤس الحياة وشظف العيش إلى  
أن أتاح الله له ناظر المعارف المحسن أحمد حشمت باشا الذي ألحقه بدار  
الكتب المصرية حيث ظل يعمل بها إلى أن استقال في عهد اسماعيل  
صهدي الظالم سنة ١٩٣٢ ليموت بعد ذلك بأشهر قليلة .

والظاهر أن صلة حافظ ابراهيم بقصة "البؤساء" إنما تعود إلى هذه الفترة المأسية في حياته، بل لقد زعم لـأحمد شيخون الأدب الأحياء أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو الذي دله على هذه القصة، وساعدته على فهم نصها الفرنسي بعد أن كان الأستاذ الإمام قد ألم باللغة الفرنسية أثناء وجوده بباريس مع السيد جمال الدين الأفغاني. ومن المؤكد أن حافظا وإن يكن قد ألم

بأطراط من اللغة الفرنسية إلا أن معرفته بها لا أظن كانت من الاتساع والعمق بحيث تمكّنه من قراءة نص فرنسي رفيع كمنص "البوسائ" لشكتور هيجو ، ولا بد أنه قد استعان بمن يجيد الفرنسية خيرا منه مثل الأستاذ الإمام أو غيره على نحو ما كان الأستاذ مصطفى المنفلوطى يستعين في نفس الفترة بغيره من يجيدون اللغة الفرنسية مثل الدكتور عبد السلام الجندى الذى اعترف لنا بأنه قد قام بترجمة بعض روائع الفرنسية التى صاغها المنفلوطى بأسلوبه العذب قصصا لانزال نعتها بين تراثنا الأدبى الحديث .

وفي المقدمة التي كتبها حافظ للجزء الأول من البوسائ ما يشير إلى حالة البوس التي كان يعاينها عندما هم بتعريف تلك القصة ، حيث يقول : " هذا كتاب البوسائ وهو خير ما أخرج للناس في هذا العهد ، ووضعه صاحبه ودو بائس ، وعربه معربه وهو بائس ، بخاء الأصل والتعريف كالحسنا وخيالها في المرأة .. وضعه نادرة شعراء الغرب وهو في منفاه وعربه كاتب هذه الأسطر وهو في بلواه " ، والكتاب بعد ذلك مهدى من المغرب إلى الأستاذ الإمام بكلمة يستخلصها بقوله :

" إنك موئل البائس ، ومرجع اليأس " .

ويهدى حافظ ابراديم عن الجهد الذى بذله في التعريب ، والنجم الذى سلكه فيه ، يقول : " وقد خار الله لي أن أعربه فاستعنته فأعانتي ، واستهديته

غهداًني، وسلخت اثني عشر دللاً في تعريب تلك الصفحات التي ترور بها اليوم، وحاولت أن أصل بها تلك الرابطة التي قطعها يد الترجمة التجارية بيننا وبين أولئك الرجال الذين تجردوا لتعريب أساطير الأولين فوفوها قسطاً من الإتقان، وأليسوا هم من البرجة لباساً ترضاه اللغة ويرضاه أبناءها، ويضرب للترجمات الأدبية التي يراها مثلاً بكتاب "كليلة ودمنة" فيقول: أرأيت أيها الناظر في كتاب *كليلة ودمنة*؟ أكان يقوم وأنت تذوق حلو تركيبه، وتستهري لذة أسلوبه، إن عبد الله بن المقفع قد عربه عن الفارسية لو لم يصل خبر ذلك إليك؟ فسقيا لك تلك الأقلام التي عربت وسطرت فأعجبت، وأها هذه اللغة التي أصبحت بين ألسنمني نادى بوأدها وعربى يعمل على كيدها.

وإذن فالذى قصد إليه حافظ إبراهيم لم يكن ترجمة للأوصياء، وإنما تريراها لأجزاء منها، وإن أصر هو رحمة الله على اعتبارها ترجمة كترجمة ابن المقفع لـ *كليلة ودمنة*. وفي ذلك يروى الأستاذ المازنى حادثة طريفة جرت له مع حافظ، وكان المازنى مائى طالباً في مدرسة المعلمين العليا وقد أوفده أحد أصدقائه إلى حافظ في أمر قضاه له. ويستطرد المازنى فيقول: "يظهر أن حافظاً استصغرنى في نظره، فكان يخاطبنى بلفظ (ياشاطر) فسأله ذلك، وقلت له قبل أن أنصرف شاكراً : لقد قرأت ترجمتك للأوصياء ولا شك أنه كتاب نفيس إذا نظرنا إلى اللغة، ولكن لاشك أيضاً

ولا يستطيع أحد أن يوافق الأستاذ المازني على أن حافظا قد قام بتلخيص قصة المؤسأ لهيجو، فتلك القصة لا يمكن تلخيصها لأنها ليست قصة موحدة، وإنما هي سلسلة مشاهد الحياة في فرنسا وما كان فيها من بؤس في القرن الناسع عشر. ولو أنها كانت قصة موحدة لأمكن تلخيصها أو تقديمها إلى قراء العربية في صورة موحدة، على نحو ما فعل المنفلوطى بعد ذلك في مسرحية "سيراوندى برجراك" لأدموند روستان الذى قدمها إلينا المنفلوطى فى شكل قصة جميلة عنده الأسلوب أو قصة "بول وفرجينى أو الفضيلة" وقصة "غادة الكاميلىا" بل لقد استعاضت المؤسأ على أن تلخص فى فيلم سينمائى واحد، واضطر مخرجوها إلى جمع مشاهدها فى ثلاثة أفلام، وقد قام أخيرا الأستاذ منير البعلبكي بترجمة المؤسأ ترجمة حرافية كاملة ونشرها بدار العلم للملائين بيروت فى خمسة أجزاء كل جزء منها يقع فى حوالي خمسين صفحة من القطع الكبير.

وإنما الذي قام به حافظ إبراهيم هو تعریب وتلخیص لبعض أجزاء تلك القصة الراخة ، وقد اتخد للجزء الأول عنواناً ”جان فابلحان“ وللجزء الثاني عنوان ”عاصفة تحت بحيرة“ والجزآن يتناولان ما كان لحان ذابلحان الخارج من السجن من أحداث ومحاولات يائسة ليسترد شرفه في المجتمع رغم نفسه الخيرة . وأما ماعدا ذلك من قصص ولوحات فلم يعرض له حافظ في شيء مع أن هذه القصة تضم لوحات لامثيل لقوتها وروعتها، مثل وصف هيجو لمعركة ووترلو الشهيرة التي انهزم فيها نابليون .

وأما عن أسلوب حافظ في الترجمة ، فهو أسلوب رصين قوى خالل القصة من أو لها إلى آخرها، وهو وإن لم يلتزم السجع ولم يسرف في التناس المحسنات البدائية إلا أنه قد حرص الحرص كله على انتقاء ألفاظه وسبك عباراته، وهذا عمل مضن في الكتابة فضلاً عن الترجمة . فالكاتب الذي يتكلف الصنعة الأدبية في كتابته يفك الفكرة أو العاطفة مرتين ، مرة ليدركتها ويفهمها ، ومرة ليحيطال عليها حتى تسكن إلى العبارة المصنوعة التي يريدها . وكذلك المترجم . وأكبر الظن أن حافظاً لو حاول أن يترجم ”البوسأ“ كلها على هذا التحول لما اتسع لذلك جهده بل ولا اتسع عصره .

ويحدثنا أنطون الجميـل صديق حافظ في مقال له عن الجزء الثاني من البوسأ عن جهد حافظ في ترجمته واعتراضه بهذه الترجمة ، فيقول ”ترجم

حافظت هذا الجزء كما ينظم قصيدة. فلنسق عباراته كما ينسق قوافيها، وتحير مفردات شعره بما اشتهر به في تحير مفردات شعره. وإنكم لقيته وهو ينشد لى صفحة من المؤسأة كما ينشد مقطعاً من شعره الجزل. إذا رجعنا إلى حكم حافظ نفسه قد نجد، يؤثر بعض صفحات ترجمته على بعض مقاطع ديوانه، لأن تلك قد كلفته قدر ما كلفته هذه، ومعزة الشيء كما يقولون بقدر ما يكفي وكذلك قيمته“.

وإذا كان هذا الحرص الشديد على تحويل العبارة قد ساق حافظاً أحياناً إلى التكلف والاصطناع، ولم يراع دائماً مقتضى الحال حتى نراه يجرى الحوار على لسان الخدم بلذة عويسة متکفة على النحو الذى ينطبق عليه نقد أحد أشخاص الرواية ذاتها عندما يصف“ أوائلك الذين إذا ذكروا الزوج قالوا البعل، والزوجة قالوا الخليلة، والملك قالوا رب التابع والصوبحان.. الخ“ فإنه من جهة أخرى قد استطاع أحياناً كثيرة أن يلبس تصویر هيجو البياني ثوباً عربياً جميلاً مثل قوله في وصف الندم“ ص ١٧ جزء ٢ ” (والذكر كالبحر فن استطاع أن يرد البحر عن العود إلى شاطئه استطاع أن يرد الفكر عن العود إلى مناطقه. وعلة البحر في ذلك يعرفها الملاح وهي المد والجزر، وعلة الفكر يعرّفها المذنب وهي الندم، فسبحان من يثير النفس كما يثير البحر المحيط) ، أو قوله في المرض الذى يسبق الشيخوخة (أف من المرض فإنه يرتجى الشيخوخة، وإنه لأنجب مطايماً الكبر) .

وأيا ما يكون الحكم على هذه الترجمة، فإن (البوساد) لما نظر إبراهيم  
تحفظ بلا ريب بفضل خصائص صياغتها، وروعتها أخلاقها ومعايتها وثوابها  
العربي الجميل بقيمة أدبية خالدة، وما أظنها ستصبح يوماً مجرد وثيقة من  
وثائق التاريخ الأدبي.

### ليالي سطيح والقصة الاجتماعية

وأما العمل الأدبي الذي يستحق أن يفرد له مكان في تاريخ فنون  
الأدب النثرى في عصرنا الحديث فهو بلا ريب كتاب "ليالي سطيح"  
وذلك لأنه يعتبر من طلائع القصة الاجتماعية، وهذا النوع من القصص  
قد كان أسبق إلى الظهور في أدبنا الحديث من غيره من أنواع القصص  
لعدة ظروف سياسية واجتماعية وثقافية.

أما الظروف السياسية فتلخص في ذكرية مصر بزيمة الثورة العرابية  
واحتلال الإنجليز لبلادنا مما دعا مفكرينا إلى أن يعنوا النظر في الآفات  
الاجتماعية التي كانت تخترق حياتنا، وتسبب ضعفنا وتخلفنا وهزيمتنا.  
فراح كل مفكر يبحث في ناحية من النواحي، فتقاسم أمين ينشر منه  
عام ١٨٩٩ سلسلة من المقالات عن تحرير المرأة وفي نفس الوقت ينشر  
أحمد فتحى زغول سلسلة أجزاء من كتاب للكاتب الفرنسي "أدموندى ولان"  
عن "سر تقدم الإنجليز السكونيين" ثم يجمع كل منها مقالاته في كتاب

ويصدر أحد فتحى زغلول كتابه بمقعدة مسهمة عن تأثر المصريين وأسرار هذا التأثر فيقول : ” نحن ضعاف أمام الغرب .. ضعاف في الزراعة .. ضعاف في الصناعة .. ضعاف في التجارة .. ضعاف في العلم .. ضعاف في العزيمة .. ضعاف في الألفة والمودة .. ضعاف في النخوة والشعور الدينى .. ضعاف في الجامعات القومية .. ضعاف في الخيرات .. ضعاف في طلب الحقوق وأداء الواجبات .. ضعاف في حفظ ماترك الآباء .. ضعاف في التحصيل .. ضعاف حتى أصبحنا نرجو كل شيء من الحكومة ” .

ويوحى كتاب أحد فتحى زغلول عن سر تقديم الإنجليز السكسونيين ومقتهم إلى أحد مفكرينا وعلمه كان أيضاً من رجال القضاء وهو المرحوم محمد عمر بكتابه كتاب مما زال في منهجه مضاد في اتجاهه ، وهو كتاب ” حاضر المصريين وسر تأثرهم ” الذي أصدره عام ١٩٠٢ في نحو ٣٠٠ صفحة صور فيها أوجه الضعف التي يشكو منها المجتمع المصرى ، وقدم له فتحى زغلول أيضاً بمقعدة مركرة تؤيد ماجاء في الكتاب . وقد قسم المؤلف المجتمع المصرى إلى ثلاث طبقات : غنية ومتوسطة وفقيرة ، وأخذ يبحث في كل طبقة عن العيوب التي تختص بها ، والعلاج الذى يراه لكل عيب ، ويأتى زميلنا الدكتور عبد اللطيف حمزه في كتابه عن الصحافة والأدب فى مصر : إن المستشرق الفرنسي ” هنرى بيريس ” هو الذى لفت

النظر إلى هذا الكتاب في مقال له بالجلد الحادى عشر من مجلة المكشوف  
”العدد ٣٩٣ سنة ١٩٤٥“ .

وأما الظروف الإجتماعية التي دفعت مفكرينا وأدائنا نحو النقد الإجتماعي فقد تولدت من احتكار الحضارتين الغربية والشرقية في بلادنا إبتداء من مطلع القرن ١٩ . وقد ولد هذا الاحتكار النقد الإجتماعي في اتجاهين متضاربين متضادين . ففي ضوء حضارة الغرب وروحها العقلية النقدية أخذ مفكرونا يتبنون إلى ما كان قد تراكم في حياتنا من تقاليد وعادات ومعتقدات وخرافات طغت على حياتنا منذ عصور الظلام العثماني ، والمملوكي كالشعودة والاعتقاد في الأولياء والأضرحة ، والزار والحسد وما إلى ذلك من آفات . ومن جهة أخرى أخذت الحضارة الغربية تبهرنا ببريقها وتجذبنا بتفوقها . واما كان من الأسهل محاكاة القشور دون اللباب والأخذ بالظواهر دون الجواهر ، فقد كان من الطبيعي أن يكون أول ما يتسرّب إلينا من حضارة الغرب بعض تلك المظاهر والقشور على حساب كبير من تقاليدنا الدينية والأخلاقية الكريمة السمحنة . فانتشرت بدع الأزياء والثياب والقمار والندوات الخالية مما أثار المحافظين ، ودفعهم إلى المغالاة في محاربة الحضارة الغربية دون تمييز بين ما فيها من نافع وضار . حتى رأينا أحد عظمائنا ، وهو المرحوم طلعت حرب يعارض دعوة

نقاش أمين إلى تحرير المرأة معارضه عنيفة في كتابه "تربيـة المرأة" الذي يرد فيه على كتاب "تحرـير المرأة".

وأما الظروف الثقافية فترجع هي الأخرى إلى اتصالنا بثقافة الغرب وأدابه، وتبهـنا إلى فنون من الأدب لم تـعرف أو لم تـزدهـر في تراثـنا العربي القديـم مثل فـنـي المـسـرـحـية والـقـصـة . والـذـي لـاـسـكـ فـيـهـ أـنـ دـعـرـةـ أـدـبـائـاـنـاـ وـمـفـكـرـيـنـاـ إـلـىـ اـسـتـفـادـةـ مـنـ آـدـابـ الـغـرـبـ وـفـنـونـهـ قـدـ وـصـلـتـ وـأـثـرـتـ فـيـ الـغـالـيـةـ الـعـظـمـيـ مـنـ أـدـبـائـاـنـاـ حـتـىـ وـلـوـ لـمـ يـكـوـنـواـ يـعـرـفـونـ أـوـ يـحـيـدـونـ لـغـةـ ،ـ وـإـذـاـ كـاـنـاـ نـعـتـرـ حـافـظـاـ مـنـ شـعـرـائـاـنـاـ التـقـليـدـيـنـ ،ـ فـإـنـ الدـعـوـةـ إـلـىـ الـأـخـذـعـنـ الـغـرـبـ وـالـخـرـوجـ عـنـ دـائـرـةـ التـقـالـيدـ الـأـدـبـيـةـ الـتـيـ تـحـجـرـتـ عـنـدـ الـعـرـبـ قـدـ وـصـلـتـهـ بـلـ وـأـنـارـتـهـ ،ـ وـاسـتـحـوذـتـ عـلـىـ لـبـهـ عـلـىـ نـحـوـ مـاـ نـحـسـهـ فـيـ قـوـلـهـ :

آن يـأشـعـرـأـنـ تـفـكـ قـيـودـاـ قـيـدـتـنـاـ بـهـ دـعـاءـ الـمـحـالـ  
فـأـرـفـعـواـ هـذـهـ الـكـائـمـ عـنـاـ وـدـعـونـاـ نـشـمـ رـيحـ الشـمـالـ

ورـيـحـ الشـمـالـ الـتـيـ يـحـرـصـ حـافـظـ عـلـىـ أـنـ يـشـمـهـاـهـ بـلـ رـيبـ أـدـبـ الـغـرـبـ  
الـذـيـ رـأـيـنـاهـ يـتـجـهـ إـلـيـهـ أـيـامـ مـحـنـتـهـ مـحـاـلـاـ أـنـ يـجـدـ فـيـهـ تـعبـيرـاـ عـنـ الـبـؤـسـ الـذـيـ  
يـشـقـ بـهـ ،ـ وـيـخـتـارـ لـهـ ذـهـاـ التـعبـيرـ تـلـكـ القـصـةـ الضـيـخـمـةـ الـتـيـ عـنـوانـهاـ يـتـجـاـوبـ  
عـمـ حـالـتـهـ الـنـفـسـيـةـ وـهـيـ قـصـةـ الـبـؤـسـ الـتـيـ تـتـسـبـعـ هـيـ الـأـخـرىـ آـفـاتـ الـمـجـمـعـ  
وـتـكـشـفـ عـنـهـاـ ،ـ وـتـتـبـيرـ ضـدـهـاـ النـفـوسـ .ـ

كل هذه الظروف مجتمعة كانت خلية لأن تدفع الأدباء كما دفعت  
جمهور المفكرين نحو النقد الاجتماعي ، وإذا كان هذا النقد قد وجد مجالاً  
أول الأمر في مقالات الصحف وبجالاتها الإصلاحية، وبخاصة في صحيفتي  
المؤيد واللواء ، فإنه ابتدأ يتخذ أيضاً القصة صورة أدبية له . فرأينا  
محمد المويلحي ينشر تباعاً في صحيفة مصباح الشرق التي أسسها والده إبراهيم  
المويلحي في سنة ١٨٩٨ قصة الاجتماعية المعروفة باسم حديث عيسى بن هشام  
وعيسى بن هشام هو محمد المويلحي ذاته الذي يقص المؤلف على لسانه كيف  
إنه رأى في المنام كأنه في صحراء الإمام يمشي بين القبور والرجم في ليلة  
نهراء قراء يستربضاً بها نجوم الخضراء ... انح حتى انتهى إلى قبر نهض  
منه أحد باشوات عصر محمد علي ، وصاحب عيسى في رحلته طويلاً خالل  
العاصمة يقارن بين ما آلت إليه الأخلاق والعادات ونظم الحياة ، وبين  
ما كانت عليه في عصر محمد علي ، ويتقد بليئات المجتمع المصري المختلفة  
بروح محافظة تحن إلى التقاديم في أغلب الأمر .

وإذا كان حافظ قد تأثر في شعره تأثراً أكيداً واضحًا بمحمود سامي  
البارودي فإنه قد تأثر بلا ريب بمحمد المويلحي "وحديث عيسى بن هشام"  
بني شره وفي "لِيَالِي سطْرِيْع" وكل ذلك فضلاً عن تأثير الجميع بشعراء  
العرب وناثريهم القدماء أمثال الصاحب بن عباد والحريري والهمذاني  
وابن زيدون .

ومع ذلك فأنا أخالف كل المخالفه من يزعمون أن ”ليالي سطيح“<sup>٢٤</sup> هي مجرد محاكاة ” الحديث عيسى بن هشام“ وإن تَكَنْ هذه المحاكاة ممكنة تاريجياً . لأنه وإن يكن ” الحديث عيسى بن هشام“ قد نشر في كتاب سنة ١٩٠٧ بينما نشر كتاب ”ليالي سطيح“ سنة ١٩٠٦ إلا أن حافظ إبراهيم قد طالع بلا ريب أو امتناع أن يطالع الحديث عيسى بن هشام في المقالات المسماة بجريدة ”صباح الشرق“ بل لقد ضمن حافظ إبراهيم ”ليالي سطيح“ فصلاً كاملاً من الحديث ”عيسى بن هشام“ وذلك ابتداء من ص ٧٤ من ”ليالي سطيح“ حيث نطالع وصف المؤيحي لقصر إسماعيل ، وينتها حافظ نفسه إلى أن هذا الوصف لا يليحى حيث يقدم له بقوله : ”هذا قصر إسماعيل“ الذي يقول في وصفه صاحب ”عيسى بن هشام“ ثم يورد بعد ذلك الوصف برمته . ولكن هذا التضمين ليس هو الوحيد في ”ليالي سطيح“ التي ضمنها حافظ مقالاً بأكمله لصاحب المؤيد بعنوان ”السياسة الضئيلة والعنيفة“ عن مأساة دنشواي وصف الإنجليز أمام الوطنية المصرية ، وانقلاب هذا الضيوف إلى عنف ، كما ضمنها في ص ١٣٦ وما بعدها مقالاً آخر للمؤيحي الكبير أى لإبراهيم المؤيحي عن فساد المجتمع ، ذلك الفساد الذي دفع الإمام محمد عبده إلى ما يشبه اليأس من مجتمعنا المصري حينئذ فقال قوله المشهورة ”هذه الأمة حياتها في موتها“ .

”ليلى سطيح“ ليست إذن مجرد محاكاة ”حديث عيسى بن هشام“ كما أنها ليست مجرد رصف للألفاظ ، وإظهار للهارة اللغوية ، وحفظ مفردات اللغة ووسائل تعبيرها العتيقة ، بل هي أقرب ما تكون إلى القصة الاجتماعية ، أو إلى الشريط الاجتماعي الذي يستعرض فيه حافظ مشكلة من مشاكل عصره في كل ليلة من تلك الليالي . وقد اختلطت هذه المشاكل أحياناً كثيرة بمشاكل حافظ الشخصية ومايحياته ومواضع اهتمامه . واتضحت في هذا الشريط آراء حافظ واتجاهاته بل وخصائص روحه الشعرية حيناً ، والفكهة الساحرة حيناً آخر .

وهيكل القصة العام يقوم على تزهات كان يخرج إليها الكاتب كل مساء منفرداً أو مع من يلقى من الصحاب أو عابري السبيل إلى مكان على ضفاف النيل يلقي فيه سطيح – ذلك العراف العربي القديم – ويدور بين الكاتب ومن معه وبين سطيح حوار حول إحدى المشكلات التي يحس بها سطيح بثاقب بصره ، فتلك مشكلة الحفوة التي طرأت بين المصريين وإخواننا السوريين واللبنانيين النازحين إلى مصر حيناً ، وتلك مشكلة المجد الأدبي وحظ شوق منه ، وظروف هذا الحظ حيناً آخر ، وتلك حركة التمرد في السودان ودسائس الانجليز فيه ، ونكبة حافظ ورفاقه من الضباط والجنود في ذلك التمرد حيناً ثالثاً ، وذلك رأى حافظ فيما انحدرت

إليه الصياغة من نهر الأعراض بسبب الحرية القومية التي منحها لها  
عن قصد سئ كرومر في فقرة من الزمن . ثم لوحات عديدة عن الحياة  
في الأسواق والمتاجر والملاهي ، وفقد لعدد من مظاهر تلك الحياة ،  
وموازنة بين فوضى الحكم التركي وفساده ، وحكم الأسرة العلوية الطاغي  
ومظاهر الحضارة والتنظيم المزيفين في عهد الاحتلال البريطاني ، وهو  
نقد يخيل إلينا أن حافظا قد استطاع توكيذه على أقوى نحو في أبياته التي  
ساقها في هذا الموضوع من الكتاب وهي قوله مازطاً كرومر :

لقد كان فينا الحكم فوضى فهوذت حواشيه حتى بات ظلمها منظماً  
تمن علينا اليوم أن أخصب انثرى وأن أصبح المصرى حرًا منها  
أعد عهد إسماعيل جلداً وسخرة فإني رأيت المن أنكى وأما  
عملتم دلي عن الجماد وذاك فأغايتم طينا وأرخصتم دماً

ونستطيع أن نضرب مثلاً للوحاته الفنية الدقيقة بوصفه لأحد التجار  
ف السوق واحتياله على الريفيين حيث يقول (وكان كيسهم إذا ظفر بقدم  
من أقدام الريف حط عليه بأذاع الدماء، ثم وانقه على أن يطارفه بأنه من  
ما عنده حتى يتلجل الرجل، إلى قوله : فإذا علم أنه سكن إليه بهوه بطائفة  
من ألفاظ الإناء قد خزنها في رأسه وادخرها لوقتها، فلا يكاد المسكين يفيف  
من ثوة الفرح لما سمع من الإطراء حتى يعاجله الخبيث بتعليق سلة

في عنقه مشفوعة بآخرى فوق رأسه ، معززة بثالثة تحت إبطه فلا يربح الحانوت حتى تبرح الدرارهم مخبأها ، فيخرج وقد انتهيت أوداجه بكثرة هذا النفاق ، وهبطة كيسه من فرط ذلك الإنفاق .

ومن تصويره البياني المانح قوله ”وقف شريكه الشرقي وغربي أمام المرأة وفي يد الغربي قطعة من الذهب ، فقال شريكه الشرقي وقد تاطف : ألا تطيني قسمى من تملك التي بيدك .. فقال الغربي : أبا وقد أردت اللسمة ، فاعلم أن التي بيدي هي لي ، ونملك التي تراها في المرأة هي قسمك (نصيبك ) . وقد ساق هذه الصورة البيانية المانحة ليوضع حقيقة اشتراك المcriين في حكم السودان .

ونحن كما قلنا لانعدم في ليالى سطح العثور على قسمات من تلك الروح الفكاهية الاطينة اتى اشتهر بها حافظ في حياته الخاصة وفي مجالس الأدب وذلك مثل تعريفه رفيقه بقصر شادداته وصاحب هذا القصر حيث يقول : إنه قصر لغنى هو الجمع وشيمته الممنع فهو لا يخشى المعاشرة ولا يعرف سبيل المبرة ، وقد بلغ من حرصه على الدائق والحبة أنه اذا أغلس استتصبح في داره بالنجوم لذلك لاترى في فناءها قنديلا ولا يعرف الطارق الى طريقها سبيلا ) .

وتصل به روح الدعاية الساخرة فتها عندما يضيف إلى ماسبق من  
وصف هذا البخيال قول ابن الرومي :

فلو يستطيع اتقينه تنفس من منخر واحد

وفي الكتاب فوق ذلك كثير من الصور البيانية التي أحس بها مبتكرة  
أصيلة مثل وصفه لانفشار الظلمة في بطء قوله :

وإذا ظلمة تجلى عن أطراف السماء انجلاء الخضاب عن القذال  
الأسيب ” .

وفي الكتاب فوق كل ذلك فقرات كثيرة أشبه ما تكون بالاعرافات  
الشخصية، والتعبير عن أشواق الروح التي عانها حافظ رحمة الله. ومن أخص  
ذلك الأشواق الناطلة إلى الأمان والاستقرار، والتخلص من الخوف والقلق  
وذل الحاجة مثل قوله لجاوره: ”أنت تعلم أنه ما من الله على خلقه بنعمة  
هي أولى بالشكر وأحق بالذكر من نعمة الأمان قال تعالى معددا آلاء  
على قريش (فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعهم من جوع وآمنهم  
من خوف) بخده سبحانه وتعالى نعمته الكبرى ومنته العظمى ، فمن  
بات منها آمنا في سربه كان حقيقا أن لا يغفل طرفة عين عن الشكر ” .

هذه هي ليالي سطريح التي يظنها البعض أحيانا محاكاة عظيمة لحديث  
عيسى بن هشام، ويراهما آخرون مجرد إنشاء لغوی حال من كل مادة فكرية  
أو عاطفية أصيلة مع أنها في الحقيقة تقف في صف طلائع فن أدبي رفيع

هوفن القصيدة الاجتماعية، ويع أننا لازال نجد في مطاعتها لذة عقلية وعاطفية  
وجمالية لاشك فيها .

وإذا كان هالك ما يجدوا مأخذًا على ليالي سطيح فهو التزمت في اختيار الألفاظ، والإسراف في الحرص على الجزلة، وتلك مشكلة قل من استطاع التخلص منها من جيل حافظ فن الأدباء التقليديين، بالرغم من أن الشعر كان البارودي قد استطاع أن يخلصه بقوه فاهره من الزخارف اللغظية السقيمة.

وإنه من الطريف أن نلاحظ أن حافظا الذي دعا إلى التجدد في الشعر وتنسم ريح الشمال ، دعوة نظرية لم يستطع أن يتحققها عملا في شعره بسبب وطأة التقاليد الأدبية، وصعوبه التخلص منها في بيته كانت المحافظة الأدبية لازال مسيطرة عليه — من الطريف أن نلاحظ أن حافظا هذا قد نظر أيضًا إلى مشكلة اللغة وضرورة العمل على المقاربة بين لغة الحديث ولغة الكتابة ، وقد دعا هذه الدعوة في ليالي سطيح ذاتها حيث نراه يستعرض أسرار مجده الغرب فيقول : انظر في تاريخ دول الغرب وأمعن قليلا في البحث عن أسرار مجدها تجد سر ارتقاءها في تصافر كتابها على بث روح التأثير في نفوس العامة بما يخررون لهم من الأحاديث ، وقد ساعدتهم على ذلك أن الناس هنا لك يكتبون باللسان الذي به يتكلمون ، فتتسرب إلى نفوسهم معانى الشاعر ، وتمتزج بأرواحهم روح الكاتب وإن كانوا لا يشعرون .

وأما العرب فإنه يرى أن "أصل البلاء الذي استعصى معه الدواء عندهم أن لهم لسانين قد تناكرا حتى تنافرا ، اختصوا أولهما بالكلام وجعلوا الثاني من نصيب الأقلام ، فمنع اعوجاج هذا من إنتقامته ذلك ودفع حاملهما في سوء الخلط والارتباك ، فكم ترددت بينهما حيرة الشاعر وأشفقت من العذاب براعة الناشر . إذا أرضى الشاعر لسان الكلام أغضب لسان الأقلام ، وإذا نزع الكاتب إلى محاسنة العامة جرّه ذلك إلى مخالفة الجماعة" .

وقد كان نصيب هذه الدعوة من حافظ نفسه هو نفس النصيب الذي صادفه دعوته إلى التجديد في الشعر وتنسم "ريح الشمال" فهو لم يستطع في شره أن يعمل شيئاً للتقريب بين لغة الكلام ولغة الأقلام ، وإنما الذي استطاع ذلك أديب كبير آخر يعتبر من رواد القصة في مصر، وهو المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل الذي كتب في ١٩١٠ وهو لا يزال طالباً في فرنسا قصته "زيدب" ، ونشرها فصولاً "بالجريدة" عام ١٩١٤ بعد عودته إلى مصر، ففي هذه القصة تقترب لأول مرة لغة الأدب من لغة الحديث المألوفة عند المصريين ، فنرى هيكل يقول عن فتاته : إنها "فردت ذراعيها" بدلاً من "بسطت ذراعيها" كما يقول "إن العائلة جلسَت جميعاً حول المشنة، وأكل كل منهم رغيفاً بمحضه ملتح" ويصف

إحدى الحالات بأنها "أغلت من سابقتها" وكلمة أغلت يعني أقسى أو أشد مأخوذه من لفظة شائعة بين زراع الريف ، وهي لفظة الغات أي الحصى الذي يخاطر بالقمع فيسيء إليه .

### سيداتي سادتي :

هذه أطراف من المجهود الأدبي الناجح الذي بذله شاعرنا الشعبي الكبير حافظ ابراهيم في مجال الترجمة، علمية كانت، أم أدبية، ثم في مجال الترجمة علمية كانت أم أدبية، ثم في مجال القصة بنوع خاص، ودو ذلك الفن الذي يعتبر حافظ والمؤلحن والدكتور هيكل من رواده، وبخاصة القصة الاجتماعية في مجتمع أخذ يسقط العيوب الاجتماعية، ويسمى إلى تشخيصها والتاس العلاج لها . لم يقنع حافظ وزملاؤه بالمقالات الصحفية في هذه الن restaقة التي تعتبر نقطة البدء فيها الشعور بالقصص والوعي به ودقة تشخيصه ، فأخذوا يدللون في هذا المعرك الحيوي بذاتهم الأدبي الذي اتخذ صورة من أربع صور الأدب الحديث وأكثراها رواجا في العالم كله ، وهي القصة ولذلك يحلو لنا أن نتعرف بفضل قيادتهم ، وألا نطالبهم بالكمال الفني في فن كان لا يزال عند خطوهه الأولى في بلادنا .

# حافظ و جهاد اور حراز فیلیپین

لأشك أن الدارس لشعر حافظ يوجه عام يتبعن جلياً أن هذا البabil الصداح قد تناول جل أغراض الشعر، وحقق في كثير من آفاقه، وصور مختلف المعانى فأبدع التصوير، وعبر عن أمانى الشعوب وألامها فكان صادق التعبير، وقد أعطى لوطنه وقومه الكثير من رواىع تغريده وبدائع تصييره، فكان إنتاجه الشعري مرآة صادقة لحقيقة تفسيته واتجاهاته الكثيرة وترجماناً لما يعتمل في صدره من أحاسيس وطنية مشبوبة، ومشاعر عربية سامية، فهو قد بذل في سبيل أمته أغلى ما تزخر به شخصيته القوية الحساسة من حيوية دافقة، بوطانية ذهنية مبدعة، ومع ذلك لم يأخذ من هذه الأمة شيئاً يستحق الذكر، ولم ينل من تقديرها الأدبى والمادى ما هو جدير بصورة كفاحه الخالدة، وإنكنته لم ينتقم على أحد، ولم يتذمر من حظه الا اثر ولم يتسرّب اليأس إلى قلبه الكبير، ولم يرج الثواب على نضاله الدائب من أجل وطنه وفي سبيل قوميته العربية الصاعدة التي وهبها بنات شعره هبة الكريم الذى لا ينبع بما يعطى، ولا يشعر بأنه منعم متفضل لأنّه كان يحس إحساساً عميقاً بأن هذه الآلام التى ينفثها من أعماقه فى أنغام حزينة

و تلك الآمال المشرقة التي يصورها في إطارات وردية لامعة، ويبيت هذه و تلك بين الجماهير الضائعة في هذا الشرق العربي الكبير إنما هي قطعة من كيانه، وجزء حساس من ذات نفسه، وحقيقة كامنة في أصل وجوده.

إذاً فهو قد حاش حياته الشعرية يحس هذا الإحساس، ويشعر هذا الشعور لا يلتغى المثوبية والجزاء لأنّه لا يخدم أغراضًا خاصة، ولا ينسد أهدافاً معينة، وإنما يخدم القضية الكبرى قضية العرب أجمعين في كل مكان، ويصرخ في النائمين منهم أن يثروا وثبة الأباء الأشاؤس.

وفي رأيي أن من أقوى الأسباب التي جعلت حافظاً يفتح أكثر شعره من نبع قومي وإنساني، ويوطن نفسه لحمل رسالة العروبة والشرق هو عمق إيمانه بـمُجَادِلَةِ الْعَرَبِ فِي مَاضِهِمُ الساطِعِ، وعظيم إنجازاته للرسالة الإنسانية الخالدة التي حملوا مشاعلها في عهود الظلام، ثم ثقته الكبيرة بإمكانية بعث تلك الأمجاد، وإعادة ذلك البناء الشامخ من جديد. إذ أن عرب اليوم هم سلائل أولئك القادة الموجهين والبناء المنشيدين، فطبعي أن يرثوا عنهم كل صفاتهم ومميزاتهم، و تلك الروح الخلاقية التي لا تعرف الاستكناة، و تلك العقول الجبارية التي تشع وتضيء وتهدي، و تلك العزائم الفولاذية القوية التي لا يعرف الفشل إليها سبيلاً، وبالتالي تلك النقوس الطاغمة أبداً والتي لا تؤمن بالهزيمة ولا تنظر إلى أسفل. يضاف إلى هذا كله ثقافته الواسعة بعلوم اللغة العربية وأدابها، وإحساسه بما يمكن فيها من سمو وجمال

وَمَا تَمَازَ بِهِ مِنْ هُرْوَةَ وَثُرْوَةَ وَاتْسَاعَ، ثُمَّ شَهُورَهُ بِالوَاقِعِ الظَّلِيمِ الْمُؤْلِمِ الَّذِي  
تَبَيَّشَهُ أُمَّتُهُ إِذْ ذَلَكَ. كُلُّ هَذِهِ الْعُوَامِلِ وَغَيْرُهَا تَفَاعَلَتْ فِي نَفْسِهِ الْخَاسِنَةِ  
الْمَرْهُوفَةِ؛ فَلَوْنَتْ مَعْظَمَ شِعْرِهِ بِهَذَا الْأَلوَانِ الَّذِي يَكَادُ يَتَبَيَّزُ بِهِ عَلَى مَعَاصرِهِ  
مِنَ الشُّعُراءِ.

وَلَعْلَ تَمجِيدَ حَافِظِ لِبْطُولَةِ الْمُجاهِدِينَ الْأَحْرَارِ مِنْ أَبْنَاءِ لِيَابِيَا ضَدَّ  
الْمُسْتَعْمِرِينَ الإِيطَالِيِّينَ، وَتَنْدِيدُهُ بِوَحْشِيَّةِ الْغَاصِبِينَ فِي هَذَا الْجَزْءِ مِنَ الْمَحِيطِ  
الْعَرَبِيِّ، وَمُوَاسَاتَهُ لِلْأَرَاملِ وَالشَّيْوخِ، وَبَكَاءُهُ مَعَ الْيَتَامَى وَالْمَفْجُوعِينَ، لَعْلَ  
كُلُّ هَذَا مَظَاهِرُ مَادِيٍّ وَاضْعَفُ الْمَعَالِمِ لِاتِّجَاهِ شِعْرِهِ رَأْهُدَافَهُ الْعَرَبِيَّةُ النَّبِيلَةُ.

وَلَنْسِنَمُعَ إِلَيْهِ فِي مَطْلَعِ قَصْبِيَّتِهِ "حَرْبُ طَرَابِيلْسُ" الَّتِي يَكْشُفُ فِيهَا عَنْ  
مَطْلَعِ الْغَرْبِ الَّذِي تَجْرُدُ عَنْ قِنَاعِهِ وَبَدَا وَحْشًا ضَارِّيًّا، وَيَحْذِرُ الشَّرْقَ مِنْ  
الْإِمْعَانِ فِي سُبَاتَهِ الثَّقِيلِ الطَّوِيلِ، وَيَحْمِلُ الشَّمْسَ آخِرَ تَحْيَاتِهِ لِجَمِيعِ سُكَانِ  
الشَّرْقِ، وَيَطلُبُ إِلَيْهَا أَنْ تَشَهَّدْ بِأَنَّا فِي مَيْدَانِ الْشَّرْفِ وَالْكَرَامَةِ نَسْعَدُ بِ  
الْمَوْتِ، وَنَسْقُطُ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ كَمَا يَسْقُطُ الْأَطْبَالُ :

طَمَعَ أَلْقَى عَنِ الْغَرْبِ اللَّثَامَا      فَاسْتَفَقَ يَا شَرْقَ وَاحْذَرْ أَنْ تَنَامَا  
وَاحْمَلِي أَيْتَهَا الشَّمْسَ لِمَى      كُلُّ مَنْ يَسْكُنُ فِي الشَّرْقِ السَّلَامَا  
وَاشْهَدْيِي يَوْمَ التَّنَادِيْ أَنَّا      فِي سَبِيلِ الْحَقِّ قَدْ مَنَّا كَرَامَا  
مَادَتْ الْأَرْضَ بِنَاحِينَ اتَّشَتْ      مِنْ دَمِ الْقَتْلِيِّ حَلَالًا وَحَرَاما

سخر الطليان عن أبطالنا فاعلوا من ذرارينا الحساما  
كبلوهم قل لهم مثلوا بذوات الخدر طاحوا باليتامى  
ذبحوا الأشياخ والزمنى ولم يرحموا طفال ولم يبقوا غالما  
أحرقوا المدور استحلوا كلما حرمت (لاهـ) في العهد احتراما

ثم هو يندفع في ثورة وحماس مصوّرا بطولة المكافحين المايدين وقوة  
بطشهم بأعدائهم، ويشيد بالانتصارات الباهرة التي أحرزها الوطنيةون  
برغم قلة تعدادهم وعتادهم، ويُسخر بالغزاوة ويستعرض هزائمهم واعتصامهم  
بالشواطئ جبنا وإحجاما في أسلوب تكمي لاذع تصدر منه هذه المعانى  
التي تشعل الحماسة في الصدور، وتبعث روحاقريه وثابة بين الصنوف  
وكائه فرد من المجاهدين يحمل بندقيته وينجوض غمار المعركة فيعيش  
نفس الظروف المأسية التي يعيشونها، ويصل إلى زار الحرب التي يصلونها  
ـ ياكل التمر الردى الذى يأكلون، وشرب آلا، الأسن الذى يشربون  
ويتأثر به بغير الصيف وزمهرير الشتاء كآية ترون، ينام على الرمال مثلهم وينهر  
الليل إلى الطوال شاكيا سلاحه إلى جانبهم . أجل كان يحس في أعماقه أنه  
يعيش هذه الحياة ويضطرب داخل محيطها المتوج بالسنة اللهب، كان  
يحس ذلك لأنه عربي وهؤلاء المجاهدون من أمرار ليبيا عرب، فهم إذا  
إخوتـه، كلهم أغصان من دوحة واحدة، وخذلـيا حية تتفاعل في جسم واحد

و الطبيعي أن تهجه أفرادهم وتزلزل كيانه محظوظاً لهم، فينشد هذا النشيد القوي المعبر :

فقرأناها سطروا من دم  
أقسمت لهم الشرق التهاما  
أطلقوا الأسطول في البحر كا  
فضى غير بعيد وانثنى  
قد ملأنا البرون أشلاءهم  
أعلزوا الحرب وأضننا لهم  
حاتم الطليان قد قلتنا  
أنت أهديت إلينا عدة  
وسلاحاً كان في أيديكم  
ما لهم والنصر من عاداتهم

لزموا الساحل خوفاً واعتصاماً  
ذاكلاً فغداً يفرى العظاماً  
وابساً وشراياً وطعاماً  
منة نذكرها عاماً فعاماً  
أيضاً حلوا هلاكاً واحتراماً  
فادعوهم يلاؤا الدنيا كلها  
يمهل الأنبياء شؤماً وانهزاماً  
يطلق الزاحل في الجو الحماماً  
فقرأناها سطروا من دم

وكأن حافظاً يستشف حجب الغيب، ويسبر أنوار المستقبل حين يتنبأ  
ثورة إفريقيا كلها على الاستعمار لأنها كان يتطلع من نافذة الزمن إلى ثورة  
مراكش، وثورة الجزائر، وثورة تونس، وثورة مصر، يرى ثورة هذه  
الشعوب كلها على الاستعمار من وراء الدخان الكثيف الذي تحدشه إذ ذاك نار  
الثورة الليبية المسلحة ضد الإيطاليين، ولقد صدق نبوته بعد أربعين عاماً

خاستيقطت إفريقيا هذه الظاهرة الكبرى، فاستقلت مصر، واستقل السودان  
واسْتَقْلَتْ إِيَّاهَا، واسْتَمْلَتْ تونس، واستقلت مناكش، وكلنا إيمان بأن بُنْرُ  
الحرية في آفاق الجزائر العربية المناضلة سينبهأج قريباً تجْرِف أضواؤه العاصفة  
ظلمات الاستعمار فتلادش إلى الأبد، كلنا إيمان في أن يرتفع علم الاستقلال  
وشيكة رحمة الله الدولة المجاهدة في الجزائر الحمراء مهد الأبطال ومهبط الشهداء،  
وبذلك تصبح نبوة حافظ في الدولة العربية الثانية عشرة ويزغ في الأفق  
العربي الكبير هلالاً جديداً، ولنسمع إلى كل هذه المعانى القوية وهذه المشاعر  
العربية الطاغية، نسمع إليها في هذه الأبيات من قصيدة له التي بين أيدينا :

إِيَّاهَا فَيُزُوفُ نَمْ عَنْهُمْ فَقَدْ نَفَضَتْ إِفْرِيقِيَا عَنْهَا الْمَنَامَا  
فَهُنْ بِرْكَانٍ لَهُمْ سُخْرَهُ مَالِكُ الْمَلَكِ جَزَاءُ وَانتِقامَا  
لَوْ دَرُوا مَا خَلَأَ الْمَرْقُ فَهُمْ آثَرُوا فَيُزُوفُ وَاخْتَارُوا الْمَقَامَا  
تَلَكَ عَنِّي أُمَّةٌ غَازِرَهُ تَنَكَّثَ الْعَهْدُ وَلَا تَرْعِي الْذَمَامَا  
نَالَكَ عَنِّي أَمْرٌ جَبَارٌ طَنَى أَوْ تَعَالَى ، أَوْ عَنِ الْحَقِّ تَعَامَى  
لَوْ دَرَتْ رُوْسَةٌ مَا قَدْ نَاهَهَا فِي طَرَابِلسِ أَبْتَ إِلَّا انتِسَامَا

ويعلو : حافظ في ختام هذه القصيدة، إلى أمم الشرق بمحنة معه في الشرق العربي  
المحب إلى نفسه يطمئنها على إشراق مستقبلها، ويصر لها بأن لا تستسلم

لسلطان اليأس الذي يقتل الآمال ويثبط الهمم، لأن حظها قد صحا من إغفائه  
ولأن قلوب أبنائهما تنزع إلى المجد ولا ترضي الهوان :

فاطئني أمّ الشّرق ولا تقنطى اليوم فإنّ المجد قاما  
إنّ في أضلاعنا أفيضة تعشق المجد وتأبى أن تضيّعا

وأخيراً يسرني أن أحكي هذا العيد الفخّي الذي سيختل لا عا في آفاق  
الخلود، وأحيي بـأخلاص وحرارة روح حافظ في علياتها تملّك الروح المؤمنة  
الكبيرة المتسامية التي أفضت على الشّرق من نبعها المذب آيات من الشعر  
بيانات، وروايات من الأدب خالدات، ويُسرني أيضاً أن أوجه شكرى بمحدها  
إلى القوامين على هذا الحفل ، والمذين ساهموا فيه من أشقاءنا أعضاء  
الوقف العربي .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الْخِتَام

---



# کامِ المُؤْمِنِ اِلٰہِ اَنْشَارِی

سادتي ، هي كلمات ثلاث : كلمة شكر ، وكلمة تحية ، وكلمة انصاف  
كلمة شكر للجلس الأعلى للفنون والآداب ، وتحية لحافظ ،

وكلمة إنصاف للتاريخ ،

فيما سبق المؤتمر الإسلامي أشكر لاجلس دعوته لهذا المهرجان الذى استمتعنا فيه بهذه الدراسات الشاعقة التي لم يُؤثر في شموهها قصر الزمن الذي اقتضاه تخصيص البرنامج لكل منها ، والتي لم تؤثر في نزاهة أحکامها بمحاملة الذكرى التي نحتفل بها ، بفأمت وجية سديدة جديرة بالنشر والبقاء .

(\*) في ختام المهرجان دعا الأستاذ يوسف السباعي السكرتير العام للجلس إلى حفل شاي ، ارتجل فيه كل من الدكتور عبد الله الطيب ممثل السودان ، والأستاذ حامد رواجحية ممثل جبهة التحرير الوطني الحمازيرية كلة شكر نيابة عن الوفود العربية ، وارتجل الأستاذ عبد الرحمن صدقى كلة لحنة الشعر ، ثم ألقى كلة الاسكندرية الأستاذ علي نور والشاعر عبد الله رزق .

وكلمة تحية لحافظ الذي كان له الفضل في اجتماعنا في هذه الندوة  
الأدبية من جميع أجزاء الوطن العربي الكريم ، فحققتنا بذلك ما طال  
دعا إليه حافظ في شعره . وكان تذكرة أو تمثالة اليوم يقول فيها كما  
قال قدما :

هذه يدی عن بنی مصر تصاحفکم فصاخوها تصاحف نفسها العرب  
وكلمة إنصاف للتاريخ .

ففي نسوة احتفالنا بذكرى شاعرنا العظيم لم يجده على حساب التاريخ ،  
ولم نحول سيراته إلى حسنات ، وإنما كلّا معه كما قال هو عن فكتور  
هوجو ، وكأنّها وصف نفسه يومئذ :

اعزة الشّاج وزهو الموكب ،  
باليراع الحر لا بالقضم :  
تمتطي في البحث متن الكوكب ،  
سيرة الإسلام في عهد النبي .  
لم تشبه شائبات الكذب :  
فاطرحوا تربى وصونوا ذهبي .  
جاءها ( هوغو ) بعزم دونه  
وانبرى يصدع من أغلاطها  
هاله ألا يراها حرة  
ساهه ألا يرى في قومه  
قلت عن نفسك قولًا صادقا  
أنا كالمترجم : تبر وثري ؟

و كذلك كان حافظ ، ومن حقه علينا أن نطرح تربة ، وأن نصون ذهبها ، ومن حقه علينا ألا ننكرون قد طرحتنا تربة حين صننا ذهبها .

# كآخر المحسّنَ لأستاذ يوسف التسلياني

أيها السادة

لا أريد أن أطيل عليكم ، فهذه الدعوة إلى طعام ، والطعام خير من الكلام .

لقد قلت في بداية هذا الاحتفال : إن دعوتنا إلى إحياء ذكرى الفنان ليست مجود دعوة إلى سماع كلمات رثاء أو مدح ، وإنما هي دراسة لإنتاجه من أقدر الناس على عمل هذه الدراسة . وأعتقد ، بعد أن انتهى هذا الحفل ، أن الأحاديث والبحوث التي قيلت قد أيدت كلامي ، وأنه قد اجتمع لنا من مجموعة هذه الأحاديث سجل ضخم حافل بدراسة كاملة لإنتاج شاعر النيل وحياته ونواتره .

ويبدو لي أن الخير كل الخير هو أن تقام هذه الاحتفالات بعد فترة غير طويلة من دحيل الفنان ، حتى نستطيع أن نحصل — من عاصروه — على طرف من حياته وأخلاقه التي لو طال بها الزمن ، وفقدنا الصلة بهؤلاء المعاصرين لما استطعنا الحصول عليها .

ولقد قال لي الدكتور مهدي علام عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس إن الاحتفال بذكرى حافظ سيعينه على دراسته في كلية الآداب في العام القادم ، إذ قرر أن يكون "حافظ" هو الشاعر الذي سيدرس إنتاجه . وقال إنه يعتقد أن السجل الذي سنخرج به من هذا الاحتفال سيصبح خير معين على هذه الدراسة .

وبعد :

فإنني أرجو أن تكون قد وفينا "حافظ إبراهيم" بعض حقه ، وأن تكون قد حفظنا الفنانين على الاقتداء به ، ونسأله الرحمة ،

والسلام عليكم ورحمة الله ،

# فهرس

صفحة

تصدير ..... ٥

## كلمات

كلمة الافتتاح للسيد كمال الدين حسين رئيس المجلس	١
« المجلس للأستاذ يوسف السباعي	٦
« بحثة الشعر للأستاذ عباس العقاد	١٠
« الأردن للسيد محمد سالم الجيني	١٨
« تونس للسيد ميد العروسي	٢٤
« العراق للسيد محمد صالح مهدي	٢٨
« ليبيا للسيد أحمد راغب الحصاري	٣٣
« المغرب للسيد أبو بكر القادري	٣٩
« الجامعة العربية للدكتور رئيف أبواللع	٤٣
« المؤتمر الإسلامي للدكتور مهدي علام	٤٧

## تحية الشعر

تحية الشعر للأستاذ عباس العقاد	٥٣
ذكرى حافظ لـ الدكتور عبد الله الطيب	٥٦
مهرجان حافظ للأستاذ محمود عماد	٥٩

محاضرات

٦٣	عصر حافظ للدكتور محمد صبرى ... ... ... ... ...
١٠٣	حياة حافظ للأستاذ أحمد حسن الزيات ... ... ... ...
١١٩	الزعة العربية في شعر حافظ للأستاذ شفيق جبرى ... ... ...
١٣١	الوطنية في شعر حافظ للدكتور عبد الوهاب عزام ... ... ...
١٤٩	ذكريات عن حافظ ومحالسه للأستاذ عبد الرحمن صدقى ... ...
١٧٤	دراسة تاريخية لشعر حافظ للدكتور شوقى ضيف ... ... ...
١٩٣	قصائد مختارة من شعر حافظ للأستاذ كامل الشناوى ... ...
٢١٥	شعر حافظ ومتراجاته للدكتور محمد متدور ... ... ...
٢٤٠	حافظ وبجهاد الأحرار في ليبيا للأستاذ راغب المصايرى ... ...

الخطب

٢٤٩ ..... كتيبة المؤتمر الإسلامي للدكتور مهدي علام .....  
٢٥١ ..... «المجلس للأستاذ يوسف السباعي

تم طبع هذا الكتاب في يوم ١٥ جماد أول سنة ١٣٧٧  
(الموافق ٧ ديسمبر سنة ١٩٥٧ م)

مدير المطبعة الأميرية  
عبد المنعم إبراهيم